طلاب الليل

مكسيم جوركي

ترجمة :ابراهيم جزيني

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة:

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

- 1 -

تبين لكليم سامغين، وهو يتحدث إلى السيدة سبيفاك عن المعرض، تبين له أنه لم يعد يكنُّ لها شيئًا من الحنوّ، وأن ذاكرته هي فقط التي تحتفظ ببعض العلامات.. ومن هنا عرف بأن قصته تنقصها الفائدة المتوخاة.. كان يخشى أن يقع فريسة إيفكوف ويجعل منه شخصية هزلية لمقالاته وتعليقاته.

أما بالنسبة لغيديسوفا فقد وجد أيضًا صعوبة في انتقاء العبارات التي سيوجهها إليها وهو يكلمها.. وعندما نطق بها، شعر ببهجة في الصوت وقساوة في المنطق.

لم يعد يذكر، بعد هذه المعارض كلها، سوى تلك السيدة العجوز التي أثر فيه كلامها جدًّا.. لم يذكر ما هي الأفكار التي حلم بها يوم كان شابًّا وأن ذاكرته لم تحتفظ منها إلا بهذه الابتسامة المصطنعة.

كانوا يجلسون في الحديقة، تحت أشجار الكرز المحملة بالفاكهة النضرة الناضجة.. كان الوقت مساء والحرارة بارتفاع يبشر بهبوب العاصفة، في سماء رمادية اللون أشبه بالحليب الدسم، تدفعها الغيوم الكثيفة وتلقي أشباحًا غريبة على البستان، ومع ذلك فقد استمرت الأوراق والأغصان جامدة لا تتحرك، جلست السيدة سبيفاك، ويداها على خديها، متكئة إلى مقعد حجري تراقب الظل يروح ويجيء فوق الطاولة.. وتمدد زوجها، عاريًا حتى وسطه، تحت النافذة فوق سجادة، يسعل بشدة ويدفع إلى الأمام وإلى الوراء بعربة طفل كبير الرأس يتطلع إلى السماء ويدرس تفاعل الغيم وتنقلاته. بنفس اللهجة، ولكن أشد مما ورد في كتابات إينوكوف. حدثني عن القيصر، قالت السيدة سبيفاك وهي تبتسم: إن إينوكوف يكتب وكأن ليس في روسيا كلها من مثقف ومتعلم سواه وأن الجنود لا يعرفون القراءة.

اقترب الحيوان الصغير الأحمر من سامغين، فهدر هذا منفعلًا ورماه تحت الطاولة.

- حسنًا، سألت السيدة سبيفاك، هل حدثك أحدهم عن مأساة كودينكا؟

- كودينكا؟ لا، لم أسمع شيئًا أبدًا، أجاب كليم، وتذكر حتى هو نفسه عندما تحدث عن القيصر، لم يفكر مرة بمأساة موسكو، ثم قال وهو يبتسم ساخرًا:

- لقد نسيها ذلك الشعب الطيب القلب.. وحتى إينوكوف نفسه، والذي يحب التحدث عن الأمور المزعجة، لم يعد يذكرها.

تطلعت السيدة إلى زوجها بتمعن وأرادت أن تجيب بشيء، ولكن الولد حرك شفتيه وكاد أن يبكي. شدها من طرف كمها وقال:

- يطلب أن يأكل!

أخذت ولدها ثم التفتت وهي تضع ثديها في فمه لتقول شيئًا:

- أرأيت كم هو عاقل هذا الصبي! غير متأنق، يكتفي بنفسه، يتأمل العالم على سجيته ويدرس أمور السماء وكواكبه. يا له من طفل لطيف!

وأجاب الأب، وهو يتفحص أصابعه بالقرب من نور المصباح:

- يعتقد أن الموسيقى مختبئة بين أناملي، تحت أظافري.

اعترى كليم نوع من الضجر الممل والمتزايد، كان كل شيء مزعجًا: المرأة ذات الثوب الأبيض تتلاعب فوقه أطياف الشجر تروح وتجيء، الموسيقي المسلول ذو الوجه الأخضر والنظارات السوداء، خضرة البستان النابتة، السماء المكفهرة، وأخيرًا حركة المدينة التي لا تهدأ.

عاش عدة أيام وليالٍ سريعة، يضغطه الضجر، ترافقه والدة فارافكا.. وبعد ذلك غادروا المكان إلى كريميه، وهذا أفقده شهرًا من الراحة وهو يتنقل بين المدينة والبيت.. وفي الليل، عندما تعذبه تصرفات المرأة، يفكر بليديا بحقد واشمئزاز.. صعد ذات ليلة إلى غرفة الفتاة وفوجئ بشيء مقرف حقًّا. لم يجد شيئًا في البيت، إذ إن الأثاث قد رتب ووضع في مكان خاص به، حتى أواني الزهر لم يعد لها من أثر فوق حافة النافذة. بدا له هذا الفراغ المفاجئ وكأنه يسأله:

- هل هناك فتاة فقط؟

وصل إلى القاعة الكبيرة مسرح ألعابهم الصبيانية طيلة أيام الشتاء، وراح يذرعها جيئة وذهابًا ومن زاوية إلى أخرى.. يفكر بأن كل شيء يغيب عن الذاكرة ما عدا الشيء المؤلم.

كان والده يعيش في مكان ما ولذلك لم يفكر به.. كما أنه طرد من ذاكرته خيال أخيه ديمتري أيضًا، بينما لم يستطع مقاومة التفكير بليديا، لا بأس أن تصاب بشيء ما أو تحصل لها مصيبة. كأن تُخذل في الحب أو أي شيء من هذا القبيل.. يجب أن يصيبها ما يخفف من عنفوانها وكبريائها.. بم تفتخر؟ لم تكن جميلة أو ذكية.

كان الضباب يغطي كل ما في المنزل، فيلوّن الأفكار من جهة ويبيدها من جهة أخرى.. بينما الخدم يتنزهون بلا مبالاة في الساحة العامة.. تطلع إليهم كليم كمن ينظر من عربة قطار إلى الأبقار ترعى في الحقول.. كان يغوص في ضجر يأتيه من كل حدب وصوب.. من البناء، من الأشياء.. حتى من المدينة نفسها، ومن النهر ومياهه العكرة.

كانت صور المعرض تفقد بهجتها وألوانها وتتلاشى من ذاكرته كالحلم.. حتى ظن البعض أن ظل القيصر ران عليها وأبادها دفعة واحدة.

تركته السيدة سبيفاك على سجيته دون أن «تعطيه الدرس» كعادتها.. فوجد عملها لطيفًا ومريحًا. كانت تبدو منهمكة بطلابها ومشاكلهم.. بمدرستها وأمورها.. لا تتكلم سوى عنها وعن طلابها، وبدون تذمر

أيضًا، كانت تنظر إلى كل شيء، باستثناء ولدها وزوجها، نظرة تفقدية.. نظرة إنسان تَعِب ومنهوك القوى..

تذهب إلى المدرسة في التاسعة صباحًا ثم تعود إلى البيت في تمام الثالثة بعد الظهر.. تتنزه في الحديقة، برفقة كتاب وولدها، حتى الخامسة.. وعند السابعة تغادر المنزل لتدرب فرقة موسيقية وتعود في ساعة متأخرة.. وفي أحيانٍ كثيرة يرافقها رئيس الفرقة إلى منزلها بسيارته..

سألت كليم مرة أو اثنتين:

- هل ستكتب شيئًا عن المعرض؟

- هذا ما أفعله.. أجابها كليم، مع أنه لم يبدأ بالكتابة بعد.. لقد أفقده الضجر شجاعته.

وفي الصباح، وبعد أن تغادر امرأته البيت لساعة واحدة، يتجه سبيفاك من شقته حتى الباب الخارجي.. يسير بخطى وئيدة كطفل بدأ يتعلم حديثًا كيف يدب فوق الأرض.. كان يملك كلبًا وقد علق له في عنقه آلة موسيقية، فما إن يلتقي الحيوان بصاحبه، يخفض الآلة ويبدأ «يكلمه» موسيقيًّا.

والتقى بكليم ذات يوم:

- انظر، قال وهو يرفع يديه باتجاه وجه سامغين ويريه أصابعه السبعة: سبع أنغام فقط، سبع! أليس كذلك؟ قل لي.. ماذا فعل موزارت، بيتهوفن وباخ؟ إنه ذات الشيء أينما كان وفي كل شيء أيضًا.. أعطينا الشيء القليل وخلقنا الشيء الأكثر والأروع.

كان يدعي أن لغة الموسيقى هي أغنى بكثير من لغة الكلام.

- كي يتم الموضوع، يلزمك عشرات الكلمات.

وأعلن أمام كليم، في الحديقة، ذات مساء حار كمن يعلن شيئًا جديدًا:

- أتماوت.. سأموت في الخريف بالتأكيد.

- هيا بنا.. دعك من هذا.. أجابه كليم وهو يحاول ألا يظهر بمظهر اللامبالي.

- حتى امرأتي لا تؤمن بما أقول.. رد سبيفاك وهو يرسم بإصبعه في الهواء شيئًا معقدًا، أما أنا.. فأعرف أنه سيكون في الخريف. لا تعتقد أنني خائف، لا.. ولكن آسف جدًّا. أحب علم الموسيقى.

تطلع إلى أصابعه وزفر متنهدًا:

- امرأتي أيضًا تحب التعليم. أجل! يجب أن نبني الحياة كالفرقة الموسيقية.. ليلعب كلٌّ فيها دوره ويسير كل شيء على خير ما يرام.

كان يتكلم بصعوبة واللهاث يتصاعد من بلعومه.. وفجأة أخذ رأسه بين يديه واستعاد أنفاسه ثم قال:

- إن للغبار في هذه المدينة رائحة روث العصافير.

كان كليم يستمع إلى محاضراته وكأنه يقطف ثمار شجرة الشيطان ديوميدوف.. لم تكن، كلها؛ إلا لتزيد في ضجره.. وتدفعه باتجاه مكتب الجريدة.

كانت رئاسة التحرير تقع في زاوية شارع «نوبلس» الفخم.. بالقرب من أحد ملاجئ الأيتام المنعزلة عن المدينة وضوضائها.. بدا البناء المؤلف من طابقين مقسمًا إلى جهتين! واحدة تطل على الشارع والأخرى، وقد أضيفت إليها نافذتان، تختفي في آخر الشارع.

لم يكن لمدخل البناء شيء يفرقه عن غيره.. لا أشجار أو ما شابه عند المدخل.. تلون الشمسُ الزجاج وترسل أشعتها فوق الحروف النحاسية النافرة لاسم الصحيفة «منطقتنا».

صعد كليم سلمًا خشبيًّا تهزه دائمًا جلبة آلات الطباعة، ودخل إلى غرفة كبيرة حيث كان دورنوف يجلس إلى طاولة كبيرة ينقل بعض المقالات من إحدى المجموعات القديمة.

وقف وجاء للقاء كليم مترددًا وكأنه لا يعرفه أبدًا.. وعندما ابتسم له هذا، أخذ يده بين يديه وهزه بسرور مبالغ فيه.

- ها قد وصلت! منذ متى؟

- كيف حالك؟ أجاب كليم ممتعضًا من هذه الحفاوة..

- لا بأس والحمد لله.. ويعود الفضل بذلك إلى الأولاد المهجورين، أجاب إيفان بصوت عال جدًّا، لكي تتحلوا بروح النكتة، يقول المسؤول، أحضر لنا أولادك المهجورين لنختمهم فيبدو كل منهم أكبر مما عليه بخمس مرات.. أي أنكم ستبيعونه خمس مرات أيضًا..

كان حليق الشعر مما يكشف جمجمته الضخمة المسطحة ويوسع وجهه. ثم أكمل:

- إن الكل هنا يشاركون بالنكتة.. أما في هذه المدينة الملعونة فالمسألة تختلف تمامًا.. ليس هناك مواضيع تستحق التعليق.. ولذلك يتوجب على المرء أن يقتل ويحرق وينهب بنفسه كي يخلق موضوعًا لمقالاته.

كان يتكلم ويرسم بحافظة أقلامه السداسية الشكل فوق نجمة شمعية تشبه خريطة جغرافية، ويسترق السمع إلى الضوضاء الآتية من الباب الخلفي لمكتب رئيس التحرير حيث يظن أن هناك هرًّا يعبث ببعض الأوراق..

فتح الباب وظهر رئيس التحرير في العتبة يحمل بيديه أوراقًا يلوّح بها وينادي بعصبية:

- درونوف! أيها الشيطان.. أين أنت؟ أوه.. عفوًا.. صباح الخير، قال بحبور وهو يفتح الباب على مصراعيه، أرجوك.

وبعد لحظة كان يقول لكليم الجالس أمامه:

- كان الرقيب يشكو من حذف الكلمات.. أعني يتخوّف منها.. ولذلك بدأ السادة المتعاونون يتباهون.. ويبين كل منهم لرفيقه أنه أكثر منه راديكالية. كان يتكلم على مهل وكأنه يملي خطابًا.. يمسح العرق عن صلعته وسوالفه البيضاء، بينما شفتاه تتحركان ببطء وتنفرجان عن أسنان صفراء وتأخذ شكلًا مضحكًا،

خاصة وهو ينطق بالكلمات اللاتينية المصدر، كان كليم يعرف أن نقطة الضعف في الصحافي هو جهله باللاتينية.. إن كل ما ورد في مقالاته كان خاطئًا ولا معنى له..

وخلف رئيس التحرير وضعت خزانة مملوءة بالكتب تعكس ظهره وكتفيه العريضين كأكتاف المرأة.. حتى بدا وكأن رئيس تحرير آخر وضع في هذه الخزانة.

- عليك أن تفهم وتدرك مدى صعوبة القوانين.. وهل أقسى من التعبير عن الإرادة الشعبية؟ ثم هناك الماركسيون والذين يدعون أنفسهم ثوارًا ويفتقرون بالفعل إلى محبة الشعب.

كانت رائحة حبر الطباعة تملأ جو الغرفة المملوءة بالصحف.. وتنهد رئيس التحرير ببطء:

- عن المعرض؟ سأل وهو يطرد ذبابة عن سوالفه أبت إلا أن تحط فوق العرق المنساب على مهل، إن إينيكوف مراسل فاشل، أكمل وهو يضرب على سالفه ببعض المخطوطات ليطرد الذبابة الملحة، ثم يعبس ويتطلع إلى الطاولة والأوراق المبعثرة فوقها.. إنه شاب مدعي وفضولي، أخبرني كوفالفسكي، العالم النفساني، نفس الشيء عن تيمون اليوناني ولكن هذا الأخير كان لطيفًا مرحًا. وأخيرًا استطاع سحق الذبابة تحت المخطوطة وتنفس الصعداء فرفع شفته ومدها إلى الأمام يزمها قليلًا.. وهنا عرف سامغين أن رئيس التحرير يبتسم.

- ومع ذلك، فإينيكوف يكتب أشعارًا مستحيلة، أبياتًا شعرية صعبة ومبهمة.. وعلى فكرة، لديّ أمتار منها، هل تريد أن تطّلع على بعضها؟ علك تجد فيها شيئًا يتناسب مع عدد الأحد.. وأعترف لك صراحة بأنني لا أفقه شيئًا من هذه القصائد العصرية.. تجهم وجهه ثم فتح جرارًا أمامه وسحب مجموعة من الأوراق، مختلفة الأحجام، وناولها إلى سامغين.

- أجل.. ها هي.. لقد أحضر إينيكوف، منذ خمسة عشر يومًا، قصيدة مناسبة ونشرناها.. إنها قصيدة لبنديكتوف. طبعًا، هزأ البعض بنا.. سألته ماذا يعني ذلك فقال إن أحد الرهبان هو الذي أعطاه إياها.. وأقول لك صراحة بأنني لم أصدق مثل هذا الادعاء..

ثم دخل رسام الكاريكاتير وسأل:

- هل اغتلتني مرة ثانية؟

ثم أكمل وهو يصافح كليم:

- إنه الكاريكاتير الخامس هذا الشهر.

جلس على حافة النافذة وسعل بقوة حتى انتفخ وجهه الأصفر، وتورد.. بينما راح يضرب الحائط بنعليه.. واستراحت خصلات شعره الأسود مبعثرة فوق وجهه.. وعندما انتهى من السعال مسح فمه بمنديل وسخ وأعلن لكليم:

- أصابني رشح مستمر.

قال إنه منذ تسعة أعوام وهو يعمل في الصحافة.. قضت الرقابة على إحدى عشرة مجموعة من الصحيفة، فحذفت عشرين صفحة من كل مجلد وأربعين ألف كلمة.. أحس سامغين أن روبنسون يتكلم ليس بمرارة بل بفخر واعتزاز.

- إنك تبالغ، قال رئيس التحرير وهو يتطلع من طرف عينه ويقرأ مخطوطًا أمامه.. بينما راح يرقب ذبابة أخرى أتت لتنتقم لرفيقتها المتوفاة منذ لحظات..

أراد روبنسون أن يجيب فقفز من النافذة ثم سعل وبصق في سلة المهملات.. أزاحها رئيس التحرير برجله بعيدًا وقال:

- نسينا أيضًا البصاق.

دخل درونوف فقال له رئيس التحرير:

- ناديت الخادم وليس أنت.

- أتيتك بالأصوات المتفرقة..

- ماذا بالضبط؟

- غريق.. اختلاسان صغيران.. تبادل رصاص في السوق.. وحادث سيارة بسيط.

- يا لها من حياة!! قال روبنسون وهو يأخذ كليم في يده.. هيا نشرب البيرة.

ووقف درونوف في الباب يتطلع من فوق كتف رئيس التحرير ويقول:

- البارحة، في مجلس الوزراء، اختلف المفتش توركوف، المسؤول عن السجون مع المستشار غراتشيف ودعاه بالأحمق ووصف تيموتييف باللصوصية.

- ولكن لم يصدقه هذا وذاك..

أكمل روبنسون، وأخذ كليم معه.

لم يود سامغين أن يدع فرصة التعرف إلى مثل هذا النوع من الرجال تفوته.. وفي الشارع، سار بعكس الريح وغطى وجهه بيديه تفاديًا للغبار.. يعكر صفو سكوتهما سعال متقطع يفتعله روبنسون نفسه.. سارا مدة ثم قال يخاطب كليم بحيوية:

- لنذهب إلى والهالا، هكذا أسمي «الفولجا»؛ لأن علة الليل هي الولهالا الروسي، حيث يرتاح أبطالنا، وكذلك الرجال الذين أنهكهم الحب.. من أي نوع أنت أيها الشاب؟

مشيا في شارع نظيف ومرا أمام المتاجر المتنوعة والمتخفية وراء الأسوار الخضراء والحدائق النضرة..

- بيوت مريحة، قال روبنسون وهو يتنشق الهواء الحار.

- إن أناسًا مثله، عديمي المسؤولية، لا يهمهم شيء.. قال سامغين في نفسه.

- تذكر، عند تولستوي، العم أكيم الساخر حول نافورات المياه..

ابتسم كليم ولم يجب.. لقد وجد فجأة ما يضحكه في شبح هذا الإنسان الضخم..

- لا أظنك شقيًّا، قال دون تفكير.

- فعلًا.. لست كما تقول، أجاب روبنسون..

ولكن الشقاوة كانت لازمة.. هكذا تتطلب المهنة.

كان المطعم يقوم عند جسر ينحدر حتى النهر، بينما بدت شرفته معلقة في الهواء كخيط حريري.. وفي الأعالي كان بالإمكان رؤية النهر المنساب بهدوء..

وفي إحدى الزوايا جلست امرأة ضخمة جدًّا، مفرطحة الأنف واسعة الجبين تتململ أمام كأس فارغ.

- السيدة كاسباري، همس روبنسون في أذن صديقه.. وممنوع التكلم عنها في الصحافة بأمر من الرقابة..

وبصوت جهوري قال للشاب:

- ميشا، أحضر لنا سمكًا وبعض البيض وزجاجتي بيرة..

أشعل سيجارة ومد ساقيه تحت الطاولة ثم تراخى في كرسيه وراح يتكلم ويتفحص وجه سامغين بانتباه وفضول:

- أحب أن أعرف ماذا سيفعل جيلك الذي لا يكوّن فكرة واضحة عن الإنسان؟ على كلٍّ.. يبدو لي أن الرجل- البطل، بالنسبة لكم سخيف ومخيف، مع العلم أنكم تأخذون بأفكاره وكأنه عمل لأوغيست بابل وأشباهه.. يبدو لي أنكم إفراديون أكثر من الشعوبيين أنفسهم، وأنكم لا تدفعون المجموعة إلى الأمام إلا لتبقوا أنتم في المؤخرة، وعلى حدة... لا نمس بأحدكم، وقد تفانى بحب شعبه أو احتار بأمر مصيره.. كما هو غليب أوسبنسكي.

استاء سامغين من هذا التصريح وقطب حاجبيه بحثًا عن جواب مقنع، لم يهمه التحدث بالسياسة.. لكنه كان يريد أن يعرف على أي اعتقاد بنى روبنسون حقه بانتقاد الجميع.. نفخ دخان سيجارته عاليًا وغمز بعينيه، وهنا أكمل محدثه وقال:

- هل تتذكر صرخته المحزنة حول تأثير الذكاء والضمير المتوجبين لبناء الحياة على الكذب.. على الخطأ والادعاء؟

قام بتفتيت كسرة خبز، وراح يرمي الفتات إلى طيور الحمام المنتشرة من حوله، يتطلع إليها وهي تبحث عنه..

- أجل، إن الحياة تصبح عديمة الأخلاق ولقد تعبت من تمثيل دور المصلح فيها.. إن الكاريكاتوريّ يا صديقي، ليس سوى كاذب دائمًا على درجة منخفضة..

نهض فجأة وقذف الحمامات بحفنة من فتات الخبز ثم قال:

- يا للطائر الوقح، أما بالنسبة لأوسبنسكي فهو إنسان متفائل؛ لأنه سهل جدًّا، وبناء الحياة على الأكذوبة والخطأ لا يتطلب من الإنسان أي جهد.. إن كان في الضمير أو في الذكاء..

كان يتحدث بسرعة وكأنه يركض في ممر تكثر فيه المنعرجات ويتنقل من موضوع إلى آخر.. شعر كليم بأن هناك شيئًا مزعجًا في هذه القفزات، شيئًا من التناقض يشبه الاعتراف إلى حد بعيد.. فاكتفى بالتريث والاستماع. كان يجد لذة فائقة، وهو يستمع إلى رجل يتكلم عن شيء حققه ولم يحلم به بعد.

- إنني أتغذى فقط من السمك والبيض؛ فهي أغنى الأطعمة بالفوسفات على الإطلاق.

ولكنه لم يتعرض للبيض بشيء، وإذا به يلفها ويضعها في جيبه.

- إنها لكلب أعرفه.. لا يمكنك أن تتصور كم أشفق على هذه الكلاب المشردة.. حيوان أليف وذكي، ومع ذلك فالجميع يتجاهلونه! لاحظ جيدًا يا سامغين، لا أظن أن هناك إنسانًا يحب إنسانًا آخر كما يفعل الكلب!

شرب البيرة على دفعات وكأنها النبيذ، واستمر يسخر:

- ما رأيك بالنكات؟ سأل منتعشًا، أنا أحبها جدًّا.

أطبق عينه اليمنى، ثم قال وهو يقلد صوت الإنسان العجوز: إن الفضولية التي تميز الذكاء الشعبي تقوده لأن يرى الحقيقة بشكل خرافي وهزلي، لا، إن الحقيقة ليست هكذا.. خذني أنا مثلًا لذلك!

لقد عشت في إحدى عشرة مدينة ولم أجمع منها سوى النكات.. عملت في كازان لدى رجل غني جدًّا، وكهل وبخيل أيضًا.

أخبرني أن غبريال درجافين جعل من نفسه فقيرًا حتى عامه الأربعين.. إذ كان ينطلق في الشوارع يغني ويستعطف المارة وينتقد الدولة، اكتشف القيصر أمره فأبعده إلى سيبيريا.

كان في صوت روبنسون شيء من الحزن العميق.. حاول أن يخفيه في البدء محاولًا الابتسام بسخرية ولكنه فشل في ذلك.. وفي وجهه العظمي تراكضت أطياف رمادية تبدو وكأنها تنبع من تحت عينيه الملونة، فلمعت هذه بشرارات محمومة تغطيها الأهداب عندما تطبق فوقها بحزن.

- هكذا فسر لي اسم درجافين: كان هناك موجيك(1) من كازان يعمل سائقًا للمقالي في قصر كاترين الكبرى، فاختلفت هذه ذات يوم مع عشيقها بوتمكين وصرخت فيه تقول:

(1) الموجيك : صغار الفلاحين و الأتباع المسخرين من طرف النبلاء. (المترجم)

«سأقطع لك رأسك!» هرب المسكين فزعًا واندفعت هي، غاضبة، وراءه، تبحث عنه، عارية، ولما كان غبريال ذكيًّا تصدى لها وقال: «لا يمكنك أن تسيري وراء عشيق أيتها القيصرة». وهنا عادت إلى رشدها وأجابت: «إنك على حق يا غبريال، ولذلك تستحق مكافأة لأنك حافظت على شرفي كامرأة وقيصرة.. وأبعدت عن القصر الفضيحة» فعينته حارسًا خاصًّا على باب غرفتها طيلة سبع سنوات وأُطلق عليه اسم «الحارس».. أما بوتمكين فنُفِيَ كحاكم إلى كازان، ثم عاد فيما بعد وانضم إلى بوغاتشيف.

سحب روبنسون من جيبه علبة لفائف بنية اللون ثم أشعل واحدة وهو يتطلع، بسأم، إلى ما بعد النهر ويتنهد فيقول:

- دونت أكثر من مائة نكتة عن القياصرة، والشعراء، والرهبان وحكام المقاطعات.

- شيء مفيد جدًّا، قال سامغين بعدم مبالاة.

وبينما هو يستمع إلى حديثه تذكر ما قاله عنه فارافكا: «إن روبنسون ينتمي إلى هؤلاء المثقفين الذين لا يستطيع الاختبار الشخصي أن يتجسد في نفوسهم تحت أشكال معينة، ولا يصبح كذلك منبعًا لتهذيب قاس، لكنه يزيد في نفوسهم الغموض والقلق.. وروبنسون لا يتعدى كونه كلب منزل».

وقف كليم ومد يده يقول:

- حان الوقت كي أذهب.

- وأنا كذلك، قال روبنسون.

وفي هذه الأثناء، كان شيء ما يجري وراء الكواليس، برز في الشرفة رئيس الكنيسة: رجل طويل القامة، أصلع، خرج من المطعم يجرّ قدميه بصعوبة.. وبدت أطراف شواربه مفتولة تكاد تصل حتى عينيه.. وكذلك شخصية بانت مهذبة، يحمل بيده عصا متقنة الصنع:

- إنه كورفين، همس رسام الكاريكاتير وهو يمد عنقه ويسعل.. أخفى يديه في جيبه وجلس فوق كرسيه. كان يدَّعي أنه من سلالة ملك هنغاريا ستيفان كورفين.. إنه أحمق، يضرب خدامه بقسوة.. وكتبت عنه مقالًا منذ مدة.. انظر كيف يتطلع إلينا بشراسة.

كان يتلاعب بعصاه وينقلها من يد إلى أخرى، ثم يرسم بيده أشياء مبهمة يستدل منها أنه يحتفي بقدوم السيدة التي تجلس في الزاوية.. وسار كورفين إليها تشده ضحكتها المغرية.. وما إن رأى الكاريكاتوريّ حتى توقف وقطب بين حاجبيه واهتزت أطراف شاربيه، بينما يتطاير الشرر من بؤبؤ حدقتيه الواسعتين..

كان كليم واقفًا الآن يستند إلى ذراعي الكرسي وينتظر فضيحة ما.

في هذه البرهة اندفع، كعصفور كبير أسود من باب المطعم، إينيكوف وهو يرتدي معطفًا جيدًا ويحمل قبعته بيده ويمد الثانية أمامه كمن يحمل سيفًا.. تذكر سامغين السيف لأن هيئة إينيكوف كانت تذكره ببطل بازان الحزين، «دون سيزار».

- هيا، إينيكوف، حتى كنت... صرخ الكاريكاتوريّ ووقف بسرعة.. وعاد ليجلس بينما كان إينيكوف يمر بقبعته على وجه كورفين، رئيس الكنيسة.. يأخذ عصاه ليرميها من فوق سور الحديقة ويمسكه من عنقه يهزه بعنف ويقذفه بالعبارات النابية.

لم يكن كورفين ليصل إلا إلى كتف إينيكوف، ولكنه بدا أقوى منه وأشد بأسًا.. ظن كليم أنه سيمسك بإينيكوف ويرميه كما فعل هذا الأخير بالعصا.

- دعني، ماذا دهاك؟ سأتقدم بشكوى..

وبسهولة أدهشت كليم دفع إينيكوف رئيس الكنيسة وركله في قفاه، ثم قال:

- سأحطمك.

ركض خادمان يتبعهما محاسب المطعم.. ووقف في الباب رجل ضخم يحمل بيده شوكة وتدلّت على صدره منشفة بيضاء.. ثم تعالى صوت امرأة من الزاوية تقول:

- ماذا تنتظرون؟ استدعوا الشرطة.

ولجأ رئيس الكنيسة من جديد إلى المطعم يقفز ويقول:

- سأنال منك يومًا ما.. حسنًا..

أدهشت الفضيحة كليم وردد في نفسه: «إن الرجل الخائف يبدو دائمًا مسكينًا ومعقدًا!».

وبينما كان يتجه ليغادر المكان سمع صوت امرأة يقول:

- ألا تخجل؟ يهان رجل وتبقى أنت جالسًا وكأنك في سيرك؟

لم يعرها إينيكوف اهتمامًا بل اقترب منها وصرخ في وجهها:

- اخرسي.

ابتعدت عنه ودخلت بسرعة إلى المطعم تردد:

- سأكون شاهدة على ما فعلت أيها الأحمق..

اقترب إينيكوف من روبنسون وابتسم له بفتور، ثم مد يده يصافحه ويحيي كليم.. كانت يده ضعيفة ترتجف وكذلك عيناه.. حتى خُيّل للناظر إليه أن حدقتيه غائرتان في محجريهما.. قدم له الخادم كرسيًّا فجلس وخبأ يده تحت الطاولة وقال:

- بيرة مثلجة..

- ما معنى هذا؟ ولماذا؟ سأله روبنسون بصوت خافت..

- هو يعرف، أجاب إينيكوف بهز رأسه وترك قبعته تسقط فوق ركبته.

- لا أؤيدك في هذا، قال روبنسون وهو يشعل سيجارة..

لم يجب إينيكوف لكن اكتفى بهز كتفيه..

- يكاد يختنق.. قال سامغين يمسح عرق جبينه بمنديله الأبيض.

بدا له ما فعله إينيكوف شيئًا مبتذلًا.. كيف يستطيع هذا المخلوق طرد إنسان أقوى منه وأشد بأسًا.. في الحال تذكر سامغين عبارة سمعها أثناء العراك:

- تغلب عليه بالشجاعة وليس بالقوة..

كان بحاجة إلى أن يغادر المكان.. ولكنه خاف أن يجد إينيكوف في ذلك إهانة، كما أنه أراد أن يعرف لماذا ضرب هذا الإنسان الحقير رئيس الكنيسة.

- متى وصلت؟ سأل.

- البارحة مساء، أسرع إينيكوف يجيب.. ثم ابتسم بارتياح مما زاده رونقًا وأضفى على وجهه مسحة من الارتياح فاستطرد يقول:

- كفى! اختلفت مع فارافكا وسوف لا أساهم مطلقًا في التحرير.. كان يتمشى في المعرض وكأنه طفل رضيع.. أما بالنسبة لفيرا بتروفنا فإنها بدت كامرأة حاكم كالوغا ولا غرر في ذلك.. أنت تعرف، يا سامغين، أن فارافكا تروق لي.. ولكن إلى حد ما..

- ستختلف مع العالم كله يا عزيزي وعما قريب.. إنك رجل غير اجتماعي، قال روبنسون وهو يقدم له لفافة.. لماذا أخفت رئيس الكنيسة؟

تناول إينيكوف السيجارة.. نظر إليها ثم كسرها ورماها في الصحن، وتنهد من أعماقه يغلق عينيه نصف إغلاقة:

- عليك أن تطلب هذا إليه.. أعتقد بأنني سأذهب إلى كامتشاتكا.. وعلمت أن مجموعة من «الخنازير» ستذهب إلى هناك أيضًا للبحث عن الذهب.. لقد مللت كل شيء.. المجتمع.. ورئيس التحرير، والصحيفة بالذات.. حتى رائحة حبر المطابع باتت تزكم أنفي.

- هذا شيء منطقي، قال روبنسون بسخرية.. أن تنتقل من الصحيفة إلى كامتشاتكا..

قدر سامغين أن بإمكانه أن يذهب الآن..

وبينما كان إينيكوف يودعه سأله:

- أتحكم عليَّ بهذه القسوة؟

- لا أحكم ما لم أعرف الأسباب، أجاب سامغين.

أحس اليوم أن هذا الفتى حاز على ثقته بالرغم من أنه لا يرتاح إليه..

ألم أأخذ بقوته ومهارته؟ تساءل في نفسه وهو يشاهد هذا التناقض الغريب بين شخصيتين لذات الإنسان: واحدة تصغر وأخرى تكبر.

وعندما عاد إلى منزله بحث بين أوراقه وعثر على مجموعة شعرية من قصائد إينيكوف.. كانت أحرف إمضائه مقلوبة ومبهمة.. يبعد الواحد عن الآخر بضعة ميلليمترات..

قرأ مجموعة منها.

- ليست هذه بأبيات شعرية.. قال في نفسه حائرًا وهو يتطلع إلى الورقة.. أهذا أصلي أم مجرد بلاهة؟ ماذا تراه يعني بكلمة «السيدة»؟ أليست سبيفاك؟ إنها هي بالضبط.. وهكذا يفهم لماذا اعتدى على رئيس الكنيسة؟!

وعندما حل المساء ذهب إلى الشقة والتقى بإليزابيث لوفنا وقد جلست تخيط وراء طاولتها.. ثم قرأ لها الأبيات الشعرية كاملة.

أصغت إليه ودون أن ترفع رأسها، قالت السيدة سبيفاك:

- هل أذن لك إينيكوف أن تقرأ لي هذه الأبيات؟

- لا.. ولكنها سوف لا تطبع.. أجابها سامغين بارتباك وحيرة، ثم كيف عرفت أنها من نظمه؟

رفعت السيدة سبيفاك نظرها إليه.

- لا تخبريه بشيء من هذا، قال يرجوها.

وضعت الثوب فوق الطاولة وسألته:

- ألا تحب إينيكوف؟

- لا. فيه شيء لا يروق لي، أجاب سامغين بعد برهة.

- نوع من الوقاحة.. أجابت المرأة بامتعاض وهي تخلع الكشتبان من يدها وتلعب به.. إن هذا يأتيه من عدم ثقته بنفسه.. وكذلك من ستيلرومور، أضافت بعد برهة من التفكير وهي تتأرجح في كرسيها.. إنه شخص رومانسي يحمل فوق منكبيه حقيقة الحياة، ومن أجل هذا سوف لا يكون شاعرًا أبدًا.. أن إحدى قصائده تنتهي هكذا:

- إن نفسي يفترسها اليأس.

تبدو محدودة فارغة كجوزة..

أزهار من الورق وكلمات لا معنى فيها..

إنها نزعة يسارية.. وإنه كذلك.. في أفكاره وآرائه.. ومن يدري.. لعل ذلك يتأتى من كونه إنسانًا شريفًا.

كانت تتحدث وتتلهى بترتيب شعرها تارة أو فك أزرار ثوبها وإقفالها من جديد..

- إنها ترتب ريشها كالدجاجة- الأم.. قال كليم في نفسه وهو يراقب تصرفاتها..

كانت تتكلم كالمربية المستاءة:

- إن كلًّا منا يبحث، في شرخ شبابه، عن الطريق الذي يلائمه، هذا ما قاله جوته.

- لست بعليم بأمور النساء، قال كليم.

- إنك لا زلت تذكر.. فهو يفصل الشعر عن حقيقة الحياة.

- من هذا؟ سأل كليم..

- جوته..

- أوه.. عفوًا.. هل أنت من رأيه؟

- يحق للمرأة أن تأخذ من الشعر أكذوبة، قالت السيدة سبيفاك بصوت ناعم، ولكنه حازم.

سعل الموسيقي وراء باب الغرفة المجاورة..

بدأ هذا السعال يخفف من وطأة الانزعاج الذي سببه حديث امرأته.. اختار كليم الفرصة الملائمة وغادر المكان غاضبًا من تصرف السيدة سبيفاك.. وفي الليل راح يفكر طويلًا بالرجل الذي بحث عن طريقه الخاص، وبالأشخاص الذين يحاولون دائمًا لصق العار به وإبعاده عن السير في الطريق المستقيم وتبديد معالم شخصيته الخاصة..

كانت فكرة ألين تلبنافا مضحكة يوم قالت إن العالم ما هو إلا عبارة عن منزل تأديبي.. أما الآن فقد بدت فكرتها واضحة وصائبة.. إن أشخاصًا كإليزابيث سبيفاك هم الذين يجعلون من العالم منزلًا تأديبيًّا.

مرت أيام..

وذات يوم بينما كان سامغين يتصفح جريدة في سريره وقع نظره على مقاله عن المعرض..

فرح كثيرًا وأغلق عينيه برهة، ولكنه كان يرى الأحرف الصغيرة تتراقص أمامه مزهوة.. كان عنوان المقال: «في عيد العمل الروسي».. ولكن بعد أن قرأ الأعمدة الست شعر بقلق وعدم ارتياح وكأن مجموعة من ذباب الخريف أتت لتلسعه وتثير أعصابه. كانت الأخطاء المطبعية تؤلمه جدًّا.. وكم استاء من العبارات الفارغة والتي يعود مصدرها إلى جهل عامل الصف.. فأهمل الفواصل والنقاط.

ولعل الذي أغضبه أكثر من أي شيء آخر هو تلك العبارة عن بتيلوب عندما انتظرت أوليس وعن ادعاءاتها السخيفة..

- كيف تركت أشياء كهذه تمر؟ قال يوبخ نفسه ويؤنبها.

ثم تطلع إلى المرأة فشاهد أمامه وجهًا كالحًا وعاد يقول:

- أتحرق شوقًا لمعرفة رأي السيدة سبيفاك..

- يبدو لي أن هذا مكتوب بشيء من الفخامة والأبهة.. قالت هذه ثم أضافت تخفف عنه: ومع ذلك أهنئك.

وكذلك درونوف وجه إليه التحيات الصادقة:

- لبدايتك الأدبية، صرخ يهز يده بحبور. وردد روبنسون ما قالته السيدة سبيفاك:

- تهانيّ. ومع ذلك أقول لك: إن مقالك يبدو كواجهة أحد محلات المأكولات الشهية.. كل شيء رائع لكن غير مخصص للاستهلاك المحلي.

وتقبل كليم هذه العبارات كاحترام وتقدير له. عندما راقب كليم بقية المساعدين لاحظ أن درونوف هو الرجل الأكثر إفادة وميزة في الصحيفة مما أضعف حالًا في رأيه، قيمة «هذا العضو الصحفي». عرف أيضًا أن درونوف سجل محله في وظيفة المعلق المحلي. كانت نظراته الحادة تنفذ إلى ما وراء جدران المدينة، وفي غبار الوجود اليومي ولذلك عرف كيف يستخرج منها الغث والسمين.

- إن الصحيفة تعيش مما أزودها به، قال باقتناع.. ولولا هذا لما عرف روبنسون عما يكتب، لو أتاحوا لي الفرصة أكثر لربحت ما لا يقل عن مائة وخمسين روبلًا في الشهر.

كل ما كان درونوف يرويه عن حياة المدينة.. كان يبعث على الاشمئزاز ويأسف لأنه لا يمكن التخلي عنه.. ولذلك كان يكتب في الصحيفة.

كانت تعليقات درونوف وما تتركه في الرأي العام تسأم نفس كليم.. كان يتمثل الحياة كجدول صغير ينساب حاملًا الآلام المعبرة.. ومع ذلك يقرأها..

قال مرة أو اثنتين يناقش درونوف:

- أراك تميل كثيرًا إلى الاحتفاظ بوجهات النظر الكالحة..

- وماذا تريدني أن أفعل، وبأي شيء تودني أن أحتفظ؟

سأله المعلق وهو يضم أصابعه ويقضم أظافره.. احمر أنفه وتابع: إن رئيس التحرير يود أن يجعل من حماك مختارًا ويتزعم نفسه كمصلح لروسيا بكاملها! يا للأحمق! لعل أكثر شيء يحبه هو النظر إلى المصححة تحك تحت ركبتها.. هناك نقطة إزعاجها الدائمة. ومن يدري لعلها ترتدي الصداري الضيقة أيضًا..

كان يتحدث عن هذا بجد، وكأن هناك فائدة ترجى من ورائه أو أهمية تعود للمصلحة العامة..

عملت المصححة التي كانت تعمل كمدرسة ثم أبعدت عن عملها لاشتغالها بالسياسة. سألتها يومًا عما تريد أن تعرفه بالضبط فأجابت:

- ما رأيك لو كانت لدينا جمعية دستورية على غرار فرنسا؟

ولكنها كانت تكذب.. فهي تريد هذا الرجل وليس لها.

ثم حدث قائلًا:

- إن نائب الحاكم كان يقبل ممثلة تعمل في الأوبرا وبينما هو يضمها إلى صدره وخزه دبوس..

فتورمت يده ونقل إلى المستشفى حيث فُتح الجرح تخوفًا من عواقب سيئة.. كالغرغرينا مثلًا.

- هذا خاص بروبنسون، قال والأسف بادٍ على محياه ثم أضاف بأمل: حتى عنده، لا يعقل حدوث شيء من هذا.

كان درونوف يعرف الكثير من القصص الغريبة والمآسي المؤسفة والحالات اللئيمة المخجلة والمستحيل نشرها.

- إن المراقب كلب. إنسان عجوز يصل كرشه حتى ركبتيه، أما امرأة سيده فشابة، ابنة أحد الموسرين، عملت ممرضة في الصليب الأحمر.. يتولى أمور تدريسها في الوقت الحاضر، المسؤول عن الحالات الخاصة في مكتب الحاكم، وقد قدم لها منذ مدة هدية حلوة هي عبارة عن نصف دستة بنطلونات مطرزة.

لم تكن المدينة في نظر درونوف سوى مجموعة من البشر لهم قلب واحد يرتكب نفس الأخطاء والرذالات يتجسسون على بعضهم بعضًا ليخون أحدهم الآخر، بينما كان هو يراقبهم جميعهم ويجمع المعلومات الكافية للوشاية بهم.

كان مساعدو وأصدقاء الجريدة يجتمعون كل يوم سبت في مركزها الرئيسي... كانوا يحبون التحدث بكل شيء وعن كل شيء، ويتمسك سامغين برأيه القائل: «إن الإنسان سلسلة من العبارات» وأحيانًا كان يلاحظ أن فكرته لا تنير الرجل كليًّا ولذلك قال: «لا توجد قواعد دون استثناءات».

إن هذا المثل يتنبأ بأن ليس هناك رجال قادرين على الأخذ بالعبارات الصحيحة والعمل بها.. ويعقل أيضًا وجود رجال آخرين بينهم، أقل ذكاء، يحاولون تركيز أفكارهم.

كان سامغين يصغي إلى رئاسة التحرير تتكلم عن ضرورة الإصلاح السياسي وتناقش قيمة الدساتير الأوروبية فتقبل أو ترفض أن يكون في روسيا جمهورية اشتراكية فلاحية، يصغي ويفكر بهذه الأحاديث المحتدمة دائمًا، المملة أحيانًا على أنها تلاعب بالألفاظ مخصصة لتسلية العاطلين عن العمل وإلهائهم أو للذين يكسبون قوت يومهم «بإيقاظ ضمير المجتمع السياسي والوطني معًا».

كان كليم يجد كل هذا تلاعبًا أو مهنة، وخاصة فيما يدور حول مستقبل طريق سيبيريا الكبرى، وانضمامها إلى المحيط الهادئ... ثم السياسة الأوروبية في الصين ونجاح الاشتراكية في ألمانيا وباختصار... حياة العالم بكامله. كان يستغرب أن يرى مستقبل العالم كله وقفًا على عشرين مثقفًا روسيًّا يعيشون في مدينة مهجورة، بين مائة وسبعين ألف نسمة، وأن لا حدود للعالم هذا سوى منافعهم الشخصية.

إنهم، في لحظة كهذه، يشبهون درونوف جميعًا، مزودين مثله، بكيس من الغبار يغرفون منه حفنات ويرمونها في الطريق كالأطفال... كان كيس درونوف أضخمهم، لكن كانت درجة الإجرام على حد سواء لديهم وهذا مما زاد من امتعاض كليم وسأمه... يحس بهذا الغبار كل صباح وهو يقرأ الصحيفة.. حتى محاضرات رئيس التحرير لم تكن لتخفف شيئًا من هذا.. بل يكتفي بالإنصات ويهز رأسه أو يتململ في كرسيه، يتمسك بها خوفًا عليها من الهرب ثم نبه الجميع بصوت واضح:

- بتنا نشاهد بيننا مرضًا خطيرًا... وسأدعوه «التهجم» من قبل النقاد على الحقيقة... إن مسألة تنمية الأفكار الأوروبية وبثها فوق الأرض الروسية قضية لا تتحمل الجدل.. ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا ما للعادات والأخلاق الوطنية من تأثير كبير في نفوسنا.

كان بإمكانه أن يتكلم طويلًا دون أن يهز ذقنه وينهي حديثه دائمًا بتنبؤ محتمل عن «انفجار يأتي من تحت».

- إن ريليف أو بتراشفسكي وحتى بستل وجليباموف لا يستطيعون القيام بثورة... أما بولوتنيكوف ورازين... هؤلاء يجب ألا ننساهم.

رأى سامغين أن رئيس التحرير يتكلم ببساطة وهدوء، وعلى الرغم من هذا، كانت أفكارهم تثير الشتاء القوي الخريفي وتدعو إلى الاختفاء تحت مظلة..

كان الجميع ينصتون إلى رئيس التحرير ولم يكن بينهم من يناقشه ويؤيد أفكاره سوى تومولين، الذي اكتسب جرأة النقاش ولو في المحادثات الودية التي لا تدعو إلى ذلك.. يمكنك أن تناقشه بحدة وارتياح.. باستثناء القاضي الأنيق «برافدين» الذي كان يحاول دائمًا أن ينهال عليه بسيل من الكلمات:

- إذا لم أخطئ يا أخي، أراك تتأثر بنيتشه وريتان حول آرائهما في القضايا الشعبية.. وخاصة ما ورد في مسرحيته الفلسفية: كاليبان.

ولكن تومولين لم يكن يستمع إلى اعتراضاته... بل اكتفى بالتطلع إليه والتحديق به ثم طرح عليه عدة أسئلة:

- أتعترف بأنه يجب جعل الحياة معقولة؟ أتعترف بأن هؤلاء المثقفين هم بالضبط من لهم هذا الحق؟

وحتى هنا، لاحظ كليم أن تومولين لم يكن محبوبًا... بدا وكأن الجميع يشكون به، باستثناء رئيس التحرير.. كان واثقًا من هذا الخوف وفخورًا به في آن واحد، وظن البعض أيضًا أن احتقاره للرجال متأت من عادات وراثية يحملها معه.

- إن الإنسانية لم تكن، مهما اختلفت أشكالها، سوى اعتراف المثقفين المباشر أمام شعبهم.. حتى ولو أننا حاولنا إخفاء لعنة الجنس بارتجال الأشعار الحلوة، نحاول دائمًا إزاحة القناع، قناع وحدتنا المؤلمة من وراء أناجيل فوريه كروتبكين... من وراء ماركس وغيره..

ضحك تومولين فبانت أسنانه البيضاء.. وهنا أكمل يقول:

- لقد فات الأوان.. إن تقدم التقنية سيقودنا حتمًا إلى انتصار المادة..

صرخ برافدين باحتقار يفند الأنانية والتضادَّ، يفضح كونستنتين ليونتيف.. بينما راح روبنسون يضحك ويهمس في أذن كليم:

- يا للعفريت! انظر إليه كيف يتعمد إثارته!

نفخ تومولين بارتياح وسحب من جيبه منديلًا بحجم المنشفة.. وراح يمسح العرق المتصبب من جبينه وخديه.. قال كليم في نفسه إنه لو حلق تومولين ذقنه لبدت كالبطيخة الكبيرة.. تعمد ألا تلتقي نظراتهما.. وعندما حياه كليم مد له يده دون مبالاة وهو يتطلع جانبًا.

- لماذا تراه يحقد عليّ؟ سأل كليم صاحبه درونوف.

- إنه حسود، دون شك.. ليس لديه من أتباع. يأمل أن تصبح لغويًّا متضلعًا أو فيلسوفًا. إنه يكره المشرعين ويعتبرهم جهلة.. وهو القائل أيضًا: «كي تدافع عن شيء يجب أن تعرف كل شيء عنه».

توقف درونوف لحظة وعاد يضيف ساخرًا:

- الكل يتهربون منه ويتحاشونه، كالجرذان عند غوغول.

- أتذهب دائمًا إليه؟

- أحيانًا، أجاب درونوف دون أن يحدد موقفه بالضبط وأكمل متنهدًا: امرأته جميلة جدًّا.

وخز إصبعه وهو يلعب بالمقصات فوضعها في فمه حالًا يمصها، ثم تفحصها من جديد ودسها في جيب سترته كمن يخبئ قلمًا.. وتأوه مرة ثانية:

- إن تومولين يعرف أشياء كثيرة وحقيقية.. يحدثك عن الإنسانية، مثلًا، فيقول إن الرجال لا يحق لهم أن يكونوا صالحين.. إلا عندما يخافون.. ومع ذلك ترى امرأته جميلة للغاية.. صالحة.. حتى تظنها سكرانة.. كما أنه علمها ألا تؤمن بالله.. وفي عامها السادس والأربعين أيضًا..

اعترف سامغين، ومعه درونوف، أن ملاحظات الأستاذ تومولين حول الإنسانية صحيحة، وكذلك آراء رئيس التحرير. إنها جميعها تلتقي مع اعتقاداته.. ولكنه لم يرتح إلى أيٍّ من الاثنين: إذ كان الأول معقدًا والثاني يوحي بشيء من الرهبة والخوف.. وجد فيهما، أخيرًا ومع بقية أعضاء التحرير شيئًا من السأم، واستخلص أنه ربما كان هذا «مزيدًا من الحكمة».

كان المؤرخ المحلي باسيل كوزلوف يهمه جدًّا: فهو رجل كهل وأنيق، أبيض الشعر أملسه، أنفه حاد وأذناه كبيرتان. تغطي القسم الأعلى من وجهه نظارة ذات إطار ذهبي، ومن ورائها عينان واسعتان لا تهدأان. تدل ملامحه على أنه رجل سكير، ولكن فيه شيء من اللطافة يذكرك بطفل صغير.

وهذا ما كان يثير في كليم نوعًا من الاستلطاف والتفهم:

(وربما أنا أيضًا، أصبح عجوزًا، سأبقى منسيًّا بين قوم سيكونون غرباء عني...).

أحضر كوزلوف للصحيفة دراسات تاريخية عن المدينة، كتبت على أوراق مربعة بخط ناعم جدًّا وبأسلوب إداري... كان رئيس التحرير يقرأها أحيانًا ولا يجد فيها أي فائدة، فيحجم عن نشرها... كان الكهل يبتسم بأدب ويلف مسودة مقاله، ثم يجلس فوق كرسيه تحت خريطة روسيا يستمع إلى النقاش القائم في الغرفة... يدرس طباع المتحدثين وأخلاقهم من وراء نظارة سميكة... دون أن يعيره أحدهم أي انتباه.

كان مساعدو التحرير المحليون وأصدقاء الجريدة يعرفونه جميعًا، ويعاملونه بلطف واحترام، لاحظ كليم أن المؤرخ يراقب تومولين بفضول ويعيره انتباهًا ملموسًا، ثم بدا أنه يتخوف منه ولعل هذا نابع، بكل بساطة، من الطريقة التي دخل بها الفيلسوف قاعة الاجتماع: مشعث الشعر، رث الثياب... إذ يخال لمن يراه للوهلة الأولى ولا تربطه به معرفة سابقة، أن تومولين يعاني من يأس عقيم.

- ماذا فعلت!!

قال درونوف: إنه منذ حوالي السنوات الخمس، كان المؤرخ يقود فصيلة من المنفيين.. فحوكم وأهين وسُجن.. «لأنه عمل على خلاص رجال في خطر». أحرق المحكومون السجن، ولكي لا يحرقوا أحياء.. أخرجهم من السجن واستطاع بعضهم الهرب... وكوفئ على هذا، بأن سجن هو نفسه.. ومنذ ذلك الحين عاش ليهتم فقط بتاريخ المدينة.. كتب مؤلفًا لم يرد أحد طبعه ونشره.. عمل مدة في «رسالة المنطقة» حيث كان ينشر مقطوعات من «تاريخه»، ولكنه فصل من العمل؛ لأنه تحدث عن خلاف سري دار بين الحاكم والكاهن.. ظنت السلطات المدنية أن هناك ما يمس الشعور القومي، ولهذا وضعت اسمه في لائحة المشكوك بهم...

- إنه يوحي بالوداعة.. ولكنه يجب أن يكون شقيًّا، قال درونوف وهو يحك بذقنه المكسية بالشعر الأصفر.. بخيلًا أيضًا.. ولهذا تراه عاش طيلة حياته عازبًا..

استمر درونوف يتكلم عن الناس باستهزاء.. يوزع نظراته من حوله وكأنه يرى صورة أناس آخرين يمكنه أن يقارنهم بالمؤرخ.. كان دائمًا يحكم، ودون أن يفكر جليًّا في الإنسان، ويضفي على كلامه شيئًا من الكلمات الصعبة.

لاحظ كليم عادته هذه وتنبه إليها... أما هذه المرة فلم يعثر درونوف في جعبته على شيء يلصقه بالمؤرخ.. سوى الألوان الباهتة والتي تميز كلامه السمج.. وهكذا ازداد اهتمام كليم بكوزلوف، كما أنه سُرَّ جدًّا عندما شاهد المؤرخ يغادر قاعة الاجتماع ويتقرب منه متأوهًا:

- إن الشيخوخة تضني الرجل! هكذا أسمع الناس يقولون كلمات أعرفها، لكن لا أفقه معناها.

وتابع كلامه يتأمل وجه سامغين ثم أضاف:

- إنك، كما أظن، رجل نبيه ولا تنقاد وراء التيارات الحديثة، تنصت دائمًا ولا تتكلم.. قل لي هل يمكن التغاضي عن التاريخ؟

- بكل تأكيد لا. أجابه سامغين بجدية.

- وهُمْ كما رأيت، لا يهتمون بشيء.. يدعي المرء منهم أن التاريخ بدأ منذ يوم ولادته.

لم يكن صوته الآن صوت عجوز.. بل كان جهوريًّا وجازمًا..

- إننا جد مسرورين من أنفسنا، قال كليم.

- تمامًا! وعلى عجلة في كل شيء... لكن الحراثة لا تتم بالركض.. وكذلك لا يمكننا العيش بخطى سريعة.. وخاصة في أرض كهذه.. أرض الفلاحين. نتعارف فيما بيننا لنلحق بأوروبا.

توقف عن الكلام وأمسك بكليم من مرفقه:

- تظنني محافظًا. لا.. أقبل بالمجلس الوطني.. على العموم، ولكنني آسف بأنه سيتغلب على الصعاب ويسير على نفس الطريق كأوروبا..

تطلع كوزلوف من حوله وقال كمن يفشي سرًّا:

- يعقل أن تكون أوروبا جحيمًا لنا.. هذه هي أوروبا حقيقة.. ثم بصوت أشد خفوتًا من الأول نصح قائلًا:

- تذكر الماضي القريب، عام 1812، ثم سيبستوبول، سان ستيفانو وأخيرًا كلمة الإمبراطور ألكسندر الثالث الفخورة: «ليس لي سوى صديق واحد الأمير نيقولا مونتينفرو» إننا لا نشاهد هذا الأمير على الأرض.. إنه ذبابة في أوروبا أو أي شيء آخر! أما بالنسبة لأوروبا نفسها فتذكر أخطاءها نحونا..

سارا في شارع عريض نظيف يتحدثان ويتبادلان الآراء، وما إن وصلا قرب أحد المقاهي حتى قال المؤرخ:

- ربما شرفتني وشربت معي كوبًا من الشاي..

توقف كوزلوف أمام منزل صغير مؤلف من دور واحد.. فيه خمس نوافذ، وبعد أن تطلع من حوله قال مرتاحًا:

- إنه الشارع الأكثر نظافة والأكثر سكانًا في مدينتنا.. لم يسبق لكليم أن مر في شارع كهذا. كان يريد إرضاء رغبة المؤرخ، ولكنه خجل من نفسه.

فتحت لهما الباب امرأة عجوز تتشح بالسواد.. فقدمها كوزلوف إلى صديقه قائلًا:

- صاحبة البناء المحترمة أنفيسيا سترلستوفيا.

حركت العجوز أهدابها ومدت تصافح كليم بيد قاسية.

- السترلستوف، البوخاريف، الأينوزمستيف هي أقدم عائلات المدينة، قال المؤرخ وهو يدخل زائره إلى قاعة كبيرة لها نافذتان تطل الأولى على الساحة والأخرى على الحديقة.. إن القوم هنا لا يولون الاسم أي اهتمام.. باستثناء الخياط غاميروف وحتى اسمه هذا لا يعني شيئًا.

كان كليم يصغي لمحدثه ويتفحص منزله بدقة.. وفي الزاوية الكبيرة وجد مجموعة من الأيقونات الفضية تحترق أمامها ثلاث شمعات وردية اللون.

- ألوان العلم الوطني، قال كليم وشعر بشيء من الرهبة.. وبينما كانا يتحدثان خلع المؤرخ سترته وعلقها إلى مشجب، ثم وضع أمام كليم تحفه.. أطلعه على ميداليتين ذهبيتين: واحدة من القيصر فيدور والثانية من ألكسي.

أطلعه أيضًا على مؤلف لسيخوف: «تأملات في الإنشاء القديم والمعاصر».. ذي غلاف جلدي موشى بالذهب وممهور بإمضاء أنيس دافيدوف.. كما أراه، وباعتزاز أكبر، ورقة صفراء كتبت عليها هذه العبارة:

«تأملات حرة لكاتب ناشئ حول إظهار التربية بين فصائل الحرس، مع تفصيل وافٍ لأعمال الإجرام التي ارتكبتها منذ صعودها إلى العرش الروسي.. أي منذ عهد جلالة الإمبراطورة إليزابيث بتروفنا، وحتى وفاة المغفور له الإمبراطور الورع بولس الأول!».

- إنها دون شك عمل رائع، قال كوزلوف بصوت حزين.. ولكن هذا كل ما أملكه.. وجدته في كتاب «حجر الإيمان»، وقد اقترضته من أحد بائعي الأنتيكة لقراءته.

كان يمر بيده فوقها نظرًا لندارتها ويقول:

- إن رقة الأعمال الحلوة التي يخلقها الإنسان بيده تثيرني.. فمدينتنا الجميلة تعد بين المدن التي تبتعد عن التاريخ وتهمله، ولهذا أحتفظ بالأشياء الجميلة والنادرة في أمكنة رديئة بانتظار أن تمد إليها، من جديد، يد كيد كارامسين أو زابلين.. فأنا أعشق هذين الشاعرين التاريخيين.. وخاصة الأول فهو الوحيد الذي فهم، من كل قلبه، ماذا يلزم لازدهار روسيا.. التآخي ووحدة القلوب.

أكمل حديثه عن الأزمنة الماضية وهو يشرب الشاي اللذيذ ذا الطعم الحلو والرائحة العطرة.. تحدث عن ماضي المدينة.. عن حكامها وكهنتها ورجال العدالة فيها.

- كان هناك حاكم، متوسط الثقافة، سمح لنفسه أن يُقدم على عمل هزلي أضر به، إذ إنه دعا الكاهن ماكير إلى العشاء ثم قال وهو يقدم له شريحة من لحم الخنزير: «خذ وكل يا صاحب السيادة» ولما كان الكاهن هذا نبيهًا قال: «أكمل، يا صاحب الفخامة».

وانفجر العجوز ضاحكًا وقال:

- هل فهمت؟ لقد أجبر الكونت مورافيف على القول «لأن هذا جسد!».. هكذا تكون النكتة اللاذعة..

ثم تكلم عن امرأة أحد التجار من ذوات القلوب الطيبة.. وقد اعتادت أن ترسل شيئًا للمساجين.. وعندما علمت بوصول الراهب المنفي سبيرانسكي، أرسلت له مع خادمها خمس بيضات و... وضحك المؤرخ من جديد.. وهنا لاحظ سامغين شيئًا من السماجة في حديثه فقال في نفسه:

- يجب ألا يضحك دائمًا.

- يا له من تقييم لعمل بونابرت الرائع: خمس بيضات قاسية! ردد كوزلوف وهو يتلاعب بأصابعه في الهواء.. وكم هي طيبة القلب هذه المرأة الروسية.

لم يفكر سامغين يومًا بأصول المدينة فهو يجهل كل شيء عنها، فأراه كوزلوف «كتاب البناء» وأخبره بطريقة مسلية ومضحكة عما أرسل القيصر بوريس غوردونوف، إذ إن ابن جادوف عمل، بمساعدة أقواسه وغزلانه، على بناء سور منيع لمدينة موسكو تحصنًا ضد الغزاة..

عن هؤلاء جميعًا تحدث المؤرخ بحبور وشملهم بحنوه لِما فعلوه من صالح وطالح، في ظل ما دعت إليه الحاجة يوم ذاك.. إذ هي نفسها التي أدت إلى ثورة القوزاق في الدون بقيادة رازين.. وثورة الأورال بقيادة بوغاتشيف.. أما بالنسبة للثورات نفسها، فقد كانت ضرورية لتبرهن على قوة وثبات الدولة.

«إن شعبنا مسالم بطبعه.. لا يحب الثورة.. لكن أولئك الأسياد كأمثال شاتشبوف أو دانيلو، المنحدر من أصل قوزاقي، كانوا هم الذين أوغروا الحقد في صدورهم، فدفعوا الفلاح الروسي وقد مثلوه متعشقًا «للحركات السياسية» ومتطفلًا معاديًا لسلطة موسكو العلية.. مبدئيًّا هذا خطأ: إن شعبنا كان دائمًا محبًّا للثورة.. يدفعه القوزاق إليها.. يكرهون موسكو كثيرًا.. ألم يعش مازيبا عشرين سنة في خدمة بطرس الأكبر، ثم خانه في آخر المطاف؟

تبدلت لهجة المؤرخ واتسم صوته الآن بطابع من الجدية والعنف.. ينقر الطاولة أمامه بإبهامه.. استمر دقيقة هكذا وعاد يتابع الحديث بلين:

- الآن، وقد تأسست بأيد متينة مات أصحابها منذ أمد بعيد، بدأت المدينة تتوسع.. مدينة مهمة نوعًا ما.. لا ينقصها الجمال.. يبلغ عدد سكانها حوالي مائة وسبعين ألفًا.. ولا زالت تكبر على مهل.. صدقني يا أخي: «إن العمل المثمر لا يكون بالركض السريع» أضاف كوزلوف يعيد هذا القول المحبب إلى نفسه لديه كثيرًا..

كان يعرف الكثير من الأمثال، تتجاوب كلها كأنغام المقطوعة الموسيقية الواحدة.

- إن حجر الزاوية ليس في السور بل في الأساسات..

بقي كليم في منزل المؤرخ حتى منتصف الليل ثم غادره، وخرج إلى الشارع وعلى شفتيه ابتسامة رضى وإعجاب. كان الشعور الذي أيقظه فيه المؤرخ يشبه إلى حد بعيد الحنو الذي خالجه وهو في المعرض، إن لم يكن يساويه أو يزيد. كانت الليلة حارة مقمرة والهواء يهب من وقت لآخر يتلاعب بأغصان الحديقة وينشر في طول الشارع مزيجًا من الروائح العطرية المنعشة..

وفي الأعالي، على سطوح المنازل، ارتفعت القباب القرميدية.. واختفى القمر وراء الغيوم الشفافة.

إن كل ما كان خلف حنو تلك الليلة بدا جديدًا ومشجعًا للإنسان.

كان هذا ما شعر به كليم بالضبط: كل شيء رائع ومشجع: القمر، الهواء والروائح العطرة المعقدة.. لم تعد تلك المدينة التي تكلم عنها درونوف أبدًا، وحاول روبنسون أن يصفها بمرح بأنها مثل العائلة التي خمل ذكرها، أو التي طوى النسيان سجل أمجادها؛ فحدثتهم نفسهم بالتعرض لها ومعاملتها باحتقار واستخفاف.

فكر كليم، هذه المرة، بهؤلاء القوم دون ملل، وعرف أنهم أيضًا يؤلفون قسمًا من هذه الحقيقة التي حاول المؤرخ المختص أن يعيد تكوينها بكل ما أوتيه من مهارة وفن.

عاد كليم والتقى بكوزلوف مرتين لكن لم يكسب شيئًا جديدًا.. بل ترسخت لديه أقوال وأحاديث الزيارة الأولى.. سمع بعض النكات حول حكام وأسياد الطبقة العليا والتجار الأغنياء.. شيئًا عن مغامراتهم ومهازلهم.

إن زيادة القوة تولد عندنا المهزلة: يمثل صادكو الرزين دور الأبله وفاسكا يعرض عضلاته، فسر المؤرخ وهو يملأ أكواب الشاي المعطر، وذي اللون العنبري.

تعرف كليم جيدًا إلى بساطة الكهل وسذاجته، ولكنه كان يستمع إليه باهتمام وصمت دون أن يبدي رغبة في مقاطعته، وكأنه يصغي إلى أغنية كلماتها رتيبة ولحنها بديع.

وبينما كان يتسلى بملقط صغير يمسك به قطع السكر، كان أيضًا يعلم كليم بارتياح:

- عندنا ينتقدون كل شيء لأنهم يخجلون من أوروبا، يعود ذلك إلى الأنانية في قلوبهم، إذ لا يحسنون العيش على الطريقة الروسية.. أراد السيد هرزن أن يأخذ بآراء فولتير ويعتنقها بينما كان للنقاد الآخرين رأي آخر.. خذ قطعة الحلوى هذه، إنها مصنوعة من الكرز.. نوع من الحلوى تنفرد به صاحبة الملك!!

وراحت نحلة تدندن فوق الطاولة.. راقبها العجوز، وما إن حطت فوق ملعقته تناول إبريق الشاي وصب السائل الساخن فوقها.

- وليكن معلومك أنني لست ضد النقد، تابع بصوت جهوري وحازم.. كان لنا نقاد دائمًا.. وأي نقاد! كوتوشكين مثلًا، أو الأمير كوربكي.. حتى كاترين الكبرى لم تكن تحتقر النقد.

فتح ذراعيه بحزن وتنهد:

- ولكن، كما تعرف، كان هذا ينتهي دائمًا بطريقة غريبة! قطع السويديون رأس كوتشكين واختفى الأمير في العدم، تبخر في ليتوانيا دون أن يترك أثرًا يدل عليه.. أما كاترين، فأحسن شيء قامت به هو انتقادها لنفسها.. سأقص عليك نادرة صغيرة غير ملائمة؛ لأنه ليس هناك من شيء جميل يقال عنها.

كانت الأقصوصة فاشلة وسمجة.. رواها بصوت ضعيف، ولكنه تابع بعد ذلك، بلهجة أكيدة واثقة:

- إن النقد شيء شرعي، لكن الفضة والنحاس يتطلبان نظافة تامة واعتناء زائد. أما عندنا، ترى الناس ينظفونهما بالقرميد المطحون، وهذا ما يضر بالأشياء.

لقد تضخمت أوروبا جدًّا.. ولكن الأحذية التي نستوردها من صنعهم هي أقل راحة من أحذيتنا.. ومع ذلك ابتدأنا بتقليدهم.. أعطيتك هذا المثل بالمعنى المجازي فقط.

توقف المؤرخ فترة عن الكلام يملأ الكؤوس بالشاي واستطرد يقول:

- انظر إلى القوم هنا الذين يجتمعون في رئاسة التحرير.

أوروبا! أوروبا! وأمام الغرباء يحطون من قدر الحياة في مدينتنا.. إذا كانوا فعلًا يسأمونها فهذا يعود إلى أنهم يجهلون التاريخ جملة وتفصيلًا..

تطلع من وراء نظارته وقال بلهجة صارمة:

- هناك شيء من النذالة.. إنه كالسكير، وقد فقد رشده، يتبجح أمام الغرباء ويتفوه بأشياء كارثية عن أهله وأجداده.. أما بالنسبة لتومولين فهو يخيفني بالفعل.

أما روبنسون فلا بأس به وليحفظه الله.. لكن هناك شخصًا آخر! إينيكوف، زارني مرتين ولا يمكنك أن تتصور كم هو قادر على فعل كل شيء.

جلب كوزولوف جثة النحلة بالقرب من كليم وسحقها بطرف ملعقته ثم دفعها إلى النار مشتعلة تحت إبريق الشاي وتنفس بارتياح:

- يأتي فوق أرضنا، أناس عاطلون، كثيرون.. وأين تراهم يذهبون؟

اعتاد سامغين ألا يعبر عن آرائه إلا بحنكة وروية.. كان يأمل هذه المرة أن يستمع إلى أشياء على جانب من الأهمية ولذلك ابتسم بغموض وقال:

- إنهم يحلمون بالإصلاح السياسي وحكومة تمثلهم جميعًا.

- أجل.. فهمت، أجاب الكهل.. إنهم يعنون الجمهورية.. وحتى الاشتراكية التي عجز عن تحقيقها السيد المسيح كما اتضح في الماضي.. وأنت، ما رأيك بهذا؟ أسمح لنفسي أن أسألك مثل هذا السؤال.

وقبل أن يجد كليم الجواب الكافي والمقنع، كان المؤرخ يقول بصوت متغير ويضرب راحة يده بالملعقة:

- بالنسبة لي، فأنا آمل أن إمبراطورنا سيجبر على الاقتداء بجد أبيه ويظهر شجاعة فائقة.. كما فعل نيقولا بافلوفيتش، في ساحة مجلس الشيوخ، في بطرسبورج في الرابع عشر من شهر ديسمبر عام 1825!

ذكر كوزلوف هذا التاريخ بوضوح خاص وبطريقة المنبه والمهدِّد، ثم رفع رأسه كمن ينوي العراك ووقف في كرسيه وكأنه في سيرك.. وما إن وقع نظره على الأيقونات حتى رسم إشارة على صدره وعاد يجلس ويتابع حديثه بهدوء:

- أحاول جدًّا ألا أغضب.. لكنهم يدفعونني إليه أحيانًا كثيرة.. أخذ قطعة حلوى فأكلها ثم تناول جرعة من الشاي ووضع كوبه أمامه وتابع:

- قدت، يوم كنت شابًّا، فصيلة من المحكومين من قازان إلى برم.. كان الطقس حارًّا جدًّا فتوفي أحدهم فجأة.. كان يسير بينهم وفجأة وقع ميتًا يقضم الأرض بأسنانه وكأن سهمًا سماويًّا أصابه.. لم يكن كهلًا.. إذ لم يبلغ الأربعين من عمره بعد.. قوي البنية.. خفيف الظل.. حكم عليه بالأشغال الشاقة لإقدامه على تزوير الأوراق الرسمية والأختام.. عرفنا بعد ذلك أنه كان من هواة الرسم اليدوي.. وأنه يجيد هذا الفن.. ومن ثم فهمت سر قدرته على تزوير العملة.. كان بين حاجياته ست لوحات تحمل نفس الموضوع: نيقولا سيلسيا نوفيتش، العملاق الفلاح يتعارك مع سائق عربة ضد الأفعى غورينتش.. أفعى لها رأسان: تضع على الرأس الأول تاجًا وعلى الثاني لافتة كتب عليها بطرسبورج.. كما أن الأولى أيضًا كتب عليها: موسكو.. أجل.. أرأيت إلى أي حد كان يذهب بهم خيالهم؟

مر بيده على رأسه وتابع:

- أشك كثيرًا بتنقلات الفكر، أكمل وهو يتطلع من النافذة.. وأحس كليم بنظراته تتفحصه.. لقد قيل: «إن الفكر الفج هو ثمرة التربية القصيرة».. لأن فكرنا طفل غير مهذب.. لا يهمه، اعذرني القول، أن يقضي حاجته على السجادة أو فوق الكرسي التي يجلس عليها بالذات.. فوق العرش الإمبراطوري.. لو سمح له.. وحتى المذبح يوسخه إذ تركته يقترب منه.. يحطم الأثاث والأحذية.. يمزق سروالك ويحفر ثقوبًا بأواني الأزهار.. إنه، باختصار، يحطم كل ما تقع عليه يده من جمال لإرضاء حيوانيته..

ثم أضاف بلباقة وهو يرفع يده ويمد إبهامه:

- لا أنكر أبدًا، أن أفكارًا منطقية كثيرة تستحق كل شكر وتقدير.. لا أحتج سوى على جهالة وعقم العقل، ضد اندفاعه الأعمى. ضد المرأة التي تهيمن علينا وتخضعنا بلطفها المعتاد، هذا ما اقتنع به الكاتب جوجول عندما اعترف أمام الجمهور بأخطائه المؤلمة.

تنفس المؤرخ الصعداء وأكمل بصوت حزين:

- لنأخذ المرأة أيضًا، إنها جيدة عندنا وستكون أحسن مما هي عليه في المستقبل.. إذ تمسي بالنسبة لنا أمام أوروبا سندًا قويًّا.. إذ نحن الرجال، لم نكوّن فكرة واضحة عن مارفابورتزكي والإمبراطورتين إليزابيث وكاترين الكبرى..

على مثل هذه الأسس الخاطئة بنيت مساواة حقوق المرأة.. النتيجة أنه ليس في أوروبا سوى لويزا ميشال واحدة.. بينما نحن نعد الآلاف منها، طبعًا لا تؤيدني، لكن أرجوك أن تنتظر! انتظر عصرًا أكثر نضوجًا.. يوم تدعوك الطبيعة كي تبني لك عشًّا..

- لا يمكنني أن أوافقك تمامًا على ما ارتأيته، قال كليم عندما سكت المؤرخ وراح يتطلع إليه بنظرات متسائلة.

- يسعدني أن نتفق على أشياء كثيرة، قال العجوز يهز برأسه مبتسمًا.

* * *

- 2 -

استأذن سامغين من العجوز وغادره مقتنعًا بأنه فهم أقواله تمامًا. كان يحمل هذه المرة من محراب المؤرخ شيئًا من القلق. كانت انطباعاته أشبه بانطباعات رجل يبحث عبثًا ليتذكر كلمة يحتاجها الآن أو نشوة مشابهة للتي اعترته.

كان يسير في الشارع حالمًا تحت سماء مشحونة بالغيوم الرمادية المكتملة الشكل.. يتطلع إلى الأعلى ويفرقع بأصابعه، يبحث عما يقلقه.

- فعلًا، إن أقوال العجوز صائبة.. هكذا يجب أن يفكر ملايين العمال من الفلاحين والمتواضعين.. إذ إنهم حجر الأساس في بناء صرح الدولة، قال كليم في نفسه.. ثم تبين له أن ما كوَّنه لم يكن هو الذي يبحث عنه بالضبط وينوي تحديده..

وبعد ثلاثة أيام، جلس إلى نافذته يتنشق ريح الماء المنعشة ويبرد أظافره. فتح الباب على مهل ودخل الحديقة رجل عريض المنكبين، يعتمر قبعة بيضاء وبيده حافظة صغيرة.. أغلق الباب خلفه ثم انحنى يمنة ويسرة واتجه نحو إقامة كليم.. يتلاعب بالمحفظة بيده ويحرك كتفيه بتفاوت.

- إنه كوتوزوف.. لقد عرفه كليم وتذكر حالًا بطرسبورج، ليلة عيد الفصح وكيف أنه خرج سكران، ولذلك قرر ألا يعود إلى الالتقاء به ثانية، ولكن شعورًا أقوى من الفضول.. نوع من الرغبة الملحة دفعه ليلقى كوتوزوف مرة ثانية.. ليسمعه أو ربما يتناقشان في أمور مهمة أيضًا.

- إنها أعمال صبيانية، قال يؤنب نفسه. وبعد ساعة كان يدخل إقامة السيدة سبيفاك.

كان كوتوزوف يشبه طالبًا وحتى يوم كان يرتدي الزي المعتمد في المدرسة.. أما الآن، وبعد أن ارتدى هذه الثياب المتناقضة الألوان، بات من الصعب تشبيهه بشيء ثابت.

- أسعدتم مساء، قال وهو يمد يده الثقيلة إلى كليم يصافحه بحرارة.

- ها أنت تحولت إلى تاجر مهم، قال كليم.. وقد نوى أن يدخل في كلامه شيئًا من الآراء التهجمية. ثم تبين له أنه قد لا يفلح.

- تاجرًا تقول؟ سأل كوتوزوف بسذاجة..

- اسمح لي.. لماذا «تحول» بالذات؟ ارتديت ثيابًا مدنية فقط.. طردني المسؤولون من هيكل العلم؛ لأنني على حد قولهم، أبشر بالانحلال بين الرهبان والمتعبدين.

مر بيده فوق ياقة قميصه وحرك رأسه ثم تابع:

- لا صحة لكل هذا.. إنه تهجم وافتراء عليَّ فقط.

كنت أكن للهيكل احترامًا يليق به وللرهبان نفس الشيء.. عمتي ليزا، أهناك ما يزعج صديقي إذا دخنت لفافة؟

وظهرت السيدة سبيفاك مرتدية ثوبًا داخليًّا أبيض، تشبه لوحة معروفة جدًّا وقد راح التجار يعرضونها في واجهات محلاتهم.. كان الحزن باديًا على وجهها المدور وتعض شفتيها بانفعال وقلق..

- لديَّ رسالة لك يا سامغين من فتاة، يشك بأمرها. ها هي.. تسلمها!

ومد كوتوزوف يده يناول كليم مغلفًا كبيرًا.. ثم قالت السيدة سبيفاك:

- أكمل يا ستيبان.

- أكمل ماذا؟ أفكر بالذهاب إلى الحقل، عند توروبويف، يدعي أن في نهره سمكًا غريب الشكل.

توقف سامغين عن القراءة وقال يعلن باعتزاز وفخار:

- لقد ألقوا القبض على صديقي ماراكويف، في موسكو.

- ماراكويف؟ ذلك القائد الشعبي، سأله كوتوزوف وهو يغمز بعينه..

تجهم وجهه ونفث دخان لفافته بعيدًا وقال بقساوة:

- قل لمراسلتك إنها آنسة بسيطة.. لا ذكاء لديها أو حذاقة.. إذ لا يمكن تسليم مثل هذه الرسائل إلى أناس غرباء.. كان عليها أن تخبرني ما في الأمر.

* * *

رمى عقب سيجارته بامتعاض في المنفضة أمامه، ونهض يتمشى في الغرفة بخطى واسعة.

- فعلًا، كان عليَّ أن أطلب إليها هذا بنفسي.. لكن كانت هيئتها. ولذلك عدلت عن الفكرة.

أتعرف جيدًا الأشخاص الموقوفين؟ سألت السيدة سبيفاك وهي تطلع إلى كليم..

- أجل.. أجاب.

تكلم بصوت عال ثم فكر في نفسه:

- أظن نفسي انتهيت من هذه العلاقة، وعاد يسألها:

- متى ستنتهي هذه الاعتقالات؟

جلس كوتوزوف إلى الطاولة وسكب لنفسه كوبًا من الشاي، ثم مر بيده فوق ياقته وهز رأسه.. كانت هذه الحركة لا تفارقه أبدًا إذ يظهر أن الياقة تزعجه..

- سؤال ساذج، يا سامغين، قال باقتناع.. لماذا تريد أن تتوقف الملاحقات؟ إذا كنت تحارب السلطات، لا ترفض أن تقيم من وقت إلى آخر مع الناي، كي ترتاح من أعمالك اللازمة.. ثم، وعندما تتم الثورة بمساعدة أعمالك.. فأنت الوحيد الذي يمكنه جمع المؤيدين من حوله.

استاء سامغين من هذا الجواب الذي لم يكن ينتظره.

- إن هذا «الأستاذ الشارح» يعتبرني كطالب، قال في نفسه ودون أن يبدي ما هو عليه من استياء ومرارة.. ثم قال بصوت عال لم يكن يوده في البدء:

- لا ننتظرك باكرًا في صفوف الثورة.

- لا تنتظروه أبدًا.. حاولوا أن تفعلوا هذا، قال كوتوزوف وهو يحتسي الشاي:

- ليس هناك كثير من الثوريين، تشكَّى سامغين بألم.

رفع كوتوزوف حاجبيه وتطلع إليه بهدوء ثم أجاب بصوت منخفض:

- ولعله لا يوجد منهم أبدًا.. ها أنا ألاحظ، منذ أربع سنوات أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقب الثوار وليس هم بشيء من هذا.. بضاعة رائجة..

توقف برهة وشرب نصف كوب ثم أضاف يقول:

- إنهم على أنواع: ثوريين بالكلمة.. والإزعاج.. أو كثرته أو على حد قول أحد الأناجيل، ما هم سوى الرماد في العين.. إن المثقف الذي يود الانتقام من الخذلان الذي عرفه في حياته الخاصة أو الذي لم يجد مكانًا لألقابه، أو على سجله لطخة، فعلًا ليس هذا بثوري.

- ولكن من إذن؟ أراد أن يسأل سامغين.. ولكنه لم يجد الوقت الكافي لذلك.. لقد انحنى كوتوزوف فوق السيدة سبيفاك يقول لها مبتسمًا:

- هل قرأت توراة هوايت: القوى المثمرة في روسيا؟ كتاب فخم جدًّا! لقد لاقى رواجًا لدى الليبراليين الذين يعملون بآراء ماركس.. إنه لثورة بالفعل!

وعاد سامغين يتذكر من جديد.. يتذكر ماذا حصل في بطرسبورج وكيف أن هذا الرجل أوحى له بشعور مزدوج: إذا كانت «الكوتوزفيكية» تثيره فهو يجد ما يهدئ من روعه في شخص كوتوزوف بالذات أكثر مما يجد عند أي شخص آخر..

حك كليم عنقه وقال:

- يبدو لي فضوليًّا جدًّا، أيتها العمة ليزا، كيف يستعجل الرجال الأمر وبأي مهارة يتعلقون بالضرورة التاريخية.. وهنا يظهر مدى تأثير الماركسية في كثير من الناس.. إنها قضية تطور وتحفز.. ولنقل قضية عدم مقدرة الفرد.. إذن. دعونا بسلام!

حك رأسه بينما تقلصت ملامح وجهه وعاد يقول:

- بالإجمال، لم أحصل على أفكار معزية.. ذهبت إلى مصنع حيث يعمل ابن عم لي كمدرب. إنه يؤلف جزءًا من ورشة كبيرة.. وينتمي إلى أحد الأسباط.. إذ إن بين العمال سبطين: «الديوفربيست والفربوديست».. ومع هذا يستقيان أفكارهما من إنجيل القديس يوحنا.. بعضهم يدعي: الكلمة كانت موجودة قبل الله.. أما بعضهم الآخر فيقول: كذب. الكلمة كانت في الله، إنه النور والعالم خلق من كلمة نور. ذهبوا إلى أوبتيز، مركز النساك؛ ليعرفوا من هو على حق.. قادهم هذا التضاد إلى الكراهية والعراك، وهذا الربيع بالذات، طرحت قضية زيادة الأجور على بساط البحث.. ورفض الفريقان أن يؤيد بعضهم الآخر.

مر كوتوزوف بيده فوق ذقنه، وراح يتحسس خديه، ثم وضعها فوق ركبته وتابع:

- وصف غريزنجر مرضًا عقليًّا وسماه، على ما أعتقد «غروبلشوت»، أو طريقة التقنين والتقصي.. وهناك سؤال ملح يعذب الإنسان: لماذا لا يكون الأزرق أحمر، والثقيل خفيفًا؟ ومسائل أخرى من هذا القبيل.. فعلًا، يبدو لي أن لدينا الآلاف من الناس، جهال كانوا أم متعلمين، مصابون بهذا الداء.

أبعدت السيدة سبيفاك الذباب عن وجه الطفل النائم وقالت بصوت منخفض ينم عن ثقة تامة في النفس مما أدهش كليم وأجابت:

- سيمر هذا يا شيبان.. وبسرعة..

- أجل، وبكل تأكيد.. سنغتني، أجاب كوتوزوف..

- آسف لأنني لم أستطع الذهاب إلى نيجني؛ لأشاهد المعرض..

- رجعت في مقالك، يا سامغين، إلى عبارة وردت على لسان أوليس..

- أجل، ستجزّ طبقة الكادحين رقاب المدعين.. وبانتظار ذلك لا أرى ما يفرح ويسر.

تطلع إلى ساعته وسأل:

- ألم يحن الوقت بعد؟

- أجل، أجابت السيدة سبيفاك ونهضت تحمل الولد بين ذراعيها بحذر وتذهب به، بينما تناول كوتوزوف، مبتسمًا، الكرسي المقابل لكليم وسأله بصراحة:

- إذن تجد أنه ينقصنا ثوريون؟ من رأيت منهم؟ وأين؟

وهنا تكلم سامغين عن ثلاثة منهم: ليتوف، وبريس، والشماس..

- الشماس؟ أليس إيباتيفسكي؟ ألديه ولد؟ وها قد مات هو؟ أوه وأبوه.. أيتهم أيضًا؟ قضية نادرة.. أتتردد على الشعوبيين كثيرًا؟

- لا أتردد عليهم، إنما أدرس.. قال كليم وهو يأسف لبلاغته.

- تدرس حياة أولاد آفاكوم؟ دعك من هذا! ولا أظنه يقود إلى شيء فعلًا.. إلى لا شيء، كرر قوله بينما كان ينهض لينسحب.

تطلع إليه وتفحصه من رأسه إلى أخمص قدميه وخاصة صدره العريض ثم قال في نفسه: «إن ثوريته تكفيه».

أشعل كوتوزوف سيجارة وجلس بالقرب من كليم حتى كادت مناكبهما أن تتلامسا.

- ليس هناك سوى قضية واحدة يمكن تأييد الشعوبيين فيها، أكمل بصوت حالم ومنخفض: إن الشعب العامل عندنا طيب جدًّا، يتمتع بذكاء خارق، ولربما كان يستوحي منها كل شفقة بأنواع الفصاحة المتعددة، وعندما يتحدث الشعبي عن حبه للشعب.. تجده يحدثك باقتناع ويدعوك إلى الإيمان بصدق أقواله.. ولكن يجب أن تحب بدون شفقة.. الشفقة هي تقليد للمحبة يا سامغين.. شيء رديء جدًّا.. قرأت مؤخرًا دعوى أول آذار وتملكني شعور بأن الخطوط التي كانت مُعدَّة لنسف قطار القيصر قرب ألكسندروفكس عطلت بداعي الشفقة.. أجل.. لا بد أن أحدهم كان يشفق على المخلص..

دخلت السيدة سبيفاك ترتدي ثوبًا أبيض وقبعة مزينة بريش النعام.

- يا للأناقة! قال كوتوزوف.. إياك أن تنسي يا عمة ليزا.

- لا، لا، وعادت تقول وهي تغادر الغرفة.

تطلعا إليها تعبر ردهة المنزل بينما لصقت الرياح العاتية تنورتها بفخذيها وتلاعبت بريش قبعتها وانتزعته..

وعندما انحنت تسوي وضع التنورة، بدت وكانها تحيي الريح.

سأل كليم:

- متى رجع توروبيف من الخارج؟

- منذ شهر.

- مع زوجته؟

- وهل هو متزوج؟ سأل كوتوزوف مندهشًا.

قص عليه حكاية توروبيف وألين فضحك كوتوزوف وقال:

- هكذا؟ لا.. يجب ألا تكون امرأته معه..

إن امرأتي مارينا، تسكن هناك. ولم تخبرني بشيء.. ماذا يكتب لك ديمتري؟

- لا يكاتبني أبدًا.

- لم يعد لديه وقت كافٍ لإضاعته هناك.. كتب لامرأتي يقول بأنه سيذهب إلى الجنوب، إلى بولتافا على ما أظن.

تعجب كليم وهو يسمع هذا الرجل يحدثه عن أمور الحياة العادية ويعيد ذكرى إنسان استولى على خطيبته.

ثم توجه كوتوزوف إلى البيانو وعزف بعض الألحان.

- لم أسمع موسيقى جميلة منذ زمن بعيد..

سيمكننا اللعب والغناء عند توروبيف.. إنه مركز غريب يرتاده الموجيك كالجرذان.. هل تحب الصيد يا سامغين؟

اقرأ إكساكوف في كتابه «حول صيد الأسماك» ستدهش! كتاب مذهل حقًّا.. هذا ما قاله برهم.

كان كوتوزوف يدخن ويتحدث عن حيل السمك الغريبة.. وكأنه كوزلوف يتحدث عن أخلاق وعادات المدينة.

عادت السيدة سبيفاك متجهمة الوجه قلقة وقالت تهمس شيئًا في أذن كوتوزوف. قفز هذا فوق كرسيه يصر أصابعه ويقول:

- إلى الشيطان! هذه هي الرذالة بعينها!

فهم سامغين أنه مكث كثيرًا فاستأذنهم وذهب.. وصل إلى غرفته فتمدد فوق سريره وأسدل يديه على جانبي السرير وأطلق العنان لخياله محاولًا تنسيق أفكاره المرتبكة..

كانت ترن في أذنيه أصوات كوتوزوف والسيدة سبيفاك.. وخاصة صوت هذه الأخيرة لما فيه من التعزية والاطمئنان:

«سيمر كل هذا بسرعة!» كم هي خبيثة ومحتالة! إنها لم تعرف شيئًا يذكر من أخلاق المرأة الثورية.. ولكن من أين أتتها هذه الطمأنينة؟

ظن كليم أن السيدة سبيفاك خدعته، ولهذا وجد سهلًا محاكمتها بهذه القساوة.. بينما لم تؤثر الإساءة شيئًا بكوتوزوف..

«إن عامل الثورة متواضع كثيرًا.. لربما لم يكن ذكيًّا ولكنه شريف.. ابتعد إذ لا تستطيع أن تعيش مثلي» قال: إن ما يقوله عن الثوريين باشمئزاز صحيح. إنهم يستحقون أن نصرخ فيهم ونقول: «لقد انتهى عهد الخرافات».. هذا ما قاله نيقولا الأول بلسان مدافعه.. إنه شيء قاس ولكنه سر الدفاع.. ويحق لكل إنسان أن يمتلكه.. إن كوزلوف على حق..

قفز سامغين من سريره وراح يذرع أرض الغرفة، جيئة وذهابًا، ويقذف المرآة بنظرات حادة كلما مر من أمامها..

- أجل! التطور.. ليدعوني أعيش بسلام مع هؤلاء التقنيين. ماذا كنت قبلًا؟ غربيشوت؟ لماذا يجبروني على الأخذ بآراء غريبة والتفكير بأناس لا أعرفهم أو أصوات لا تهمني أبدًا، لماذا؟ إذ يتملكني عندئذ شعور بأن كل ما أرتديه من ثياب هو مستعار، لا يناسب جسمي أبدًا.. أحيانًا واسعة وأحيانًا أخرى ضيقة تعيق نموي.

لم يكن لأفكاره هذه من هدف سوى تثبيت معتقداته وحقه بألا يتحد مع أي إنسان آخر..

توقف سامغين عن ترتيب كتبه وابتعد نحو النافذة.. يسير على مهل خوفًا من أن تفلت منه مثل هذه الفكرة النيرة.. ولكن هذه، وقد انبثقت فجأة من الظلمة.. جمعت من حولها أفكارًا نيرة أخرى.

كانت تنحدر من فوق صفحات كتب كثيرة سبق له وقرأها، حتى تظن بأنها كانت هناك تحوم بانتظار ساعة تجميعها.. والآن دقت الساعة لتؤكد لكليم استقلاله المطلق.

- لا مهان أو ضحية، إنما أنا رجل حر! قال في نفسه وكأنه يراقب من بعيد، مجرى أفكاره السريع.

استمر واقفًا قرب النافذة وقد تملكه سرور عارم يضحك لأستوريا ويحك بلحيته.

قرع جرس المدخل وظهر إينيكوف في الساحة.. ولكنه لم يذهب رأسًا إلى الجناح، لوح بقبعته وقال بصوت عال:

- إليك سأذهب.

كان أمرًا غريبًا.. إذ سبق لإينيكوف أن زار سبيفاك.. لكنه لم يقم بزيارة واحدة لسامغين.. مع العلم أن زيارته هذه كانت تمنع سامغين من التحدث إلى نفسه.. واستقبل الزائر بتحفظ.. ندم على عمله هذا لأن الزائر قال منذ أن ظهر في عتبته:

- اسمع، أي شيطان دفعك كي تقرأ أشعاري لإليزابيث لوفنا؟

كان يتكلم بصوت وقح ومزعج.. بينما بدا محياه طبيعيًّا لا يخلو من الدهشة، طرح هذا السؤال ثم فتح فمه ورفع حاجبيه كرجل حائر.. وعندما شاهد سامغين شاربه الأسمر يتراقص عرف أن ليس في الأمر خير.. وعليه إيجاد شيء يرد به.

- أشعار؟ شعرك أنت؟ سأل بنفس الدهشة، وخلع نظارته من فوق عينيه ووضعها إلى جانبه، فوق الطاولة الصغيرة.. لم أقرأ لها سوى قصيدة واحدة.. وغير ممهورة بأي توقيع..

إنه الآن فعلًا يعجب من السهولة والفصاحة اللتين عبر بهما عن أفكاره.

- ممزقة؟ أعاد إينيكوف، وجلس في الكرسي يضم قبعته بين ركبتيه ويغطي وجهه بيده.. فظننت أن سوء تفاهم حصل فيما بيننا.. ولهذا أعتقد أنك لم تقرأها، ألا زالت بحوزتك؟

- سمح لي رئيس التحرير بإتلاف جميع القصائد التي لا تصلح للنشر.

تنهد إينيكوف ثم تطلع من حوله ومسح عينيه بأصابع يديه الاثنتين، وعلت سحنته صبغة من التشاؤم وارتخت عضلات وجهه..

- سفرة موفقة.. نكاد نختنق في المدينة.

تطلع إلى الغرفة من جديد وتمشى فيها برهة واقترح بصوت من يرجو شفقة وعطفًا..

- اسمع يا سامغين.. ما رأيك لو ذهبنا إلى الحقل؟

- بكل سرور، أجاب كليم.

كان يحس بأنه أساء إلى إينيكوف وأن هذا الأخير بحاجة إليه.. شعر برغبة تتولد فيه وهي: نوع العلاقات التي تربط إينيكوف وكورفين والسيدة سبيفاك.

كان إينيكوف يسير في الشارع بخطى سريعة ويشد بغضب على عقب سيجارته ويقول:

- أذهب كثيرًا إلى الحقل أتفرج على العمال يبنون معسكرات المدفعيين.. أنا شخص كسول جدًّا لكنني أحب رؤية العمل.. أحب أن أشاهد الإنسان الذي يعمل.. أفكر وأتطلع. «سيحصل ذلك اليوم، بالتأكيد، ويسأم الناس أعمالهم الروتينية ثم ينصرفون يدًا واحدًا إلى عمل واحد وبكل قواهم فيحققون العجائب..».

- برج بابل آخر؟ سأله كليم..

- لم تكن فكرة سيئة بالقدر الذي تظنه، قال إينيكوف ودفع سامغين من مرفقه.. لا، أومن بأن الناس سيفعلون العجائب.. فالحياة لا تريد أرضًا ويجب إرسال الجميع إلى جهنم! أجل كل هذه البيوت والأضواء وما شاكلها.

قذف بعقب لفافته بعيدًا أمامه وابتسم ساخرًا ثم أرجع قبعته إلى الوراء فوق رقبته بالذات وقال:

- ألست أنت الذي قص على إليزابيث حادثة رئيس الكنيسة؟

- بالتأكيد لا.. أجاب كليم بتلعثم.

ولم يلحظ إينيكوف هذا الارتباك.

- من إذن؟ أيعقل أن يكون هو نفسه.. الوسخ؟

- لماذا عاملته هكذا؟

تردد إينيكوف برهة ثم قال وهو يتلفظ بكلمات نابية: إن كورفين كان يزود الرجال بالأولاد.. ويسهل لهم عملية اللواط.. جد البوليس في أثره عندما اكتشف أمره، ولكن الكاهن خلصه وأبعد عنه الشبهة..

- ومع هذا سيذهب إلى السجن، أجاب إينيكوف بغضب وانفعال بارزين..

- هل تعلم إليزابيث بهذا؟ سأل سامغين بحذر.. تفحصه إينيكوف وسأله بدوره:

- لماذا تريدها أن تعرف؟

- هي تدرك ما رميت إليه..

- هناك سفهاء غيره يغنون في جوقتها.

سعل ثم بصق وسكت ممتعضًا.

دخلا إلى الحقل الفسيح يغطيه العشب الأخضر وتدفئه الشمس.. أخذ إينيكوف رفيقه من يده وسار به خطوات قليلة يريه، عن بعد، الأعمال التي يقوم بها الجنود والبنادق تلمع في أيديهم أو معلقة بأكتافهم.. وباتجاههم كان يسير فارس أبيض يمتطي حصانًا برونزي اللون..

- أنشأ فارافكا مكانًا لذبح المواشي وسجنًا في جانب من المدينة، قال إينيكوف بجدية وهما يصلان إلى حافة النهر.. أما في الجبهة الثانية فقد أنشأ خصمه ثكنة..

كانت الأعشاب تتحطم تحت أقدام كليم.. كان يحس بأنه سيذوب في حرارة الشمس وهو يسير إلى جانب إينيكوف. لم يكن بحاجة إلى أن يتكلم أو يسمع ما يقوله إينيكوف.. كان يسير ويتطلع إلى الثكنات تعلو! كانت تتألف من ثلاثة أجزاء وقد شارف قسم كبير منها على الانتهاء.

تبع كليم وإينيكوف حافة الخندق العميق المحفور في أرض دلفانيه.. كان أحد جسوره مغطى بأوراق الشجر والأعشاب البرية.. بينما كان الآخر عاريًا كلون الحديد وكأنه خدش بأظافر شرسة.. كان هناك تناقض ظاهر بين حفرة الأرض هذه والبناء الضخم الذي يشيده أولئك العمال البسطاء بالقرب منه.. وفكر سامغين بأنه يلزم الآلاف منهم لطمر هذه الأخاديد الكثيرة...

وفجأة صرخ إينيكوف وهو يدفع كليم ويقول:

- أوه.. هيا بنا نركض بحق الشيطان، واندفع أمامه برشاقة الأطفال.

بقي كليم مسمرًا في مكانه لا يعي ما يرى.. كان يبدو له أن نقطة السماء الزرقاء.. اهتزت فدفعت الحائط أمامها.. وها هي الآن تتهيأ لسحقه والإطاحة به عن سدة الحكم.

تمايلت الحواجز الخشبية المحيطة بالبناء على مهل من ناحية كليم تكشف عن الحائط والمدرب المسؤول.. إذ إن صرير المعدات واصطدام أحجار القرميد بالأرض وهي تقع، كان يسمع بوضوح.. لم يدرك سامغين أن الحاجز يتداعى وأن العمال يقفزون من فوق الأخشاب كي لا يطمرهم التراب

المتهاوي.. تردم الحائط وتطاير الغبار يحجبه.. قفز عمال عديدون إلى الأرض كي يتخلصوا من الأعمدة الخشبية، ولكنها بدأت تقضي عليهم وترفسهم.

ظهر في أحد النوافذ رجل عجوز يحمل بيده عصا وإذا بالنافذة تنهار من تحته فيرمي بعصاه في الهواء ويقع إلى الوراء.

وتطايرت قبعة من القش في الهواء ثم وقعت فوق الأرض وتدحرجت أمام سامغين الذي قفز مبتعدًا عنها وتطلع من حوله فرأى أنه لم يبتعد كثيرًا من المكان، كما فكر قبلًا بل يتمسك، لاهثًا، بمجموعة من الأخشاب وأحجار القرميد المحطمة... تراخت قدماه وعجزتا عن حمله فجلس فوق التراب يغمز بعينيه وكأن العرق المتصبب من جبينه أعماه، فنزع نظارته وتطلع إلى البنائين والنجارين يهربون من جميع الجهات يلوحون بأيديهم، شاهد شابًّا منهم يرتدي قميصًا أزرق يسرع الخطى ويبعث بصرخات صماء:

- العم بافل!!

مر أمام سامغين، أبيض الوجه ممزق الثياب، حافي القدمين فاغرًا فاه، وبدت عيناه مستديرتين كقطعة نقود.

وتداعى كهل عجوز بالقرب من سامغين ينزف دمًا، وقد أصيب بجرح في رأسه.. يلهث ويتحسس جرحه بأسى.. تطلع إلى أصابعه الملوثة بالدم فزفر ومسحها بثيابه، ثم قال وكأنه يقرأ في كتاب:

- الخونة.. الموظفون.. المأجورون.

في هذه الأثناء وصل فارس أبيض من المعسكر يتبعه الجنود يدفع بعضهم الآخر ويقفزون كالمناطيد، وخلفهم بانت عربتان كبيرتان لونهما أخضر. ومالت الشمس فوق الغابة تنير المعسكر ببريق لا يحتمل، وكأنها تود أن تعطي للمأساة صبغة من الألم للذكرى.

مشى سامغين وابتعد عن القوم.. يهز برأسه ويتطلع إلى الحقل المملوء بالناس، رأى إينيكوف يحمل مصابًا ويضعه من فوق كتفيه.. فبان المسكين مطويًّا كالدمية، بينما كانت يداه تلامسان صدر إينيكوف وكأنها تحاول فك أزرار قميصه..

ركض جندي يلوح بيده الملفوفة بالقفاز واستوقفه.. فجلس هذا الأخير القرفصاء، ومدد الرجل بتأن فوق الأرض ثم جمع يديه إلى ساقيه، فتركه وركض باتجاه الحائط المتداعي بأقصى سرعته يساعد على انتشال الجثث والجرحى.. اقترب بعض العمال، ولكن أغلبية الناجين منهم وقفوا يحيطون بسامغين.. كانوا يتحدثون وينادون بعضهم بأصوات عالية.. وسمع صوت يقول:

- وبافل؟ سيذهب.. هذا ما سأقوله إلى مانييف.

وصرخ بنَّاء آخر عريض اللحية منتفخ الوجه متورم العينين:

- يجب أن تشكروا الله.. نعم.

- كنت أول من فهم اللعبة..

- الأنذال.. أرادوا المحافظة على الاقتصاد وتنميته.

- لماذا تصرخ؟ عليك أن تصلي الآن!

- أردت، أنا، رؤية ماتفي وهو يسقط.. غطس في هوة سحيقة.. حقًّا!

شعر سامغين أن حرارة الجو تزداد وأن الشمس تحفر بقساوة ذكرى الكلمات في مخيلته.. ذكرى الوجوه المعفرة بالتراب وحركات الناس الهلعين.

كانت أصوات البنَّائين غريبة ومتفاوتة، يتكلمون بصوت عال ليخنقوا صراخ الجنود ويقضوا على الأصوات الحادة والمتقطعة:

- أوه.. أوه..

وأدارت حفنة من الرجال ظهرها إلى مكان الحادث.. كانت علامات السرور بادية على وجوههم.. ثم قال موجيكي صغير أشقر، يرسم إشارة الصليب باستمرار متلعثمًا بالكلمات:

- إن الله يشهد على أقوالي.. فأنا لا أكذب أبدًا.. كان ينزل من فوق عندما تداعت الأخشاب من تحته وطار.. يشهد الله على ما أقول!

تطلع سامغين من حوله يحاول أن يفهم كيف استطاع أن يقترب بسهولة.. وهنا تذكر أنه عندما اندفع إينيكوف إلى الأمام.. لم يركض خلفه بل ذهب في اتجاه آخر.

- مشهد يحير، فكر وهو يتطلع إلى الجنود يحملون الجرحى ويصفونهم جنبًا إلى جنب في صفوف متوازية.

اقترب إينيكوف يلف يده اليسرى بمنديل، بينما يحاول باليد اليمنى وأسنانه أن يعمل عقدة.

- ساعدني إذن، قال يخاطب كليم..

- هل جرحت؟

- خُدشت أصابعي..

- أهناك كثير من القتلى؟

- شاهدت ثلاثة.

وقف أمامه وقد تلطخت قبعته بالكلس وتمزق كم قميصه، يضرب الأرض برجليه دون انقطاع فيتطاير الغبار خفيفًا، ويسمع تحطم ما تبقى من بقايا حجارة القرميد.. وقف يقول:

- يا له من شيء مهم.. عندما كانت الأخشاب تتهاوى ظنناها بيوت عنكبوت تنقض وتمسك بالرجال.

- أجل.. قال كليم موافقًا.. إنه بالفعل هكذا: عنكبوت. لا أستطيع أن أتذكر إذ كنت قد ركضت وراء أم بقيت في مكاني.

ورماه إينيكوف بنظرة لم يفهم منها شيئًا..

- كان أحدهم محطم الرأس.. شيء غير طبيعي.. إذ لم يبق من رأسه سوى الفك الأسفل والذقن.. أنذهب؟

ومشيا جنبًا إلى جنب بخطى وئيدة، استدار إينيكوف ومسح العرق والغبار عن جبينه بطرف كمه يدفع كليم بعيدًا عنه، ولكن هذا أصر أن يلتصق به قائلًا:

- هل تعرف أنني أقنعت نفسي بأنني بقيت في مكاني.. بينما، في الحقيقة كنت أركض خلفك.. غريب، أليس كذلك؟

- أي غرابة في ذلك؟ تمتم إينيكوف قائلًا بعدم مبالاة وزم شفتيه ثم ابتسم.. إن البنائين الذين لم يصابوا بأذى تحملوا المصيبة بهدوء، استطرد يقول: ركضت ورأيت رجلًا ممددًا، مغمى عليه، وقد علقت رجلاه بين وتدين.. صرخت وناديت آخر قائلًا: ساعدني كي نسحبه من هناك. فأجابني: ممنوع.. لا تلمسه، ممنوع لمس الأموات.. لم يساعدني بل ابتعد ولم يلتفت ثانية.. إنهم جميعًا هكذا: الجنود يعملون وهم يتفرجون.

- لقد تملكهم الرعب، قال سامغين، ثم تذكر فجأة كيف ساعد بوريس فارافكا وخلصه من غرق محتم..

- لا شيء يشبه ويضاهي ما يحدث اليوم..

هز إينيكوف رأسه وعاد يقول:

- لم يسبق لي أبدًا أن شاهدت شيئًا من هذا..

ومحت هذه الكلمات ذكرى بوريس.

تملك سامغين نوع من الشعور بالضعف والانفطار في القلب.. كان بحاجة إلى أن يطبق عينيه ويتوقف كي لا يشاهد أناسًا غرباء.

- شيء مدهش حقًّا، هناك رجال مبتورون يئنون ويصرخون.. أصوات الأخشاب تتحطم والحديد يحترق والتراب يتداعى.. بالرعب والشقاء..

اصدم بسامغين وخفف السير ثم أضاف:

- أراد أحدهم أن يضربني بوتد.. وبينما كنت أحاول نزعه منه انفرد في يده.. فأجبرت على انتزاعه وتضميد جرحه.. أليس هذا جنونًا؟

وعاد يسرع الخطى من جديد..

- أصوات أخشاب وضجيج ماكينات صغيرة يشبه الغبار في النفس.

«لعل مسألة قطع الخشب التي دخلت في اللحم، مجرد اختراع منه» قال كليم في نفسه وسأل:

- ماذا تعني بقولك؟

- لا أعرف عنه شيئًا.. ولو عرفت لما تكلمت، أجاب إينيكوف واختفى فجأة خلف باب منزل مهدم.

- لماذا قال هذا؟ «لو أنني عرفت لما تكلمت»؟

سأل كليم نفسه من جديد. يا له من رجل مقرف..

عاد سامغين إلى منزله وذهب مباشرة إلى الحديقة وتمدد فوق مقعد فيها، وهنا أيضًا كانت الحرارة مرتفعة إذ منذ أيام وقيظ الجو ينبئ بهطول الأمطار.. لكن كانت الرياح تفرق الغيوم وتغرق المدينة بجو من الغبار الكثيف. تذكر سامغين جثة رجل محطمة، دون أذرع وسيقان، دثرت بغطاء رمادي، جسم قيل إنه وقع وتحطم بسرعة غير معقولة..

لم يعد كليم يتذكر عدد الرجال الذين شاهدهم يتطايرون في الجو ويهوون من الحائط.. أثلاثة كانوا أم أربعة؟

ومن نافذة شقته المفتوحة كان يستمع إلى صوت إليزابيث وهي تعلم تلامذتها تاريخ الأدب في مدرستها الموسيقية.. كانوا عشرة يترددون عليها كل مساء.. ولكي لا ترجعه ذاكرته إلى المأساة وجد نفسه مجبرًا على الإصغاء إلى شروح السيدة سبيفاك...

- لم يستنبط ريمبو شيئًا عندما حاول إعطاء الحروف الصوتية اللون الزاهي.. إذ إنه لم يفلح يوم أراد تحدي الكلمات وإبدالها بعبارات ملونة..

قال في نفسه وهو يستمع إليها:

- إنها امرأة خبيثة جدًّا.. أين تريد الوصول؟

كانت السيدة سبيفاك تتكلم بصوت مزعج وعنيد:

- إن مبدأ الرومانسية، أصلًا، هو التهرب من الواقعية والتخلص من الأعمال اليومية.. وهذا ما عبر عنه كارامزين، بالرغم من أنه هو أيضًا كان رومانسيًّا لامعًا، بكلمات وقحة.. ثم قرأت قصيدة من شعره على مسمع من طلابها..

- يا للكذابة، قال كليم في نفسه وقد عرف أنها تحاول التبسيط.

وهكذا كان يحاول أن يعبر ويكتب القصص الجميلة، ليس لدقيقة واحدة، بل للحياة بكاملها.. إن البعض يهربون من الواقع أما الآخرون...

نهض سامغين واقترب من النافذة، وصرخ باتجاه الغرفة التي كان يعرفها جيدًا:

- لقد انهارت ثكنات المدفعية، قتل رجال كثيرون وجرح آخرون.

امتلأت القاعة بضجيج الكراسي وجلبتها، إذ وقف الطلاب يدفعونها بعيدًا ويتصايحون.. وفي إحدى الزوايا حيث تحترق شمعة كبيرة، شاهد سامغين يدًا طويلة الأصابع.. ثم سمع فتاة تصعد صرخات رعب.. وكأنها دجاجة أخافها ابن آوي.. وجد لذة عارمة بالانفعال الذي أحدثته كلماته.. ثم راح يسير في الحديقة والساحة، يستعد على مهل ويتهيأ ليقص عليهم الحادثة المفجعة.. وخرج طلاب السيدة يضجون.. بينما انصرفت هي إلى تهدئة الوضع وأضاءت القنديل ووقفت بالقرب من طاولتها.. واستمر العجوز راديف، جالسًا أمام طاولته، ينقرها بأصابعه ويهز رأسه.

- يا لها من صرخات مسرحية! قالت السيدة سبيفاك دون أن تبتسم.. وبدون تأنيب أيضًا.

- أجل، قال راديف كإنسان يتهم آخر.. أجل لقد هربت الفتوة.

سأل سامغين عن الفاجعة بينما قالت السيدة سبيفاك وهي ترتدي روبًا فاتح اللون، رافعة يدها ترتب شعرها، قالت:

- لقد أوقف روتوزوف.

- فوق المركب، نعم.. أكد راديف من جديد وزفر بشدة. ثم نهض يضغط بإحدى يديه على يد السيدة سبيفاك ويربت فوق الثانية بحنو وقال معزيًّا:

- سيحاولون إذن أن يطلقوا سراحه دون كفالة، أليس كذلك؟ بصحتكم..

قادته السيدة سبيفاك وعادت قبل أن يكون لكليم الوقت الكافي ليقرر كيفية نظره بالنسبة لتوقيف كوتزوف.. وإلى جانبها كان يتمشى كورفين يشبه حلاقًا غنيًّا..

- أتعرفون بعضًا؟ سألت السيدة سبيفاك بلا مبالاة.. بينما كان الزائر يعلن عن نفسه بصوت جهوري ومتعال في آن واحد:

- أندريه كورفين.

- سأذهب لأتفقد ولدي لحظة، قالت السيدة سبيفاك وهي تغادر الغرفة..

سحب كورفين من جيبه ساعة ذهبية وقال:

- لدينا أربعون دقيقة قبل المراجعة.

انتظر حتى غادرت السيدة وأقفلت الباب خلفها.. عندئذ مد عنقه باتجاه سامغين وقال يسأله بسرعة وبصوت منخفض:

- شاهدت حدوث الفجيعة.. ولا تظن أنني سأكتفي بهذا.. فهو ضرب من الجنون وليس هو بعذر أبدًا.. كما أنه لا يعتبر سببًا كافيًا كي لا تعرف به إليزابيث.. أليس ذلك صحيحًا؟ أما بالنسبة له فأخبره بأنه سينال ما يستحق.

- سأتكفل بمثل هذه المسائل، قال كليم رافعًا صوته.

- صه.. صه.. تمتم كورفين رافعًا يده.. ولماذا لا تتكفل بأمور كهذه؟ لماذا؟

عادت عيناه إلى هدوئهما وحرك كورفين شاربيه ثم مسح شفتيه، وقال بصوت ينم عن التهديد والوعيد:

- سأذكرك كشاهد أنت والكاريكاتير.

دخلت السيدة سبيفاك وجلست بتراخ فوق الكنبة.. وقرَّب كورفين كرسيه من مقعدها، فجلس يسوي من وضع سرواله ويظهر جواربه الملونة بالمربعات الزاهية.. كانت ركبتاه ضخمتين ومستديرتين وكأنهما تزنان ثلاثين كيلوجرامًا أو أكثر.. تململ سامغين من غباوة رئيس الكنيسة وود أن يخبر إليزابيث بكل

شيء.. ولكن هذه نظرت إليهما نظرة جعلتهما على حد سواء في المسؤولية والتكتم، ثم قالت وهي تتصفح كتاب موسيقي بقربها:

- أتعرف المصيبة؟

سألت بطريقة غريبة جعلت كليم يتساءل في نفسه:

- أتراها تتكلم عن كوتزوف؟ وهل يعقل أن يكون هذا الثور ثوريًّا؟

لم يكن كورفين يدرك المصيبة تمامًا، فاقترحت السيدة سبيفاك على كليم تقول:

- احكها.

استمع كورفين دون أن يبدي أي اهتمام بالقصة المقتضبة والجافة، وبعد ذلك أضاف بشراسة:

- إنهم يسرعون ولذلك يتداعى كل شيء.. كما أن شعبنا ليس على استعداد تام بعد.

أخذ كورفين يتحدث بصوت نحاسي رنان كرجل اعتاد الثرثرة. أراد أن يبين للجميع ما هي فائدة ترتيب الفرق الموسيقية والاعتناء بالأغاني الشعبية.

- كما يتوجب تشجيع الرياضة، وخاصة البوكس، إن شعبنا يهوى العراك.

أخفض صوته ثم سعل وتتطلع إلى كليم بتحدٍّ:

- يتعاركون كالحيوانات.. حتى في حفلات الصراع يفترض أن يكون هناك تهذيب وقوانين..

ابتسم سامغين ولاذ بالصمت، بانتظار ما ستجيب به السيدة سبيفاك التي كانت تدون ملاحظاتها حول الموضوع.. ثم قالت بطريقة غريبة:

- أوقف أندره فلاديمييروفيتش في كوريا..

جلس معلم الكنيسة من جديد يغطي فمه بمنديل صغير ويتطلع إلى سامغين بغضب.. وعاد يتابع حديثه بلهجة قاسية:

- لنأخذ الإنجليز مثلًا: يتقيد طلابهم بالهدوء ولا يأتون بالسخافات وأعمال التطرف، حتى ولا يثرثرون.. ويعود الفضل في ذلك إلى أنهم يمارسون الرياضة.. أما نحن، فنأخذ من الغرب عاداته السيئة ولا ننظر ما لديه من الأمور الصالحة.. هل يجب تنظيم المسيرات الدينية بالنسبة للشعب؟ ثم ما هو الشيء الذي يعطي البابوية قوّتها؟ إنه بالضبط المنطق المسرحي الذي تروجه لتعاليمها. إن الشعب يتشرب الديانة وهو ينظر إلى الأشياء المادية.. ها وقد مضى ما يقارب الألف والتسعمائة سنة والجميع يبشرون بعبادة الله الروحية.. لم يعط كل هذا النتيجة المرجوة.. بل ازداد عدد المذاهب.

- حدثنا عن الكوريين، اقترحت السيدة سبيفاك بعد أن تطلعت إلى ساعتها.

- الكوريين؟ إنه شعب تعيس يفنى باحتكاكه باليابانيين وتساعدهم أوروبا، ورمى ركبتي السيدة سبيفاك بسهم من الدخان الكثيف.

- إنه شعب لطيف، فطري، رخو كالشمع.. وبينما كان يعدد صفات الكوريين حطم طرف علبة الدخان بأسنانه وشفاهه القاسية، ثم أضاف: إنه شعب لا يحتاج إلى الثقافة الأوروبية.

عاودته ذكرى أليمة ومهينة وإذا بعينه تمتلئ دمعًا، وراح يحك ركبتيه بعنف حتى كاد يدميهما ويلعن اليابانيين ويقول ساخرًا:

- وكذلك عندنا بالذات.. أظنهم يودون إيقاف عربة تقدم ديانتنا الأرثوذكسية..

- حان الوقت، قالت السيدة سبيفاك وهي تقف: ظن سامغين أنه اشتم شيئًا في حديثها..

- تعال معنا، اقترحت على كليم..

كان يعرف أنها تصر على قولها وكان هو أيضًا في حاجة إلى المزيد من سماع حديث كورفين.. كان الطقس رديئًا في الخارج.. والرياح تصفر عاتية في الشوارع والأزقة.. تدفع أوراق الخريف الصفراء أمامها.. كل هذا كان يذكر سامغين بالبنائين والنجارين وهم يتساقطون من فوق الحائط.

- إن المرأة، من طبيعتها، مؤمنة، قال كورفين بصوت رنان.

مشى يرفع ساقيه الثقيلتين وكأنه جنرال يحمل عصاه تحت إبطه كي يمنع سامغين من الاقتراب منه..

- آه.. يا لك من مزعج! قالت السيدة سبيفاك بينما استمر كورفين في عناده:

- إن امرأة لا تؤمن هي الفوضى بنفسها.

انعطف سامغين في شارع ضعيف الإنارة تدفعه الريح في ظهره ويجفف الغبار فمه وبلعومه. قرر أن يدخل إلى مطعم ويشرب البيرة، ثم يجلس برهة بين القوم البسطاء. وفجأة ظهرت أمامه امرأة تتلثم بغطاء أسود وترجوه بلطف:

- رافقني.

أسرع سامغين خطاه بينما كانت هي تضرب الرصيف متعمدة.. كعنزة تنقر بغضروفها.. سمعها تقول:

- أسكن قريبًا من هنا..

تطلع سامغين إلى الوجه المستدير وقال باشمئزاز وتبرم:

- اذهبي عني..

ارتعبت الآنسة وتراجعت إلى الوراء.

- آه، لو استطاع الإنسان أن يقذف بكل ما هو غير مجد من حوله.. وعندما استلم الشارع الكبير حاول أن يبرئ نفسه مما حدث:

- إن هذا الشعور النسائي مصدره الوحيد ليديا، كان نادرًا ما يفكر بها وكلما ذكرها ازداد حقدًا عليها.. أما الآن فقد بلغ الحقد ذروته بعد ما حدث مع المرأة الغريبة هذه..

- يا لها من إنسانة معقدة، تحتاج إلى شفقة ورحمة.. قال في نفسه وهو يجلس في المطعم.. ولم تكف ذاكرته عن العودة به إلى أسئلة الفتاة المبهمة:

- اسمع، إنه شيء مرعب: الله والأعضاء الجنسية!

لاحظ أنه يفكر بالنساء منذ مدة طويلة، يفكر فيهن ببرودة وخبث متزايدين، كان مقتنعًا أنه معصوم عن الخطأ وأن مارجريت، تلك المرأة العاقر، كانت على حق بما حكمت عليه وعلى أمثاله.

وما إن وصل المطعم حتى صم أذنيه ضجيج الملاعق والشوك وطالعته حلقة خصمه الكبير فارافكا، متعهد عمارات ماركولوف، ذكره عنق هذا الإنسان بعنق دجاجة لم ينتف ريشها جيدًا.. جلس أمام المتعهد مهندس أبرشية ديانين، ضخم الجثة والذي ما إن شاهد كليم يصل حتى قال يخاطب رفيقه:

- انظر، لقد بُعث أليعازر من بين الأموات!

- يقومون برحلات إلى القطب الجنوبي، ثم من تراه في حاجة إليه؟ أجاب ماركولوف باحتقار:

- صدفة أو تطفلًا، أجاب المهندس وهو يعب الخمر بسرعة ويركز ناظريه فوق كليم.. صدفة نعم وزيادة للاطلاع.

جلس دوموغاليف، صاحب أكبر الحمامات العائلية في المدينة، جلس قرب سامغين يضحك ويتسلى بالتلاعب بالألفاظ.. يصيخ السمع إلى مازين عضو المجلس البلدي يتكلم بسرعة وفوضى..

- حدثنا آباؤنا وأجدادنا فقالوا: «يجب أن نعرف من أين نبدأ وأين نقيم؟»، قال ماركولوف بصوت جهوري يخاطب المهندس، بينما راح هذا يصب كأسه ويتأملها تحت النور الساطع.

- إن بناء الكنائس يقوم حاليًا في سيبيريا، وعلى طول خط السكة الحديدية.

- لا. اسمعي هذا يا تيونا مترفنا!! صرخ أوسوف قائلًا. لقد وصل إلى سورسك تاجر أخشاب إسباني لا يجيد سوى لغته واللغة الفرنسية.. ألا تظنين أن سورسك ستتعلم الإسبانية.. وعند ذلك راحوا يعلمونه الروسية.. ويا ليتك عرفت ماذا علموه!!

كان سامغين يأكل الكابوريا المقلية ويتسلى بشرب البيرة وكله آذان مصغية للحديث الدائر من حوله..

عد سبعة عشر شخصًا في المطعم، كلهم من الملاكين أو «آباء المدنية» كما يسميهم روبنسون. لم يكونوا الأكثر ثروة، لا.. إنما هم «العوامل الفعالة» على حد قول المؤرخ كوزلوف، يبنون الوجوه على أسس سليمة ويتمتعون متعة المدنية أكثر من أي غني آخر.

استنادًا إلى كوزلوف وإلى عوامل أخرى أيضًا كان لزامًا اعتبار هؤلاء النخبة دعامة وطنية خالصة.

وفكر سامغين:

- سأنهي دراستي عما قريب وأعمل لدى أحد هؤلاء الثيران.. سأتزوج ابنة أحدهم وأرافق الطلبة.. ولربما ابتعدت عنهم فيما بعد.. وبعد مضي خمسة عشر عامًا تتسع الهوة بيننا ويصعب التفاهم.. الشيخوخة.. والأمراض.. سأموت وكلي شعور بأنني إسحاق الضحية.. ضحية أي إله؟

كانت هذه الأفكار الجديدة تعذبه وتقلق راحته.. لكنه لم يستطع التخلص منها وطردها. كان طنين الآنية وضحك الناس يرجع صداه في قلب سامغين.. وكأنه إناء فارغ.. توالت الأفكار المزعجة، تقض مضجعه وها هو راديف يقول:

- أحب المثقفين لعدم اهتمامهم، ولإخلاصهم في العمل.

وإلى جانبه لونوف يتحدث عن الثوريين وكأنهم ثمرة أخطائه. كان هناك كوتزوف الذي تكفل بتدمير الوجود الحالي، لكن كليم أفلح بإبعاده عن مخيلته.

«إن هذا لا يدخل في اللعبة.. ولوقت طويل جدًّا.. أما بالنسبة لآل ماراكوف وبوجاراكوف فماذا باستطاعتهم ضد هؤلاء؟» قال يسائل نفسه ويتأمل الناس الجالسين في المطعم.

- «إنني بحاجة إلى الترويح عن النفس» قرر أخيرًا وغادر المكان بعد بضع دقائق إلى الشارع الهادئ.

كانت الغيوم تتدافع في سماء المدينة فشبهها بالدببة المذعورة.. ولمعت النجوم بوقاحة في الأمكنة الزرقاء البعيدة.. كانت تلمع وكأنها تود تفسير أعماق هذه المجاهل وتنشر رائحة الخريف.

لم يكن في الشارع ما يدل على الحياة سوى القناديل المضاءة هنا وهناك.. إذ أقفلت المحلات أبوابها وأوى الناس إلى منازلهم يرتاحون. فجأة ظهرت فتيات الليل يسرن متخفيات في ظلال العواميد وتنعكس ظلالهن فوق بلاط الشارع الوسخ. تفحصهن كليم ورآهن يبتسمن بخبث طالما نفر منه وتحاشاه.. «إن إينيكوف هو الرجل الأكثر استقلالًا» ومرد ذلك إلى أنه ليس هناك ما يغريه بعد، ولكنه أحب امرأة تصغره بعشر سنوات.

مر أحد الرجال يعتمر قبعة مستديرة من القش يسرع الخطى، ولم يلتفت إلى سامغين أو يحييه.. كان يسير بحركة لولبية وكأنه يريد، ولا يجرؤ، أن يرسم دائرة حول كل امرأة..

«إنه معذب» قال كليم في نفسه.

ومر به رجل آخر يترنح من السُّكر.. كاد أن يجتاحه ويرميه أرضًا.. لكنه تنبه لوجوده وقال يعتذر:

- سامحني.. سامحني..

استدار كليم في آخر الشارع وانعطف في زقاق مظلم.. حيث اشتد صفير الرياح وكادت أن ترميه أرضًا.

كانت الخمرة تدير رأسه وتثقل ساقيه، والرياح تذكي فيه جذوة الأفكار القلقة.. المزعجة.. وصل أمام كنيسة القديس جورج الصغيرة المنزوية في دائرة تحيط بها البيوت الصغيرة من كل جوانبها.. وعند المدخل مدفعان صغيران نصبا كحدود لحرمتها.. تذكر سامغين أن فارافكا فكر يومًا بدفن هذين المدفعين في الأرض والبحث عن كمية من البارود لاستعمالها في تغذيتهما أثناء العراك.

كان بدريس يفتش دائمًا عن الطرق التي تخيف الشعب وترعبه.. لو قدر له أن يعيش لكان اليوم من أكبر الثوريين في العالم. إن الشيطان وحده يعلم كم أنا مرتبك، قال سامغين في نفسه وكاد ينطق بهذه

الحقيقة، يؤرجح نظارته بيديه ويحاول أن يعكس فوق زجاجها نور قنديل صغير بقربه.. كلما شعر بضيق أحس بأنه لم يسبق له ومر به من قبل.. كان قلقًا حتى الاحتقار ومع ذلك يفتش عن شيء باطني في ذاته.. حتى في حالة كهذه.. وهكذا فهو موجود الآن في مدينة لا يحبها.. أمام كنيسة ليس له شأن فيها.. فالريح تصفر والوحوش الضارية تزحف فوق المدينة وليس له فيها من قريب.

- «انتبه.. إن الأفكار العقيمة» قال في نفسه وراح يتأمل ذاته ثم أضاف «أفكار خيالية».. عندئذ تذكر بأنه عاش خمسًا وعشرين سنة ولم يفكر بإيجاد حل للغز الوجود الإلهي.. يجب أن يكون الله غير مفهوم وقاسيًا أو جميلًا جدًّا حتى نؤمن به رغم كل شيء.

«إن كل شيء يبدو مدهشًا الآن» قرر قائلًا وهو يتنهد. وما إن سمع صوتًا في البعيد حتى غاص في الظل من جديد.

- إنك تكذب، يا سليمان، قال إينيكوف بصوت قاس وأضاف شيئًا لم يفهمه سامغين:

- إن التتري لا يكذب أبدًا. ويجب أن تقول: سليمان توقف أمام نافذة منزل صغير.. وسمع سامغين هذا الحوار في الداخل.. كان أحدهما صوت أرنيكوف:

- لماذا سقيت تتريًّا؟

- عد إلى منزلك!

- انتظر! إن الحزن الحقيقي يتم بجلد الماعز، أما الخطوة الثانية فتتم بجلد الخروف..

كان التتري إنسانًا طويل القامة نحيف الوجه، له لحية تذكر بلحية لي هونغ تشانغ تختلف جدًّا عن إنسان عادي كالقيصر الروسي.

«يجب ألا يكون هناك شبه بين الله والإنسان» قال سامغين في ذاته.. إن الصينيين يفهمون هذا جيدًا.. آلهتهم وحوش تخيف..

نقر إينيكوف الزجاج بإصبعه ثم أكمل طريقه، يلوّح بقبعته.. وما إن ذهبت الريح بخطاه حتى أوى إلى منزله تدفعه الريح من الخلف ويأسف لماذا لم يحتفظ بإينيكوف ويذهب معه إلى مكان جميل يروحان عن نفسيهما.

يجب أن يعرف فتيات يعزفن على القيثارة.. دخل إلى ساحة منزله وإذا بإليزابيث تقف قرب البوابة.

- أخال البعض يتمشى في الحديقة، قالت بصوت شبه مسموع. أتسمع؟

- إنها الرياح، قال كليم.

- تركتونا إذن؟ سألت السيدة سبيفاك وهي تدفع باب المدخل.

- إن رئيس الكنيسة يزعجني، قال سامغين: ثم لا يستطيع أن يتمالك نفسه ليقص دائمًا اعتداء إينيكوف على كورفين..

من أين هو؟

سار في الممر الضيق.. كانت السيدة تتأمل الأعشاب وتحدث كليم عن كورفين كشخص لا يود الإفضاء بأسرار دفينة أو لا يرغب بالتحدث في مناسبة كهذه.. عرف كليم أن والد السيدة سبيفاك هو الذي أحضره إلى المنزل فتى صغيرًا.. ثم أخبرهم أنه كان يقود رجلًا أعمى قال إنه عمه، كان يعامله بقسوة وهذا مما دفعه إلى الهرب والاختباء في الغابة، ومن ثم وقع عرضة للأمراض؛ نظرًا لسوء التغذية.

كان في عامه الثامن عندما أحضره والدي.. وفي مثل هذا اليوم ولدت أنا. كانت والدتي امرأة تؤمن بالأرواح ولذلك ظنته مرسلًا إلينا من السماء وطلبت إلى والدي أن يحتفظ بالفتى.. كان صبيًّا متوحشًا.. صعب المراس.. وعندما أرادوا أن يعلموه كيف يكتب ويقرأ.. هرب من المنزل.. وحتى عامه الخامس عشر، بقي هكذا لم تفلح فيه النصائح.. وبعد أن عمل راعيًا في إحدى الأديرة عاد إلينا.. وعاد والدي ليهتم به. ولكن دون جدوى.. اتهمه الموجيك بخطف فتاة قاصر والاعتداء عليها.. وحاولوا القضاء عليه مرارًا عديدة.. ولجأ إلى الدير ثانية.. وعندما رأيته للمرة الأولى كان مبتدئًا، متجهمًا عبوسًا.. مرت عليه عشرون سنة وهو يعيش حياة كهذه.. مملوءة بالحركة. اشترك مع أنتونوف في مغامراته الخيالية التي أراد فيها إهداء الحبشة إلى روسيا، عمل في فرنسا، وأخيرًا أرسل إلى كوريا كمبعوث ديني.. مهمة غريبة. إنه وقح جدًّا، كما سبق وعرفته.. يتمتع بذاكرة قادرة على تذكر كل شيء.. وأخيرًا، أعرف أنه رجل مفيد.

- لا أعتقده هكذا.. تعبت من الرجال المفيدين.

- أصحيح ما تقول؟ سألت السيدة سبيفاك دون مبالاة.

- أجل.. أجاب بصوت فيه تحد بارز.. أظنه من أولئك الذين يدعون أنفسهم من خيرة البشرة.

- أحقًّا هذا؟ قالت المرأة وقد وقفت على عتبة الغرفة المضاءة بقنديل صغير وضع خصيصًا في الزاوية.. قد تكون صادقًا.. لكن حان وقت النوم الآن.

كانت الرياح تزداد شدة وتنزع الأوراق الصفراء من الأشجار.. وراحت الغيوم السوداء تتدافع بسرعة في السماء تحجب النجوم فترة وتبينها فترة أخرى.

- إليزابيث! أخبريني لماذا أنت ثورية؟

سألها سامغين فجأة.

خففت سيرها ونظرت إليه:

- سؤال غريب!

- أعرف..

- سؤال متأخر..

- صبياني.. إلخ.. لكن لماذا أنت هكذا؟

قالت وهي تسير أمامه الهوينا..

- أدعي أنني ثورية! لكن أنا إنسانة مقتنعة كليًّا بأن على الدولة أن تكافح لدفع الخطر عن ثقافتها.. عليها أن تناضل في سبيل حياة أفضل.. من أجل شعب أفضل.. وأظنك تدرك هذا جيدًا.

- إنها أفكار كوتزلوف، تمتم كليم قائلًا.

- ومع ذلك؟ سألت تشير إلى باب المدخل. أجل إن شيبان معلمي. هل لديك شك بهذا؟

ظن كليم أن في سؤالها ما يدل على السخرية! كان يود أن يتناقش معها ويقول لها بعض الكلمات النابية، بالإضافة إلى أنه كان يخاف البقاء وحده.. يخاف من مقابلة نفسه وجهًا لوجه.. ولكنها فتحت الباب واختفت وراءه متمنية له ليلة سعيدة.

دخل إلى غرفته وجلس بقرب النافذة المطلة على الشارع، ثم فتحها.. كان أمامه، في الجهة المقابلة، إنسان يحاول إشعال لفافة ولكن الريح يطفئها. سمع وقع خطوات تقترب. أجل لقد عرفه.. إنه إينيكوف.

- أين ستذهب؟ سأله سامغين..

- في الفضاء.. وأنت؟ هل يرافقك أحد؟ أتستطيع الصعود؟

- أجل.

بعد خمس دقائق كان إينيكوف يجلس في غرفة كليم يدخن سيجارة وأمامه كأس نبيذ حار، يتشكى ويقول:

- إن أعصابي مرهقة جدًّا.. أتجول في المدينة وكأنني إنسان أزهق روحًا ويخاف من توبيخ ضميره! غريب!

لم يكن منظر إينيكوف أنيقًا خلافًا لعادته.. إذ إن سامغين ظنه محمومًا عندما شاهده للوهلة الأولى:

- ماذا تفعل الآن؟

وتنفس إينيكوف متبرمًا وأضاف:

- قرأت مؤلفًا عن طرق إخماد الحرائق في الغابات، لكاتب عجوز.. أخلاقي وإنساني.. الوصايا العشر، القسم فوق الجبل، الصوت الهادئ.. هناك إنجيل من هذا النوع طبعته ووزعته مجلة «الحقل»..

سكب آخر ما تبقى من الزجاجة في كأسه وسأل فجأة:

- هل سبق لك ومررت بحالة كهذه؟

- أي حالة؟

- أن تسير في الطريق تتحدث بينما أنت نفسك لا تكف عن السؤال: أين سأذهب ولماذا؟

- مبهم؟

- فعلًا.

- لم يحدث لي شيء من هذا.. قال كليم بصوت ثابت وقد اعترته الدهشة. إن ما تقوله يثير دهشتي.. هل تعرف هذا البيت من الشعر القائل:

«الرجل يصرخ: أين أذهب؟

- «واليد..

- مجرد مغامرات بورجوازية.. أجاب إينيكوف، وأضاف، إنها الشعوذة السوداء... الخبيثة.

- الشعوذة السوداء! ماذا تريد أن تقول؟

سأل كليم وقد ازدادت دهشته.

- لا شيء.. إذ من السخيف أن يهتم الخونة والخبثاء لشؤون القوم ويهبون للدفاع عنهم.. أجاب وهو يفتش عن مكان يرمي فيه عقب لفافته.

كانت المنفضة أمام كليم، خلف الكتب.. ولكنه لم يود أن يدفعها إليه.

«لقد اعتاد ريوميدوف على الكذب، إن هذا متوحش».

قال في نفسه وهو يتأمل إينيكوف من وراء نظارته، ورمى بعقب سيجارته إلى الأرض فوقعت فوق رجل سامغين، فابتسم هذا الأخير بسخرية واستخفاف.

- هل تعتقد أنك تستطيع قتل رجل؟ سأل سامغين وتعجب هو نفسه من سؤاله، تدفعه الغيرة.. وكله شوق ليرى إينيكوف عاريًا، حقيقة.. يتخبط في الإجابة ولا يدري من أين يخرج..

تطلع إليه إينيكوف، فاغرًا فاه يتسلى بحك رأسه وسأله بدوره، مشمئزًا:

- أتعني كورفين؟

- ماذا تريد منه؟

- خبيث. كيف عرفت أنني أفكر بهذا..

- من نظرتي إليك..

- باسم الشيطان!! كم أنت متعجرف! قال إينيكوف، إن بإمكان أي شخص كان الإقدام على القتل.. وأنا كذلك أيضًا.. لست شقيًّا، على العموم.. إنما أحس، أحيانًا، بنار خضراء تشتعل في نفسي فأفقد السيطرة على أعصابي.

كان سامغين يصغي بكل انتباه ويتحين الفرصة ليرى هذا المتوحش يتزين بريش النعام والطاووس.. ولكن إينيكوف استمر يتحدث عن نفسه بكلمات مبهمة ومبطنة.. كشخص عديم المسؤولية.

- أتنظم الشعر دائمًا؟ سأل سامغين.

- أجل.. بالفعل.. الجيد منه والرديء، أجاب إينيكوف وهو لا يزال يقلب مقطع الورق بين يديه.. إن الأوزان تزعجني.. ما إن أبدأ بالنظم حتى أشعر بأنني أكذب.

كسر المقطع ووضعه في جيبه ليحتفظ بصورة المرأة الجميلة على قلادته وأضاف يقول:

- اعذريني.. إنه من نوع البرونز السيئ.. رخو جدًّا.. ويكثر فيه الزئبق.. من الممكن لحمه وهذا ما سأقوم به غدًا وأرجعه لك سليمًا معافى، كما كان.

تطلع حوله ورأى كتابًا فوق الطاولة فتناوله وراح يتفحصه ثم أعاده إلى مكانه.

- قرأت شوبنهاور بالألمانية مع بعض زملائي.. أحدهم متعطش للحقيقة.. يبحث عنها ولا يجدها في مدرسة جارسلاف. أتاني ليلة يتشكى ويقول -وكنا نقيم في نفس المنزل-: «إن شوبنهاور يؤكد أن الحقيقة عمل خاص بالقابلات وبواسطتها أنجب العقل فكرة العمل الصالح.. وهو نفسه القائل بأن الفضيلة والسعادة تختلفان في المبدأ وإن كان أخطأ عندما دمج فكرة العمل الصالح بمبادئ السعادة». كان صديقي يتألم بالفعل: كيف نصلح بين الفكرتين؟ لا تفكر بالمصالحة، قلت له: إن كل هذا لا يتعدى كونه خرافات.. غضب مني وارتعب.. عندئذ أرسلته إلى تومولين.. إنك تعرفه دون شك؟

أومأ سامغين برأسه إيجابًا.

- إنه يخترع الأحداث.

- السلس منها، أراد سامغين أن يجيب ولكنه عاد وصمت.

- هناك الكثير من الوقائع يمكننا أن نبني فوقها عشرات النظريات في التقدم والتطور.. في التصديق وإدانة الواقع. أود تحطيم فم التقدم.. إن فمه وقح وخبيث.

- هذا من روستورنفسكي ورجله السليط، قال كليم وهو يتطلع إلى إينيكوف، بفضول، يكسر بقايا البرونز.

- ماذا بعد؟ قال دون أن يرفع رأسه.. دوستويفسكي ذاته يدخل في التقدم والحقيقة..

- ويتهرب الناس منها! ألم تلاحظ هذا؟ إنهم يبتعدون. نظر إلى كليم وضرب الطاولة ببقايا مقطع الورق وسأل:

- هل شاهدت العمال يسقطون؟ وهل تعلم أن في رأسي فراغ واضح تمر فيه ذكراهم.

تقلص وجه إينيكوف.. ثم أغلق عينيه مما سمح لكليم بتأمل أهدابه الجميلة.

لم يجد شيئًا مصطنعًا في حديث إينيكوف.. شعر بأن هناك بعض الأفكار تلتقي مع أفكاره هو بالذات.. ومع ذلك قال في نفسه: «إنه متأفف ومتحيز».

- هناك من يقرع الباب. قال إينيكوف وهو يتطلع إلى المدخل.

أنصت كليم وسمع صرير الباب يفتح على مهل، وكان هناك هرة ما تتسلق قضبان الحديد.

- لصوص؟ سأل إينيكوف مبتسمًا.

اقترب كليم من النافذة وشاهد في ظلمة الساحة، إنسانًا ضخمًا يهبط من فوق البوابة.. وما إن وطأت رجلاه الأرض حتى تناول زيًّا كان يحمله فلبسه على عجل وأصبح جنديًّا.. اعترت الرهبة كليم وخرقت حتى عظامه.. لكنه قال بأمل:

- شيء يخص السيدة سبيفاك.

- حسنًا. قال إينيكوف. سأذهب إليها.

ترك كليم جالسًا في مكانه يعد الرجال الذين يتسللون إلى الحديقة. كانوا ثلاثة عشر.. «دزينة الشيطان» اتجه قسم منهم إلى الشقة وقسم آخر اكتفى بحراسة المدخل.

- لتذهب الخادمة وتفتح الباب، قرر كليم، ودون أن يدري لماذا أخفت نور القنديل واتجه إلى الباب يفتحه.

كان أول من صادفه رجلًا ضخمًا ذا لحية قصيرة، يحمل منشفة بيضاء بيده، فأزاح كليم من أمامه ليفسح الطريق لضابط أسود اللحية، يغطي عينيه بنظارة غامقة.. وسأل بصوت جهوري:

- السيد سامغين؟

أجاب كليم بإحناء رأسه.

- هل كان هذا الإنسان عندك؟

- هذا ما قلته لك منذ لحظات.. قال إينيكوف صارخًا في وجه الضابط.

- أهذه غرفتك؟

- حملة تفتيشية؟ سأل كليم وسعل.. وأحس بأن ريقه ينشف.

هز الضابط فكيه وأسرع مرافقه ينتزع المعطف الصوفي الكبير ويناوله المنشفة البيضاء.. وبعد أن رتب الضابط وضع نظارته سأل وكأنه يعرف سامغين منذ زمن بعيد:

- وماذا تريدها أن تكون؟

«يجب التروي» قال كليم في نفسه، يدس يديه في جيبه.. لقد شعر بأنه متضايق من وجودها.

انصرف الجنود إلى حملة تفتيشية واسعة في المنزل.. لم يتركوا شيئًا إلا ورموه في الأرض.. خزائن الكتب والثياب.. كما جلس الضابط أمام مكتب سامغين.. ففتح أدراج الطاولة وراح يعبث بمحتوياتها.. يتوقف أحيانًا لقراءة بعض العناوين لمقالات صحفية لسامغين.. نشرها منذ فترة طويلة في الصحف المحلية، وبينما الجنود يتصفحون مجموعة من الجرائد القديمة.. تطلع الضابط إلى إينيكوف ليسأله بلا مبالاة:

- أتخصك هذه المقالات؟

- أجل، وظهرت في إحدى الصحف المحلية.

- لقد قرأتها.. وهذا؟

- نقاط لمقالات قادمة.

أراد كليم أن يجيب بصوت أعلى من صوت إينيكوف.. لا بل بطريقة أجدى من طريقته.. لكن كان ينتظر أن تلصق به تهمة ويعتبر إنسانًا مشبوهًا.

وضع الضابط المقالات جانبًا يضرب فوقها بأصابعه كعجوز يتلاعب بلفافته.. ثم تنهد وعاد يستجوب إينيكوف:

- ماذا تعمل؟ تكتب! أين تكتب؟

- في غرفتي، وعلى مكتبي.. أجاب إينيكوف متشائمًا.. كان جالسًا على حافة النافذة يدخن وينفث سحابات غليونه إلى الخارج.

- أرجوك ألا تمزح، قال العسكري يهز رجليه بعصبية.. وقد علق حديد الحذاء في السجادة.. تحت الكرسي.. أراد كليم أن يخبر الضابط ولكنه عاد وتراجع متمالكًا نفسه، خوفًا من أن يعتبر إينيكوف هذه البادرة كخضوع وامتثال للأوامر.

«يجب ألا أغضب» عاد يقول في نفسه للمرة الثانية.. ولكن الغضب بدا واضحًا على محياه.. واستمر يتطلع إلى الضابط يحاول تخليص رجله من هذه «الورطة».

تناول أحد الجنود بعض الكتب من الخزانة يقرأ عناوينها المذهبة، بينما كان يراقب رفيقًا له انتهى من تخريب الأسرّة ويتطلع إلى الأرض تحتها، يعبث بالشراشف البيضاء.

وقف حارس الحي الليلي قرب المدخل يدخن غليونه وينفث سحب الدخان في الهواء.. فتقدم سامغين منه وأسر في أذنه:

- انزع حديد الحذاء من السجادة.

- شكرًا، قال الضابط عندما أحنى الجندي الركبة أمامه. «يا له من حمار.. سيظن إينيكوف أن الشكر موجه إليَّ؟» استمر إينيكوف جالسًا في مكانه يسند رأسه إلى زجاج النافذة يدخن شارد النظرات..

انحنى الضابط ونزع نظارته وراح يمسحها بمنديله كما فعل بالنسبة لأنفه وخديه ولحيته.. وتناول المنشفة البيضاء، وأخرج منها مجموعة من الأوراق وانكب فوقها يكتب على مهل مما أثار أعصاب المشاهدين.. ولكنها كانت مطمئنة تدل على أن نتائج الحملة لم تكن مهمة.

دخل مساعد رئيس البوليس وانحنى قرب الضابط يهمس شيئًا في أذنه.

- انظر بواريه، صرخ إينيكوف قائلًا.

تأهب الشرطي وضرب الطاولة بكعب السيف.. متصنعًا الغضب.. لكن الابتسامة كانت تشع من عينيه.. بينما قال الضابط دون أن يرفع رأسه:

- فومين، لنذهب.

وقف كليم، ووقف الضابط يتمتم بكلمات غامضة كما رجا كليم بأن يمضي تعهدًا على نفسه بألا يغادر المدينة في الوقت الحاضر.

وما إن انصرفوا حتى قفز إينيكوف من النافذة وقال:

- لنذهب إلى إليزابيث، حاول فتح النافذة فأبت وعاد يقول:

- هل سيعتقلونها؟ لديها طفل صغير.

- إنهم لا ينظرون إلى هذه الأمور. أجاب كليم وهو يقترب من النافذة. كان مسرورًا لأن التفتيش انتهى سريعًا، ولم يلاحظ إينيكوف ثورة أعصابه كما كان هناك عامل آخر لسروره.

- هل أنت صديق بواريه؟ سأل وهو يستعد للإجابة عن أسئلة إينيكوف.

نظر هذا إليه وسحب لفافة من علبته.. وضعها في فمه ولم يشعلها، لكنه اكتفى بتركها على حافة النافذة.

- هي.. دائمًا هادئة وباردة.. ابتدأ يقول والابتسامة الناعمة تتراقص فوق شفتيه.. وفجأة توقف عن الحديث واختفت الابتسامة..

- بواريه؟ قال بصوت عال واندفع يتحدث عنه بحيوية غير اعتيادية.

- إنه شقيق الرسام الشهير كاران دآش.. له أخ آخر يعمل ضابطًا على متن إحدى البواخر التجارية.. وتعمل أخته الوحيدة مغنية.. كما عمل هو أيضًا طباخًا لدى حاكم المقاطعة، وأخيرًا انتقل إلى سلك الشرطة..

ضم قبضته وقال بصوت يكاد يكون همسًا:

- أتظنهم يجدون شيئًا لديها؟

- لا أعرف أبدًا.

- إن بواريه هذا من الرجال السريعي الخاطر، ولعله أكثرهم إقدامًا. أضاف إينيكوف يقول بصوت جهوري، يفرك حواجبه وجبهته.. ومن خلال هذا كانت الأصوات المبهمة والهمهمات تسمع عالية من ساحة المنزل. سأعطيه دروسًا بالألمانية.. سنلعب البريدج.. فهو عازب ومهمل.. إذا زرت غرفته رأيت شمعة تحترق دائمًا أمام تمثال صغير للسيدة العذراء.. بينما زين جدرانها برسوم النساء العارية.. وارد فرنسا.. حتى تكاد تظنهن ملائكة دون أجنحة. يحتفظ كذلك بأعداد كثيرة من مجلة «العري» الباريسية. إنه خبيث ومدّعٍ..

أصاخ السمع ينصت إلى الجلبة المتزايدة في الساحة.

- ما أصعب الانتظار! قال وهو يبتعد عن النافذة..

توقف أمام المرآة يتطلع إلى الكتب ويضيف:

- نمت ليلة في منزله.. فاستيقظ منذ الصباح الباكر وركع أمام التمثال يصلي بحرارة وبصوت منخفض، يضرب فوق صدره بيديه، مستغفرًا الله، تائبًا.. كان يصلي ويبكي في آن واحد.. وها هم يذهبون. أتسمعهم؟

- أجل، فقد سمع وقع خطوات ثقيلة في الفناء وشاهد كليم الأطياف تتدافع من الباب تغادر المنزل.

- بدأت الأمور تنجلي، أضاف كليم وهو يسمع البواب يغلق الباب على مهل ويتصاعد الصرير إلى مسامعه فيؤذيه ويتأفف.. وغادر إينيكوف على مهل ووقف هو يتأمل الغرفة المبعثرة.. الكتب فوق الطاولة والأوراق تملأ الأرض.. كان يشعر بأن العسكر لوثوا الهواء النقي بأنفاسهم الكريهة.

«نظرة واحدة إلى الماضي تكفي» قال كليم في نفسه يتنفس الصعداء ويقترب من النافذة يفتحها. رأى السيدة سبيفاك ملتفة بغطاء حريري أخضر تذرع أرض الفناء ويداها خلف ظهرها، يسير إينيكوف إلى جانبها شاردًا يفكر.

- إن هذه لحماقات؟ قالت المرأة بصوت عال.

خرج كليم إلى الساحة ينضم إليهما.. وما إن شاهداه حتى انقطعا عن الحديث.. بينما اقترب منهما يعلن:

- سيولد النهار قريبًا.

تطلعت المرأة إلى السماء الباهتة.. كان وجهها منفعلًا متجهمًا حتى إن كليم لم يعرفه هكذا أبدًا.

- كان حري بك أن تنزعي شعره، قال إينيكوف فجأة ينصحها.. وتطلع إلى سامغين وأضاف: لقد فتش الحيوان في أوراقها وتلاعب بها.

- لنجلس، اقترحت السيدة سبيفاك ولم تتركه يكمل حديثه.. ثم جلست في أول السلم تسأل إينيكوف:

- هل كتبت هذه الحادثة إذن؟

حزر كليم أنها لا تود التكلم عن حملة التفتيش أمام إينيكوف.. تابع سيره في الفناء مصغيًا يفكر بأنه من المستحيل التعود على هذه المرأة إذ إنها تتبدل سريعًا..

سمع صياح الديكة ونباح كلاب الجيران.. وتطلع إلى الأفق فرآه يزداد انفراجًا.. ها هو الليل ينجلي.. تطرده أصوات الحيوانات الداجنة..

- مزقتها، كما تعرفين، وغاص كل شيء لديّ تحت الماء.. لا وجود للرجال أبدًا.. بل لا زالت أقوالهم مسجلة في ذاكرتي.. لا يزال لديّ أقوال عنهم وحسب.. قال إينيكوف بصوت حاد، يرتكز إلى حاجز السلم الأبيض يمضغ سيجارته ويتلاعب بها بين شفتيه.

- إنه من الصعب جدًّا وصف ثورة.. يجب الإحساس بها قبلًا.. علينا أن نكون قائد جيش وتكون لدينا المراكز الاستراتيجية..

هز منكبيه وألقى بشعره إلى الوراء ثم انحنى فوق إليزابيث وعاد الشعر من جديد يغطي وجهه.

- سأكتب واحدة ثانية.. يأتون بطفل ويطلبون إليه حراسة قطيع من الإوز وما أن يتعلق به حتى يحيلونه إلى حراسة الخيول وعلفها.. بعد ذلك يرسلونه إلى البحرية.. وفي إحدى المعارك يكسر ساقه. بعد هذا يعينونه حارسًا للغابات.. يود الزواج من فتاة يحبها ولكنه يفضل، أخيرًا، أرملة لها ولدان فيتزوجها رأفة بها.. تحبه وتنجب له طفلًا.. فيقرر حمله إلى الكنيسة القريبة.. وينصره.. وفي الطريق، تهب عاصفة ثلجية فيقضي الصغير من شدة البرد..

- هل اختلقت كل هذا؟ سألت السيدة سبيفاك على مهل.

- ليس كل شيء.. أضاف إينيكوف باقتضاب.. ولسنا ندري لماذا. قص عليّ هذا بواريه.. يعرف الكثير من القصص الخيالية ويحب دائمًا أن يخبرها للغير كلما اجتمع إليهم. لم أقرر بعد كيف أنتهي منها. دفن

الرجل الولد في الثلج ولم يعرف بعد ذلك إلى أي رجل.. أو لعله، وقد يئس من حياته، أقدم على عمل مخيف. ماذا تظنين؟

لم تجب السيدة سبيفاك إلا بكلمات أشد اقتضابًا من كلماته.

وتكشف الصباح عن الغيوم الكثيفة السوداء.. وسمعت صفارة طاحونة الهواء وأجابتها من الجهة المقابلة صفارة المنشرة قرب النهر.. وتعالى الضجيج من مصنع النفط ومطحن الدقيق.. كما بدأت خطوات الرجال تدب في الشارع العريض. كان كل شيء طبيعيًّا، عاديًّا، حتى كدت تخال حملة التفتيش حلمًا مضى ولم يكن حقيقة.. أو أنها كانت حدثًا غريبًا كالأحداث التي يرويها إينيكوف. ظهرت الخادمة مرتدية ثيابها البيضاء فوقفت في أعلى السلم وقالت تتطلع إلى السماء:

- لقد استيقظ الصغير إركادي.

نهضت السيدة سبيفاك بسرعة وغادرت المكان تجر أطراف ثوبها الثقيل فوق بلاط الفناء.

استدار إينيكوف نحوها وقال متمتمًا:

- وأنا كذلك، سأذهب.

دخل إلى منزله ثم خرج بعد دقائق ملتحفًا بمعطف سميك وقبعة رمادية. حيا كليم وشد على يده مودعًا وانصرف، بينما دخل الأول إلى منزله يفكر بشيء ما. كان يريد أن يخلع ثيابه وينام من جديد.. و لكن منظر السرير المبعثر جعله يقلع عن فكرته اشمئزازًا. عندها انصرف إلى ترتيب أوراقه في أدراج المكتب.. يحاول أن يقنع نفسه بأن حملة التفتيش هذه كانت أخيرة وسوف لا تليها حملات أخرى، ولكن العقل لم ينجح في إبعاد مثل هذه الأفكار عن مخيلته.

وصل عند الظهر إلى مكتب الجريدة.. وهناك شعر بارتياح كبير إذ شاهد الجميع يتطلعون إليه باستلطاف.. مشجع.. لقد عرفوا بأمر الحملة عند الليل وأن سمولين والراهب دولفانوف اعتقلا.

ثم أضاف درونوف:

- وكذلك عامل في منشرة راديف، وطالب صيدلي يهودي ومعلمة في مدرسة الأبرشية.

أخبرهم أن امرأة بوبوف، الميجور ذو اللحية السوداء، كانت تنام مع طبيب البوليس وأن زوجها يحتفظ بإرشاداته.

- إنه بخيل جدًّا.. يعهد بحذائه إلى عسكري كهل في الفرقة كي يسوي أمره.

- أجل، ها نحن منتصرون الآن، قال رئيس التحرير يشد على يد سامغين مصافحًا وعلى شفتيه ابتسامة كبيرة.

أعلن روبنسون، بقسوة، أنه تعرض لثلاث حملات في ليلة واحدة.. كما سجن ستة أشهر ونفي إلى أورجيم مدة سنة ونصف السنة..

- حاولت الشياطين افتراسي.. هناك وتبعني أولاد الأزقة يقذفونني بالحجارة..

وأضاف المحامي الأنيق برافدين، يهز كتفيه بأسى:

- إنه حظ كل الناس الشرفاء في روسيا.. مطاردين بين النهار والساعة..

حاول سامغين أن يقنع نفسه بأن نظرة أصدقائه إليه واعتباره بطلًا كانت تزيد في ارتباكه.. ولكنه شعر بأن هذا يجلب السرور العارم إلى نفسه القلقة..

لاحظ، بعد أيام، في الحدائق العامة والساحات، لاحظ أن الجميع يشيرون إليه بالأصابع.. يبتسمون له ببشر ويحيونه باحترام وتقدير.

- ماذا تراهم؟ هل هم عابثون؟ أم أنهم يظنونني سأضحي بنفسي كرامة لتوطيد الدستور؟

عاودته فكرة مقلقة: «أيمكن أن أدفع غاليًا ثمن هذا الانتباه الذي يولوني إياه؟». كان درونوف يثيره ويقلقه، يدور من حوله كالكلب الحنون، ، يسأل بإلحاح ممتزج بالخوف:

- مروا بك إذن؟

تجهم وجه كليم وعلته الدهشة، بينما تابع درونوف حديثه مغتبطًا يهمس:

- هل تعرف الراهب دولفانوف؟

- لا.. أجاب سامغين بصوت عال، لا أحب الرهبان.

تابع درونوف حديثه كمدرب فرقة مسرحية:

- وصلنا منذ برهة كاتب شاب.. إنه فتى شديد البأس.. هل تود أن أقدمه لك؟ لدينا كذلك فتاة لا زالت طالبة وتبشر بماركس..

رفض سامغين التعرف إلى الكاتب والفتاة وبدا له أن درونوف يشبه فلاحًا من مزارع فارافكا.. يود هو أيضًا أن يقوم بنفس الدور.. ولا يستطيع.

كان المؤرخ كوزلوف الرجل الوحيد، من معارف سامغين، الذي لم يهش له ويحسن وفادته.. إنما اكتفى بتحية مقتضبة، زامًّا شفتيه. استاء كليم كثيرًا من هذا التصرف غير المألوف لدى صديقه المؤرخ.. رآه يسير وبيده مظلة يغرز رأسها الحديدي في الأرض بتبرم وامتعاض ولا يتطلع إلى المارة بارتياح كعادته المألوفة.. مقطب الجبين وكأنه يحسبهم أجرموا بحقه وأساءوا التصرف نحوه.

عندما استدعى كليم إلى قيادة الدرك، ذهب كالبطل وفي نيته أن يتفوه بكلمات ذات وزن..

كان يقول لهم قبلًا:

- لا ترموا بي حيث لا أود أن أكون.

أو أي شيء آخر كهذا.

ارتدى أحسن ثيابه ولبس قفازيه، وحلق ذقنه باعتناء.

كانت رياح الخريف تصفر بين المنازل المبللة بالشتاء كأنها تحاول الاختفاء في أحدها وتطرد من السماء الغيوم السوداء الكثيفة لتكشف عن زرقة شفافة مغرية..

دخل كليم إلى القيادة.. وكان أول من استقبله الميجور بوبوف يجلس في زاوية وراء مكتب عريض قرب النافذة، يدخن لفافة من التبغ المعطر الممتاز.

- أرجوك أن تأخذ لنفسك مقعدًا وترتاح، قال يخاطب كليم وكأن معرفة قديمة تربطهما إلى بعض.

- إن الخريف، هذا العام، ينبئ بشتاء قاس جدًّا.

استطرد يقول نافخًا دخان لفافته من النافذة المفتوحة وراءه، ثم رمى بعقبها في منفضة أمامه، وراح يطفئه بقلم رصاصي، كان بيده.

- أرسلت بطلبك كي أسلمك أوراقك شخصيًّا- وضرب بيده فوق مجموعة منها أمامه دون أن يدفعها إلى سامغين- ثم أكمل بذات اللهجة:

- قرأت بعضها.. وها أنا أقول لك دون مجاملة: إنها غاية في الروعة والإفادة! أفكار ناضجة، وخاصة ما يدور حول الاعتدال في الأدب.

- فعلًا يا صديقي إنهم يكتبون شيئًا لا أعرف ما هو بالضبط.. شيئًا مبهمًا لا معنى له.. وضحكت كثيرًا من الأمثال التي أوردتها من كتاباتهم..

- ما رأيك؟

- يحاول الأبله أن يخدعني.. أن يشتريني، قال كليم في نفسه، يتطلع إلى سحب الدخان التي ينفثها محدثه بعصبية ظاهرة تتلوى فوق رأسه..

أزاح الميجور نظارته لمسحها بمنديله الأبيض وبانت عيناه رطبة بين أهداب منتفخة.. لا حواجب تحتها، ثم ابتسم فبانت أسنانه البيضاء واتسع وجهه وعرضت لحيته السوداء.. وضع منديله برفق فوق عينيه وقال على مهل يمضغ الكلمات بتباطؤ:

- أحببت كثيرًا تلك الملاحظة عن الفتاة التي تقول: «بماذا أورطت نفسك؟». وكذلك آراؤك في نفس الموضوع.. فهي شيقة ومفيدة في آن واحد.

- يا له من حيوان! قال سامغين في نفسه.. كمن عليه واجب وأداه..

كان يأمل أن يرى عيونًا سوداء قاسية أو تعبة على الأقل، لكن حصل ما لم يكن ينتظره.. عيون حية ولحية سوداء لتزيد في طبيعة الميجور الطيبة تنم عن حسن نواياه.. لتبرهن على البساطة التي تكتنفه..

علقت فوق المكتب، وراء الميجور بالذات، صورة كبيرة لإسكندر الثالث.. أما فوق الطاولة فلم يكن هناك سوى بعض الصحف المحلية ومقالات كليم كاملة، وبقربها مؤلف ضخم، «بالحديد والنار» لسنكويتر.

- هل يمكنني أن أعرف أسباب حملة التفتيش؟

سأل سامغين، وهنا عرف أن معاني البطولة التي كان يدعيها تلاشت تلقائيًّا.

أعاد الميجور نظارته فوق عينيه ومر بيده فوق أذنيه الصغيرتين وأجاب بصوت حار:

- أمر من موسكو. يظنون أن لك علاقات مشبوهة..

- إن هذه الحملة تضعني في حالة مزعجة، أوضح سامغين، وقال في نفسه (ما لي أشتكي بدل أن أحتج؟) انحنى جسم الميجور إلى أمام ولاصق صدره حافة المكتب فاهتزت الأوراق والقنديل المضاء أمامه... وضع يديه فوق المؤلف الكبير وقال بصوت خافت يمص بشفتيه ويحرك أهدابه:

- أجل.. أقدر موقفك، سأبعث إلى موسكو بتقرير مطمئن يريحك ويبعد عنك القلق، شرط ألا تقوم بنشاط آخر يجبرنا على تبديل موقفنا تجاهك!

وبحركة غير اعتيادية فضحها تقلص عضلات وجهه واتساع دائرة لحيته السوداء.. انفجر ضاحكًا.

- هـا.. ها.. ها..

دفع بعلبة اللفائف ناحية سامغين يسأله:

- هل تدخن؟ أنا أدخن كثيرًا.. انظر إلى شاربي.. كيف هو أصفر بفعل التدخين.

كان شاربه أسود باستثناء الشعيرات البيضاء المنتشرة هنا وهناك.

- أدخن بكثرة لكثرة الأعمال المثيرة التي تتراكم لديَّ كل يوم.. وفجأة شعر بقحة تمسك ببلعومه فتخلص منها بسعال قوي وعاد يتابع حديثه بصوت مطمئن:

- صراحة، ليس لدينا أي عذر ولا نبغي شيئًا من إثارة أعصاب الشباب.. ومع ذلك تجدنا دائمًا على اختلاف معهم.. إن للثوريين مبدأ آخر يقول: «لا قيمة للإنسان ما لم يكن منخرطًا في حزب ما».

أفاد أنه دخل إلى الجندية وغايته هي خدمة الثقافة والحفاظ عليها بظل النظام واستتباب الأمن.

- لا أظن أن هناك بلدًا بحاجة إلى التكاتف وتقارب الأفكار والعمل الواحد، كبلدنا.. أضاف بوبوف يمسح شاربه، ظنًّا منه أن سامغين فهم ما يرمي إليه.

فكر سامغين برهة وعاد يقول في نفسه:

- «إن ما قاله درونوف عنه وعن امرأته.. يجب أن يكون خاطئًا».

- الثوريون، يا عزيزي، يختبئون بين المنفيين.. كما لا أنكر أبدًا أن فيهم الكثير من أصحاب المبادئ الحية.. كما أنك لا تجهل دفاعهم، في أحيان كثيرة، عن المجرمين.. وكيف أن أخطاء بعضهم، في عز شبابهم، أفادت الدولة كثيرًا.

كان يعبر عن آرائه بصوت لا شائبة فيه يبعث على الصداقة والتآخي.. يتكلم وعيناه مغلقتان حتى تكاد تظن فارافكا يتحدث بنغم آخر.

وفي غرفة قريبة منه كان يسمع صوت موسيقى ناعمة.. مسح بوبوف فوق شاربيه وقال بافتخار:

- إنهما، ابنتي وزوجتي يعزفان على البيانو..

وبالأيدي الأربع.

تنفس بقوة كمن يود تنشق الموسيقى وأضاف:

- تتابع ابنتي دراسة الموسيقى في الكونسرفتوار وتتقن كثيرًا دروس السيدة سبيفاك عن تاريخ الموسيقى.. قل لي، أليست السيدة من عائلة كوتوزوف؟

وأجاب سامغين عفويًّا:

- إنها ابنة أحد القادة النبلاء في المقاطعة.. ولكنني أجهل اسمه.. أما كوتزوف فهو فلاح، ابن فلاح.

- صحيح: إنها نبيلة وتزوجت يهوديًّا!

- ولكن جده تنصر، أجاب كليم محاولًا الإنصات إلى المقطوعة الموسيقية..

- استحقت والدتك كل تقدير المدينة عندما أسست هذه المدرسة.. قال بوبوف دون مبالاة وعاد يسأل بنفس النغم:.

- منذ متى تعرفت إلى كوتزوف؟

تنبه سامغين أن عليه حسن التصرف والإجابة.. ولهذا تمركز جيدًا على كرسيه، وأجاب بأنه التقى به صدفة عندما كان يتناول طعامه لدى عائلة في بطرسبورج.

- فلاح؟ تنهد الميجور قائلًا ورفع إصبعه مهددًا ثم انحنى فوق المكتب من جديد يطيل عنقه باتجاه سامغين ويقول ساخرًا:

زهرة بسيطة برية

بين باقة من القرنفل

- سذاجة لا بعدها سذاجة يا عزيزي.. فاليهودي يبقى يهوديًّا ولو نصّرته بأطهر ماء في العالم.. أجل والموجيك كذلك يبقى على طباعه ولا يتأثر بشيء.. فالطبيعة لا تعرف المساواة.. قال بصوت منخفض.. وقور.

توقف بوبوف برهة عن الكلام.. يتلاعب بمقالات سامغين ويمسك لحيته باليد الأخرى.. ثم سأل:

- ومنذ تلك الفرصة، في بطرسبورج، ألم تجتمع بكوتزوف ثانية؟

تأخر سامغين بالجواب وكأنه أخذ على حين غرة، بينما انصرف الميجور إلى مسح نظارته وعينيه بمنديله..

- ألم تعد تلقاه؟

- أجل.. أجاب كليم.. رأيته ثانية.

ولكي يبدد الانزعاج والقلق راح يسأل بوبوف:

- هل يعتبر كوتزوف رجلًا خطيرًا؟

تفحص الميجور كليم في دقائق مرتبكة ثم أجاب بكلمات تنم عن سوء نية ووقاحة:

- يجب أن تعرف هذا بعد كل ما حصل لأخيك ديمتري.

- وأفنيكوف؟ ما رأيك به؟

لم يحب كليم التمادي بهذه المناقشات مع الميجور ولذلك حاول أن يتناساها.. لم يعد يتذكر سوى نصيحة الدركي صاحب اللحية السوداء والعيون المريضة:

- تحاشى دائمًا صيادي الرجال ولا تخف من قول الحقيقة.

خرج سامغين من مديرية الدرك مكتئبًا.. لم يكن ليتوقع ما حدث وتبين له أن تصرفه لم يكن سليمًا.. بل فيه خليط من الحماقة وقلة التهذيب الأخلاقي..

- فعلًا، لم أقل شيئًا كثيرًا.. ثم ماذا كان يمكنني أن أقول أكثر من هذا؟ هل أخطأت بوصف إينيكوف؟! إنهم جميعًا يعرفونه أكثر مني..

كان الضباب يلف المدينة والرطوبة تملأ الشوارع تذكره ببطرسبورج وكوتزوف.. إنه لا يحقد على هذا الأخير.. هذا ما عرفه عندما فكر به فجأة.. وليس هناك من عداء بينهما.. حتى ظن بأن هذا الرجل اختفى نهائيًّا من حياته.

وفي صباح اليوم الثاني عرف سامغين أن السيدة سبيفاك خضعت لتحقيق دقيق أجراه معها الجنرال نفسه، وليس الميجور بوبوف.

- لقد طرد سمولين المتواضع، طرده فيساريونوف من زنزانته..

- كيف عرفت؟ سأل كليم وهو يكاد لا يصدق..

- ما يهم؟ أجابت دون أن ترفع رأسها وتسأل كليم بدورها: أيهتم صاحبك الميجور كثيرًا بكوتزوف؟

- لا، أجاب كليم.

ثم وقفت تنظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه:

- حقيقة؟ شيء غريب..

- لماذا؟

- لأنه الشخص الوحيد الذي يقلقهم.

هز كليم كتفيه، فجأة، يحاول أن يكذب:

- ألا تظنين أيضًا.. بأنني أقلقهم أنا بدوري أيضًا؟ ثم سأل نفسه: «هل تصدقني أم لا؟».. لم تجبه بل انحنت مجددًا فوق ثوب كانت تخيطه.

- لا أود المزاح الآن.

عرف عندئذ أن السيدة سبيفاك لا تريد أن تبادله نفس الشعور ولذلك تجهم وجهها وزاغت نظراتها وبدت مرتبكة تود الانفراد بنفسها والراحة.. فغادر المكان يردد في ذاته: إنها إنسانة خبيثة وخطيرة في آن واحد. من تراه أخبرها بسلوك سمولين وتصرفاته؟ هل يعقل أنها ستلعب دورًا مهمًا في التحركات السرية؟

تنبه أصدقاؤه في المدينة وبدأوا يتخوفون.. يتحدثون في السياسة ويضنون كليم بفضولهم.. فيقولون إن الحملات لم تكن سوى مناورات قام بها الدرك؛ من تلقاء أنفسهم، ليجلبوا أنظار رؤسائهم إليهم.. أزعجته زيارات إينيكوف اليومية والفجائية.. بات لا يعرف متى يأتي ومتى يغادر.. وكذلك أفكار درونوف السخيفة.. كانت تثير حافظته وتنهك أعصابه وقواه العقلية.. سئم الحياة بينهم ولذلك قرر أن يترك المدينة ويغادر إلى موسكو قبل أن تصل والدته وفارافكا.

عاش في العاصمة طيلة فصل الشتاء يفكر بما قاله وأدلى به.. ويحاول في آن واحد أن يستنتج فيه ما هو مفيد له ويمكنه الاستناد إليه يومًا ما.. ولكن كل شيء بدا له عبثًا.. وكذلك وقفت حياته أمامه غابة عليه أن يسرح فيها ويكتشف بنفسه الطريق إلى التحرر من التناقضات والاختلافات النفسية..

كان يتطلع إلى الأحداث فوق المسرح و يهزأ من المشاهدين الذين يسرون بالتطلع إلى أحداث حياتهم تمر أمامهم.. يفرحون بمنظر آلامهم وإعدامهم قبل العراك المشترك بين الحب والحسد.. بين المأساة والجشع القبيح.. حتى في الجامعة، فهو لم يختلط بالطلبة بل يجلس بعيدًا عنهم يتأملهم.

- إنها المعارضة المثيرة، قال يخاطب نفسه ويتطلع إلى معاصريه كأخ كبير لهم ويبدو له أن اعتداله وعزلته توحيان إليهما الثقة والاحترام بشخصه.. كان يستمع إليهم كما يستمع إلى طلاب مدرسته.

كان يدون أفكاره بخط جميل وعلى ورق خاص للمراسلات، ناعم وأبيض ثم يجمعها في ملف واحد تسلمه كهدية من تيكافا.. ودون أن يعطيها عنوانًا خاصًّا، سجل بخط كبير على الصفحة الأولى هذه العبارة:

«إن الإنسان لا يشعر بالحرية.. إلا إذا كان وحيدًا».

كان يكتب قليلًا ويفكر بروية في كل عبارة يخطها.. لأنه يعلق أهمية كبيرة على كل سطر وكل كلمة.. ولا ينس أبدًا، أن هذه الملاحظات ستكون ذات نفع كبير له يومًا ما.

أخذ عن روبنسون خفة روحه.. وهذه هي أمثلة عن الملاحظات التي كان يدونها عن أساتذته:

«بدأ بوجاركوف يميل نحو الماركسية.. حتى يقال إنه حصان نصف أعمى».

«يبدو ماراكويف، منذ اعتقاله كالموظف الذي رقي دون علمه».

- لماذا أثير في نفسي مثل هذه الضجات الكلامية؟ وماذا أبغي من ورائها؟

استيقظ في نفسه تذوق المرأة.. كان يرتاح إلى ليديا منذ مدة ويذكر آخر مغامرة قام بها ليتغلب فيه الاشمئزاز على اللذة. كان يشعر بالانتقام كلما فكر بها وينتابه الألم.. ودان ينتقم منها لأنها لم تتجاوب معه وتلبي طلباته الجنسية.. نفرت منه وابتعدت عنه.. وهكذا جعلته ينفر من أي امرأة كانت.

أجل، الذوق هي الكلمة الصحيحة.. إذ تبين له بعد ليديا أن تصرفه نحو النساء، كان مقرونًا بالمرارة.

وهكذا كانت اللقاءات القليلة مع باربارا كافية لإقناعه. وجدها منذ أول شهر له في موسكو.. ومع أنه لم يستلطفها ويأنس إليها في البدء، إلا أن السرور الذي أبدته نحوه وهي تلقاه في إحدى المسارح الليلية، أدهشه:

- شيء مخجل، قالت ممسكة بيده، لقد وصل ولا يدعنا نراه.

كانت تتحدث بصوت واضح وكأن الناس المحيطين بها أصدقاء لها ولا تأبه لتعليقاتهم وأقاويلهم المختلفة.

رافقها سامغين بطيبة خاطر إلى منزلها، وفي الطريق روت له أحاديث مسلية عن ديوميدوف الذي كان يتردد دائمًا لزيارتها كلما حضر إلى موسكو، حدثته عن ماراكويف الذي سجن مدة ثلاثة عشر يومًا.. وكيف جاء الدرك يعتذرون له، بعد هذه المدة عما حصل. حدثته أيضًا عن الإخفاق الذي طالعها في مدرسة التمثيل.. وفي منزلها استقبلته أميفيغنا بفرح:

- أوه كم أصبح جميلًا.. ولحيته الصغيرة.. تتناسب مع وجهه وتزيده رجولة وبأسًا.

عرف سامغين كيف يتسلى مع باربارا ويستفيد منها. لقد نحل جسمها واستطال عنقها كما أن وجهها بدا صغيرًا ناعمًا، سرحت شعرها ورتبته بطريقة تتناسب خفة روحها.. كان يجد لذة وهو يتطلع إلى طيفها يتمايل بين رسمين كبيرين للسيد ريكاميه والسيد رولان بالإضافة إلى رسوم مشاهير النساء الأخريات.. وهذا مما سمح لسامغين بتحديد نفس باربارا.

كان يردد أن بودلير ثوريّ أكثر من نيكراسوف.. كما أن قصص موباسان تبرهن على الكذب والجزع المتفشي في المجتمع البورجوازي أكثر من المقالات السياسية.

كن يشعر بأن تقديراته تنقصها النعومة، وأن نكاته وقحة وغير موجهة حيث يقصد ولكنه لم يعبأ بهذا أبدًا.

كانت باربارا تصغي إليه وهي تعض شفتيها الناعمتين الشاحبتين بينما اختفت عيناها الصغيرتان وراء حواجب قصيرة ناعمة.. تمد عنقها مرتبكة كمن يحاول الإجابة أو يعدلها.. ولكنها لم تجب أبدًا، بل اكتفت بطرح الأسئلة على سامغين، بين الفترة والأخرى.. فيجد فيها سامغين سخافة في بعض الأحيان.. كانت تقول من وقت لآخر متنهدة:

- كم أنت معقد ولا تؤخذ.. يصعب التعامل معك.. إن الآخرين بالنسبة لك كمغنيي الأوبرا: نعرف مقدمًا أنهم ما أتوا إلا للغناء.. وماذا سيغنون.

تردد سامغين كثيرًا قبل أن يؤمن بصراحة مديحها، يشك، رغم قلة ذكائها بأنها تلعب دور تسلية.. ويظن هو أنه يزيدها تعقيدًا..

كان كليم يلقى عندها ماراكويف دائمًا.. يتصرف هذا الطالب وكأنه في بيته، يعاملها كالمحب الواثق من حبه.. ومن الجزاء الذي سيناله منها.. كانا يتخاطبان بصيغة المفرد ويمزحان كثيرًا.. ومع ذلك فقد شك

كليم بهما.. شك أن يكونا حبيبين، كان التناقض بارزًا في طباعهما مما جعل كليم يحكم على مثل هذه الصداقة وكأنها تغطية لخلافهما. كان يرى في كل هذا نوعًا من الأسى والشعور بالكبت. يود أن يرى شيئًا من التخاذل والانحلال العاطفي بدل هذا الرياء الفاضح.

كان ماركويف مندفعًا، حيويًّا، نشيطًا.. ينفعل بسهولة وشدة: يجيد التحدث عن الغرام ويتكلم بسرعة وحسن بديهة.. حتى إن حادثة كودينكا وما تركته من آثار لم تؤثر عليه أو تبدل من طباعه.. بعكس ما فعلته بالنسبة لبوجاركوف.. إذا أصبح هذا الأخير متجهم الوجه محدودب الظهر، يسير دائمًا مطأطئ الرأس لا ينظر إلى أحد.. ترك لحيته تطول ولم يعد ليهتم بمظهره الخارجي فبدا أكبر مما هو بعشر سنين على الأقل، يزور باربارا لفترات وجيزة، لا يعزف على القيثارة أبدًا ولا ينشد مع ماراكويف أجمل المحاورات الغرامية..

- أفضل أن أتعلم الألمانية، أجاب بارتباك يصعب شرحه، يرد على سامغين الذي كان يسأله عن قيثارته.

استاء كليم جدًّا عندما بلغه أن تلامذة ماراكويف يجتمعون كل مساء يوم أحد في غرفة ليديا.

«يصعب الإفلات منها» قال يخاطب نفسه، بارتياح، لكنه أخفى في داخله هذا الفضول الذي يحاول اكتشاف الرجال وتفهمهم بدل أن يداهمهم ويفضح أمرهم.. أجل، هذا ما دعا سامغين إلى الاهتمام بإعلان ماراكويف وتلامذته.

كان سامغين يشعر أن لدى هؤلاء، رغم مظاهرهم الخارجية، شيئًا عامًّا يزعجه.. يتألم من أسئلتهم المحرقة، ومن قلة ثقافتهم.. وكيف كانوا يستقبلون خطب ماراكويف بابتسامات عريضة وتأييد مطلق.

وجد سامغين في كل منهم ناحية مضحكة.. مع أنهم، جميعًا، يوحون بالإيمان بحياة مشتركة كغيرهم من الملايين من أبناء جنسهم.

تذكر كليم، أن ليديا كانت تخاف الخطاطيف دائمًا.. حتى بلغت الخامسة عشرة من عمرها.. وذات مساء كانت هذه الحيوانات المقرفة تتطاير في المساء، فوق الحديقة دون أن تحدث ضجة.. فقالت ليديا بصوت متباك:

- سوف لا تجد الخطاطيف ما تسرقه!

- ولكنها ليست هي النوع الذي تعنينه، حاول أن يشرح لها.. ولكنها استاءت منه وقالت غاضبة تضرب الأرض بكعب حذائها:

- اسكت، ليس هناك فارة واحدة تسرق!

هكذا كان تلامذة ماراكويف.. كالخطاطيف.. تجمعهم صفات واحدة.. ولديهم مبادئ مشتركة.. كانوا هكذا يعشعشون في الزوايا، بين الأشجار ويهربون إلى الظلمات خوفًا من نور النهار..

كانت غرفة ليديا الواسعة الرحبة مشبعة برائحة الدخان ويصعب التنفس فيها بارتياح.. بينما وقف في إحدى زواياها تحت النور الأخضر، وقف ماراكويف يلوح بيديه ويردد كلمة يطرب لسماعها الجميع:

- الشعب! الشعب.

وقف في الزاوية قرب النافذة المغلقة وقد أُسدل فوقها ستار كثيف من القماش الأزرق.. قفز من فوق كرسيه يضم قبضتيه إلى بعض ويضرب بذراعيه الهواء الكثيف، يهدد السقف بإصبعه، ينتعش بكلماته ذاتها، يتأرجح وذراعاه منفردتان، كالمصلوب. يدل وجهه الروسي الحقيقي وينم عن أنه «فتى جميل حذق».. كان يتلفظ بكلمات غريبة ويقص الأساطير المدهشة مما جعل سامغين يصغي إليه مدة دقيقتين على الأقل، يحسده على قوة تلاعبه وإثارته العواطف والأحاسيس.

كان الغضب والحزن، الإيمان والكبرياء، ترن كلها في صوته من وقت لآخر.. لم تكن بالأشياء الجديدة بالنسبة لكليم.. فقد اعتادها منذ تعرف إليه.. يوم كان صغيرًا.. لكن نغم الحب في هذه الكلمات كان أقوى ما أثر في نفس كليم.. الذي لم يجرؤ أن يشك بصدق هذا الشعور.. وخاصة عندما يشاهد مثل هذه السحابة ترتسم صادرة عن إيمان عميق على وجه ماراكويف.. وعندما عاد سامغين إلى نفسه، بعيدًا عن كل التأثيرات.. وجد أن السحابة لم تكن سوى نارًا اصطناعية وأن خطب ماراكويف ما هي إلا نوع من هذا أيضًا.

تمدد مستمعو ماراكويف فوق مقاعدهم.. يتطلعون إليه.. وبقي المستمع الأشقر يحدق فاغرًا فاه وتلمع في عينيه الدهشة والإعجاب.. كما انحدر بافل أود ينسف بسخرية فوق كرسيه يتأمل تفاعل وجه الخطيب وتحركات عضلاته.. وجلس فومين، يداه فوق ركبتيه يتأمل قطعة جليد تذوب بين أقدامه.

كان دونيف يصغي ويمد عنقه إلى الأمام وكأن ماراكويف يبعد عنه كثيرًا.. متمددًا فوق الكنبة ويده فوق كتف فاراسكين العريض، جاره العبوس، لاحظ كليم أنهما كانا يتهامسان عندما يعلو صوت ماراكويف ويشتد غضبه وبأسه، ويتجهم وجه صاحب المنشرة المضجر، يحرك شاربيه بتأفف.. بينما يلكز فومين رفيقه فاراسكين بمرفقه وركبته.. ويغمز دورتيف صديقه فومين مبتسمًا..

شك سامغين، باستثناء دونيف الباسم المحتال دائمًا، شك بأمر الجميع.. وأنهم لا يتهمون ما يرد في خطاب ماراكويف من قبح وتهجم.. كان دونيف يعامل رفيقه كطفل رغم أنه يكبره بخمسة عشر عامًا.. ينسب إليه الهزء وقلة التدبير ويتهمه بالثرثرة والفضول.

ذات يوم تعب ماراكويف فصمت وجلس يمسح العرق المتصبب عن وجهه.. وإذا برفيقهم، الراهب يقف ويعلن على الجميع:

- بصفتي الكهنوتية، وعلى الرغم من تنحيتي عن هذا المنصب ولست بنادم عليه.. وبصفتي أبًا لرجل شريف، ذهب ضحية حبه للإنسان، أؤكد وأشهد: أن كل ما قيل وسمعناه الآن حقيقة! هكذا أقول لكم.. أما الآن فاستمعوا إليَّ جيدًا..

سعل واستطرد بصوت منخفض:

- إن كل ما كان في القديم يصلح لخدمة الإنسان، ذهب بقوة الحيلة، يتكوّم متجمعًا في بيوتهم.. ولكي يعيش البعض براحة بال وضمير نراه يسخر الآخرين لخدمته وتلبية مطالبه وإشباع رغباته.. وها هم الآن يجمعون بين أيديهم كل الحاجيات الضرورية، كالأرض مثلًا.. ثم تراهم يسيئون الاستعمال كي يخدمون كبرياءهم وتسعفهم. يسنون الشرائع الباطلة ويسيّرون بها القوم.. ثم يهبون، بواسطتها واستنادًا إليها، يدافعون عن تصرفهم.. وغالبًا ما يلجأون إلى الظلم والاستبداد.

رفع ذراعه كمن يود أن يؤدي قسمًا، ثم تابع يقول:

- ليست هذه الكلمات المفعمة بالحقيقة من اختراعي.. لا، لم أخترع واحدة منها ولست أزيد عليها، ولو واحدة أيضًا.. قالها الغير، قبلي، وها أنا أرددها.. قيلت منذ ألف وخمسمائة سنة قبلنا.. في القرن الرابع الميلادي.. قالها أحد آباء الكنيسة.. الأب لاكاتش.. إذ كانوا يدعونه: شيشرون المسيحية. إن ما أوردته من أقواله موجود في مؤلفاته المطبوعة في سانت بطرسبورج عام 1848 وقدم لها الأرشمندريت(2) آفاكوم.. وهكذا نجا هذا المؤلف من أيدي السلطة ولعله رأى النور خطأ.. لأن الذين يحكموننا لا يدعون الحقيقة تمر إلا خطأ.. وبدون انتباه..

(2) الأرشمندريت: أرشمندريت معناها رئيس الدير. وقد تضاءلت رتبة الأرشمندريت إلى أن أصبح من بعد القرن العاشر لقباً شرفيًّا في بعض الأماكن يُعطى للإكليروس الأعزب تقديراً لخدماته .. (المترجم)

ثم أضاف بصوت عال:

- أكرر أن ما قلته لكم ليس حقيقتي أنا، لكنه حقيقة قديمة وأبدية وعلينا العودة إليها والتمسك بها أبدًا.

انحنى ثم جلس بينما استمر دونييف يغمز إلى فارسكينا ويقول:

- كم كان ماركسيًّا لاكتنسيف هذا؟

- وماذا بعد؟ سأل الشماس.. هذا يدل على أنهم تنبأوا بمولد ماركس قبل ألف وخمسمائة عام.

- ومبدئيًّا، يا أبتِ؟ سأل دونييف وقد لمعت عيناه، ثم أجابه الشماس بصوت أكثر قوة:

- يلزمنا السلاح، وأين يمكننا أن نجده؟

غمز بعينيه كرجل استيقظ من نومه لتوه أو كآخر أفرط في الشراب فطالت سهرته وجاءوا يوقظونه باكرًا.. عطس الرفيق الأشقر وغطى أنفه ووجهه بمنديله وازداد ارتخاء في مقعده.

ارتاح ماراكويف وعاد يتابع حديثه.. ولاحظ كليم أن موعظة الراهب لم تلق أثرًا في نفس الخطيب، وبدا عدم الاهتمام به ظاهرًا لديه.

- يجب علينا أن نقاتل من أجل حرية القتال. من أجل حق الدفاع عن حقوق الإنسان، قال ماراكويف يضرب الهواء بكم قميصه.. إذا وافقنا على أقوال ماركس فهذا يعني أنه يجب إرسال الفلاحين إلى المصانع نسلقهم في الأفران الصناعية.

- هذا لا يعنيك أنت بالذات، قال الشماس صارخًا، وهو يبتعد عن جاره، الفتى الأشقر.

أنهى ماراكويف خطابه وانتقاداته إلى الماركسية ثم صافح الذاهبين بحرارة ومد يده أيضًا إلى الشماس، ولكن هذا دفعه إلى الحائط وراح ينصحه بتجهم.

- أيها الرفيق بيتر، قل لصاحب الأنف الأفطس هذا، ألا يكون فضوليًّا، قل له ألا يسأل من نكون ومن أين أتينا.. أم تراه يود تسجيلنا جميعًا على لائحته السوداء؟ سأسر جدًّا برؤيتكم ثانية.

انحنى وخرج بينما انصرف ماراكويف وكليم إلى تناول الشاي في مقصورة باربارا.

كانت هذه تلتف برداء حريري جميل وتخفي نصف عينيها.. وما إن رأت كليم حتى قالت بحيرة ظنها واهية:

- إن الثوري بالنسبة لي، لا يتعدى كونه شاعرًا يحمل نار المحبة في قلبه. وهنا، الشماس؟

- شيء ساذج يا عزيزتي: أجاب ماراكويف مبتسمًا.. ثم تحدث عن توماس، كاهن بائس يعمل مساعدًا لبوغاتشف وكذلك عن الأباتي ألكسندر كافاكجي وود الانتقال إلى التحدث عن رهبان المدة الأخيرة من الحرب وخاصة الألمان منهم، قاطعت حديثه وقالت:

- إنني أجد في الشماس شيئًا مضحكًا.. وآخر له نفس الأنف وقد سجل على جواز سفره كعلامة فارقة.. سيتعرف إليه البوليس، ويأخذونه من أنفه.

ضحك ماراكويف، من جديد، بينما قال كليم:

- أجل يتوجب على الثوري أن يكون حياديًّا.

ورغم السخرية التي أراد أن يضعها في هذه الملاحظة، أتى صوته ضعيفًا لا تعبير فيه مطلقًا.

- إن رائحة الماركسية تفوح من هذا، قال ماراكويف مستعدًا للنقاش، وبينما كان كليم يتطلع إلى كأسه دون أن يجيب، صرخ يفرك يديه:

- إن روسيا تستيقظ!

- أيعقل أن تستمر هكذا تهذي في نومها؟ أراد كليم أن يسأل، ولكنه امتنع عن هذا، عندما شاهد وجه ماراكويف المتشائم دومًا، وأن ليس هناك ما يؤثر على هذا الديك الملعون.

وضعت بربارا كأسها أمامها وقالت بتحد:

- لا أعرف أبدًا أيكون صحيحًا أن تستيقظ روسيا، ولكنك تتحدث باستخفاف عن تلامذتك.. هكذا كان العم كريزانف يتحدث عن الصيد: كانت السمكة الكبيرة تتعارك مع السنارة وتفلت منها.. بينما يعود هو إلى البيت، يجر أذيال الخيبة.

نظر سامغين إلى ماراكويف يبتسم ساخرًا ظنًّا منه أن الطالب سيغتاظ ولكنه انفجر ضاحكًا..

وذات يوم أحد، وجد كليم الشماس في منزل بربارا.. كان يتلذذ بشرب الشاي ويصغي كطالب مجتهد. كان ماراكويف يثني على الرسائل التاريخية للافروف.. وعندما انتهى، أبعد الشماس الكأس الفارغة من أمامه وقال محاولًا التخلي عن صوته الهادئ:

- منذ حداثة سني، ويوم كنت في الدير وأنا أشك ولا أومن بالحكمة المرتجلة، على الرغم من أنني قرأت أشياء منها ولا زلت أقرأ.. وخاصة الروايات الطويلة.. وبصفة عامة في رأيي، وأكيد منه، أن الخطأ يكمن في اعتبارنا الكتاب كعكاز.. نضع الكتاب، تحت إبطنا، نحن الكهنة ونقول له: سر في الطريق الذي نسير فيه نحن الحكماء طريق سرناه منذ عشرات القرون ولم نكتشفه بعد.. وأظننا لا نسير في الطريق الصواب، لا.. يجب مراجعة كل الكتب.. ائتوني بالعبارات التي يتحدثون فيها عن الكنيسة.. التي لم توجد إلا لقيادة الإنسان في الطريق الصواب.. نحو إله ما، وجد لعذاب الرجل وليس لسعادته..

- ألا تعتقد إذن بوجود الله؟ سألت باربارا بسرور يصعب تفسيره.

- لا أومن بإله يصر على وجود الألوهية.. أفضل الإيمان بالطبيعة.. التي لا تتطلب البراهين.. كما بينه السيد داروين. أما بالنسبة للسيد ليبنتز الذي حاول البرهان على أن الوجود يتناسب تمامًا مع الوجود الإلهي وأن التناسب مبرهن تمامًا ولا يقبل الجدل حسب ما جاء في كتاب جوب، أن ليبنتز هذا لا أظنه إلا إنسانًا ألمانيًّا شاذًّا.. وليس هو المحق بل هنري هين الذي اعتبر نفس الكتاب «مركزًا للتشاؤم والشك».

وعاد الشماس يقول غاضبًا وقد اشتعل الحماس فيه:

- كتب المرحوم ابني بحثًا قصيرًا يدحض فيه آراء ليبنتز هذا، وعلى العموم كل إصرار على وجود الله كعامل يؤلف هستيرية كاملة ومحاولة فاشلة تضر بالفكرة الداعية إلى التقارب والتصالح.

لاحظ سامغين أن ماراكويف، مثله بدأ يتذمر من فلسفة الراهب هذه، إذ راح يضرب بيده فوق الطاولة، يحاول الابتداء بحديثه من جديد.. كانت بربارا تصغي بانتباه.. وسلطت نظراتها على الفيلسوف تكن له شرًّا.. ثم تقدمت من كليم وهمست في أذنه:

- يا له من وجه انتقامي!

نزل الشماس عن المنبر، كمن ينزل عن جبل مرتفع وأخفض صوته ليضيف:

- إن الكثير من ذلك الذي نسميه سوءًا، ليس هو إلا مقاومة للشر ويتأتى من الحقد الذي يوحيه.

لم يقاطع خطبته إلا وصول ديوميدوف الذي ظهر فجأة عند الباب دون ضجة.. يحمل قبعته بيده ويتطلع من حوله وكأنه في مكان لم يعرفه بعد أو يألف الدخول إليه.. تململ ماراكويف في مقعده يبدي سرورًا بالغًا بالقادم الجديد، بينما تطلع الشماس إلى ديوميدوف يتأمله ويختم خطابه قائلًا:

- ها هو؟

وبعد أن صافح ديوميدوف بصمت وشد على يده بحرارة، سأل كليم الشماس إذا ما كان يتردد من حين لآخر إلى ليتوف.

- طبعًا، لكن ليس دائمًا.

- ألا يزال يشرب؟

- كثيرًا.. بعكسي أنا فقد انقطعت عن الشراب منذ وفاة ولدي.. فالكحول بات يقرفني.. كما أن مركزه بالذات يسيء إليَّ.. عرض عليَّ أن أكون بوابًا.. وعلى الرغم من أنني فقدت مركزي الكبير، فلست على استعداد لقبول مثل هذه الأعمال.. كما أنني وجدت عملًا يليق بي وسأتسلمه منذ أول أبريل القادم.

اعتبر كليم نفسه مرتاحًا وقد قام بواجبه تجاه الشماس، فالتفت الآن يتفحص ديوميدوف.

لقد ترك هذا الأخير شعره يسترسل فوق كتفيه.. شحب وجهه وكسته سحنة من القلق، بينما دلت شخصيته ونمَّت عن تعب جسدي.. كان وجهه مستديرًا.. تغطي لحيته شعيرات صفراء قصيرة، يحدق طيلة حديثه في وجه من يتحدث إليه، ترتعش أهدابه وكلما استمر بالتحديق ضعف بصره وصعب عليه التمييز بين الأشياء.. يدلك يده اليمنى ويسأل:

- كيف قلت هذا؟

كان يتحدث بصوت عالٍ كمن يلقي قطعة شعرية وينتظر جالسًا كمن ينتظر أمرًا بالوقوف.

- قف!

روت باربارا يومًا فقالت إنها تركته يدخل على غير قصد، إلى غرفة ليديا حيث كان ماراكويف يجلس إلى تلاميذه ثم خرج بعد ذلك يطرق الباب وراءه بعنف.. وطلب إليها بعد ذلك، غاضبًا:

- لماذا تسمحين للقوم بالدخول إليها؟ سيلوثون جوها بالدخان المسموم ولا يعد بالإمكان البقاء فيها.

وفي يوم آخر، وبعد أن حدق في الرسوم المعلقة سألها مستعلمًا:

- أين رسم ليديا؟

وعندما أجابته بأن ليديا لم تصبح بعد من الشهيرات، أعلن:

- مشاهير؟ لا لزوم لذلك.. إنهم كرجال البوليس.. لا نجني منهم سوى المتاعب.

وأضاف يتنهد:

- من يدري؟ فقد تصبح ليديا من الشهيرات يومًا ما.

شرب ديوميدوف كوب الحليب وأخذ قطعة سكر يمضغها على مهل ويمر بيده يتلاعب بأطراف شاربيه الصفراوين كمن يحاول إلصاقهما ببعض.. كان يصغي إلى الحوار القائم بين الشماس وماراكويف.. وفجأة قال بلهجة المؤنب:

- تتحدثون دائمًا عن نفس الشيء! كيف لا تدركون أن كل المصائب ستأتيه من هناك.. من التجمع الذي نريده في العائلة والقرابة والمجموعة بكاملها، فلا الكنائس ولا الأحزاب يمكنهما أن يؤديا لكم خدمة واحدة.

-ومع ذلك، يا سيمون، تود اعتناق المذاهب؟ قال الشماس يحاول نصحه.

- اشرب المزيد من الحليب.. فهو أحسن عمل تقوم به.

غضب ديوميدوف وغمز بعينيه وعلته شحبة الاصفرار وأخذ يهز رأسه.. ولم يكن سامغين قد شاهده بعد في حالة ثورة كهذه.

- إن الوحدة في إنسان واحد! صرخ منفعلًا يومئ بيده إلى الشماس. وأجابه هذا:

- لا نضغط على البلعوم عندما نشد أصابعنا إلى بعض.

- إن الوحدة لا تكون في المجموعة.. ولن تكونه.. مفهوم؟ وأنت على خطأ كبير عندما تدفع الناس إلى الخطيئة.

ضحك ماراكويف وكذلك فعلت باربارا.. بينما أحس سامغين بشفقة تعتريه نحو ديوميدوف.. الذي نهض من فوق كرسيه ودفعه بعيدًا برجله.. يضم يديه إلى صدره ويتابع متلعثمًا بالحديث:

- شاهدتهم يقودون الموقوفين إلى المحطة.. وسمعت صلصلة الحديد في أيديهم.. أجل هكذا أنت.. تهيئ السلاسل من جديد لتقييد النفس!

- يا للسخرية، قال ماراكويف ممتعضًا.. بينما ابتعد ديوميدوف عن طاولته واتجه إلى الباب.. وقبل أن يغادر تلفت إلى الوراء وقال:

- إنها خطيئة لا تغتفر بالنسبة للنفس الإنسانية.. وستندم على فعلتك هذه!

- إن مثل هذه العاصفة لا تصدر عن غيمة خفيفة، أجاب الشماس ونظر إلى باربارا يمد إليها كأسه الفارغة، عابسًا:

- أخطأت بإثارتك إياه دون توقف. قالت:

- لديَّ ما يوجب ذلك، أضاف ويده فوق ذقنه الحليقة: لا أريد أن أقصها عليك.. لكن سأخبرك بها، قال يتطلع إلى ماراكويف المتجهم يذرع أرض الغرفة..

- لا تثق بمظهره الفاشل.. إنه يسيء، فرغم ضعفه باستطاعته أن يؤثر فيك..

أوحت كلمات الشماس وتصرفه المشين، إلى كليم بأفكار سيئة.. إذ ود لو نال المتحدث بضربة قاسية تسكته إلى الأبد.

- جاءني هذا البريء منذ عشرة أيام يقنعني كي أقلع عن محادثاتي مع العمال وأقنعكم أنتم بالذات.. كان يحاول أن يؤثر عليَّ بالفعل. لم أفهم حالته في البدء ولذلك رحت أحدثه بجدية.. وإذا به يخر راكعًا أمامي ويتابع رجاءه وتوسلاته.. والدمع يجول في مآقيه؛ أجل، كان كالمرأة التي تحاول إقناع زوجها بالإقلاع

عن الشرب إلى الأبد. طبعًا، كان يردد نفس الكلام في كل المرات: إن رغبة تجميع بني الإنسان حول العدالة تؤدي إلى الخراب.. وقال إنه يجب إحراق الثوريين وذر رمادهم في الريح.. كما فعلوا برماد القيصر ديمتري.

كان العرق يتصبب من جبين الشماس ومن صدغيه.. وعيناه ترتجفان وتجولان في محجريهما من قوة الانفعال والتأثر.

- يا للوجه القبيح، قال سامغين في نفسه.

- لقد أدمى قلبي وهزني حتى الأعماق.. قال الشماس، ثم نام عندي طيلة الليل وكأنه في حالة هذيان متواصل. وفي الصباح نهض يتسامح مني ويطلب المغفرة، بدا لي خجولًا، نادمًا على ما فعله البارحة.. ولكن..

توقف الشماس عن الكلام ووضع يديه فوق الطاولة كأنه يلتمس أوتار عود، ثم أضاف بصوت منخفض يكاد لا يُسمع:

- ولكن بإمكانه أن يذهب إلى الجندية وهو في حالة هذيان متزايد..

ضحك كليم في سره.. كان مسليًّا هذا المشهد.. أعجبه أن يرى ماراكويف يتأثر بقصة الشماس وقد وقف الأول في وسط الغرفة يحدق ويحك رأسه بيده ويتطلع بأصابع اليد الأخرى، متجعد الوجه يتمتم:

- آه، ليحمله الشيطان! ها هي قصة جديدة الآن..

- ما العمل؟ ولماذا لم يقل شيئًا؟

وما إن تطلع إلى كليم حتى سمع باربارا تعلن بتحدٍّ:

- إن لطاهيتي علاقات وثيقة مع البوليس.

- سوف لا تساعد بشيء، يجب تغيير المكان، أضاف الشماس يقول.. وحدق في صاحبة المنزل بنظرات غريبة تنم عن أشياء دفينة لم نفهمها.. وكأنه يتطلع إلى شيء بعيد..

تأمله سامغين بسرور ما، بينما تململت باربارا من نظراته.. كانت تتلفت من حين إلى آخر، عندما يتكلم الشماس أو ماراكويف، تتلفت وتحك أنفها باشمئزاز كمن يشتم رائحة كريهة.. ولعلها كانت تقوم بهذا لتلفت نظر سامغين إلى حركاتها الساخرة.. قالت بعد الكلمات الحماسية التي تلفظ بها ماراكويف، قالت أشياء حول «الانفعال الذي يتركه في الكبد ذلك الشعب وقد فشل في حبه».

تذكر كليم عندئذ أنه قرأ شيئًا من هذا في إحدى روايات فيكتور بورنين.

وعندما رجع إلى بيته قال في نفسه إن ماراكويف سيعتقل عما قريب وكذلك باربارا، ولربما قر بهما هذا أكثر من الثوريين.

- هكذا يتزايد عدد الذين يحبذون أفكارهم ويساعدونهم، أحيانًا، لا شعوريًّا.

ولعل شيئًا من هذا القبيل حصل للسيدة سبيفاك..

عندئذ قرر أنه لا لزوم لزيارتها مرة أخرى والامتناع عن الذهاب إليها مطلقًا وقد أشبع رغباته الآن.

وفي الشارع الطويل المظلم لحق به الشماس.. انحنى هذا الأخير ونظر إليه دون أن يتفوه بكلمة واحدة وسار إلى جانبه يغرق يديه في جيوبه الواسعة يحارب الريح القاسية وقد راحت تتلاعب بثوبه الأسود.. وفجأة طلب إلى كليم وهو يهمس بأذنه:

- ألا تعرف، صدفة، أين هو ستيفان كوتزوف الآن؟

هز كليم كتفيه بامتعاض وأسرع خطاه.. بعد أن أجاب:

- أوقِف..

كان من المستحيل التخلص من الشماس في مكان كهذا.. وعاد الأخير يضيف بعد أن تفرس جيدًا في ملامح كليم:

- لقد أطلق سراحه بكفالة.

- لا أعرف أين هو، تمتم سامغين يجيب ويتطلع من حوله بحثًا عن مكان يمكنه التخلص منه.. لم يكن هناك من شوارع جانبية، ولذلك استمر الشماس يرافقه ويضيف:

- إذن، سمعته يقول: يجب إحراقهم وذر رمادهم في الريح؟ نعم، ومع ذلك فأفكاره صبيانية خالصة.. ما قولك؟ إن داروين لا يخطئ أليس كذلك؟

- ما دخل داروين هنا أيها الأبله؟ قال كليم في نفسه، وأضاف يجيب بلهجة المهذب:

- عرفت امرأة جعلها داروين مجنونة.

- معقول.. وافق الشماس بهز برأسه. لقد رفض أن أومن به يوم كنت في الدير، قال في نفسه.. إذ طلبوا إلينا أن نرفضه.. فرفضناه.

- ولماذا تحتاج كوتوزوف؟ سأل كليم دون أن ينتظر جوابًا.. ولكن الشماس قال:

- له نفس المعتقدات التي كانت لابني.. وعلى العموم..

- سأذهب من هنا.. قال كليم وهو يقف عند أول شارع صغير وصل إليه يتفرع عن الشارع الكبير.. مد الشماس يده مصافحًا بينما رفع قبعته باليد الأخرى يحييه:

- حظًا سعيدًا.

استمر الثلج يتساقط بتكاسل طيلة ذلك اليوم.. فغطى الغابات وسطوح المنازل وبت تشعر بجو يبعث على الطمأنينة في القلب.. جو تعطره رائحة أشبه برائحة الخيار.. وبينما كان سامغين يتمشى بخطى وئيدة فوق الثلج كان يفكر في نفسه ويقول:

- يظنني هؤلاء القوم واحدًا منهم.. إنها علامة تدل على مدى حماقتهم.. لو أردت لتمكنت من القيام بدور مهم بينهم.. وهل سيبوح ديوميدوف بأسرارهم ويفشي بهم إلى السلطة؟ كان عليه أن يفعل.. بكل تأكيد.. يجب ألا أذهب مطلقًا إلى باربارا.

بينما كان يفكر بهذا، كانت وجوه تلامذة ماراكويف تمر أمامه؛ أسمجها وجه الشماس نفسه. إنه عجوز تقريبًا.. لا يعرف أن هؤلاء القوم يحتقرونه وهنا تبرز حماقتهم مرة ثانية.. عليه أن يكون مقربًا جدًّا إليهم.. يتفهم الطالب.. وهنا فكر كليم فيم يجعل الشماس محتقرًا إلى درجة كهذه.. أو أن مرد ذلك إلى كونه من طبقة الكهنوت وقد انخرط الآن في سلك الثوريين.

شاهد سامغين نفسه منذ لحظات أنه أمام حقل شديد للتأمل والتفكير.. لاحظ أن عيون بريس المستديرة، المخملية، تحدق إليه كثيرًا وبانتباه زائد.. كان يعجب بهذا الطالب الذي ليس لديه ما يقربه من هؤلاء القوم.. كان يفكر كيف يمكن لابن تاجر كبير أن ينفصل عن ثروة أبيه ويندفع مبشرًا بالماركسية، أحيانًا يناقش ماراكويف وغيره من الشعبيين، في أروقة الجامعة ويدلي بأحاديث غريبة وخطيرة.. سمعه يقول:

- تذكروا هارزن ذلك الفتى الروسي الشاب يوم وقف يهدد القيصر بفراعة(3) الفلاح.. وعندما ندم على فعلته تطلع إلى القيصر يعتذر قائلًا: «لقد انتصرت يا غاليلن» ثم يجب أن تفكروا أن توبته كانت ساذجة ومتوقعة.. أؤكد لكم أن السذاجة هي العامل الأول في الشعبية وخاصة عندما يهب هؤلاء يبشرون بالبوغاتشيرية، الثورة العمالية.

(3) فرَّاعة: فأس كبيرة لقطع الحطب والشجر والأخشاب.

كان بريس يتلفظ بأقوال كهذه في مناسبات عديدة.. وهذا مما كان يثير حفيظة سامغين، وفضوله.

وذات يوم، بعد المحاضرة، اقترح بريس على كليم:

- تعال إلى منزلي، وسنتحدث هناك.

يقطن بريس في شارع هادئ، في الدور الثاني في أحد الفنادق الصغيرة.. بدا الشارع بمنازله صورة طبق الأصل من أمثاله، الشوارع الموسكوفية.. قرع كليم البوابة الحديدية وأتت امرأة عجوز تفتح وتستقبله.. كان يأمل أن يرى بريس يقيم في غرفة حسنة الهندام مثله.. ولكن هذا الأخير كان يعيش في حجرة تطل نوافذها على أحد المستودعات الكبيرة.. تغطي جدرانها رفوف الكتب. أثر التناقض القائم بين المرأة المسؤولة عن المنزل وجو الغرفة المبعثرة، كثيرًا في نفس كليم وأقلقه.

وجاءت امرأة ثانية تحمل طبقًا عليه أكواب الشاي.

- لم يعد لدينا حامض، قالت بسرور بان على محياها الجميل.. لم يجب بل..

- يظهر لي أنهم قاموا بجولة تفتيشية في منزلكم؟

- أجل.. حصل سوء تفاهم، أجاب وأخذ يصغي إلى مديح يطريه عليه بريس يوم كان الأول في الحرف وكيف اشترك في «المعارك الضارية بين الشعبيين والماركسيين» معارك حامية الوطيس. قال بريس وهو يحك جبهته ويقطب ما بين حاجبيه. ثم أضاف بشيء من السخرية:

- ولكن الأولاد الذين يلعبون بالعظام ولاعبي الورق يبدون أكثر حماسًا واندفاعًا.

ابتسم كليم دون أن يكف عن النظر إلى بريق عيني محدثه وتساؤله المُلِحّ، وجد في لهجة بريس ذلك الشعور بالتفوق كتفوق المعلم على تلميذه.. وتذكر إحدى العبارات القديمة ثم قال:

- إن ذلك لا ينطبق على بريس.. ومع هذا فهو يبدو إنسانًا غريبًا. كان بريس يتحدث عن النيتشية كردة فعل ضد الماركسية.. يعرب عن آرائه بصوت منخفض كمن يبوح بأسرار لا يعرفها سواه.

- كان ذلك في الأزمنة القديمة، إثر إبدال طبقة بأخرى.. عندها تعقدت مسائل الوجود.. بقي وجهه العبوس لا يتحرك.. باستثناء أهدابه تصعد وتهبط كلما تلفظ بكلماته أو بدا عليه الانفعال واضحًا. لم يجب سامغين بشيء، بل استمر ساكتًا يفكر ويتشوق كي ينتهي هذا الطالب من حديثه ويبلغ النقطة التي يود أن يشير إليها ويعبر عنها.

- إننا نشاهد تفاعل الأحداث يسير بسرعة في ألمانيا وتتوافر الشروط الأساسية للانتقال إلى الاشتراكية بصورة مذهلة- بالتصور ودون اصطدام دموي- قال بريس بحماس وكأنه أراد بذلك تطمين سامغين.. ملايين من أصوات العمال الألمان، ثقافة الشعب التي لا تقبل الجدل، وقوة جهاز الحرب، أضاف يكمل ملاحظته ويفرك بيديه. لقد تشرب الألمان والأنجلو-ساكسون فكرة التصور بسرعة مدهشة للغاية.. وباتت عاملًا مكملًا لهم، عضوًا لا يمكن بتره والاستغناء عنه.

كل ما قاله بريس كان هو يعرفه تقريبًا من الكتب التي تقدم له البراهين المقنعة.. ومع ذلك لم يعرف كيف ينفذها ويتصرف بها.. اعترف بأن أوغيست بابل كان محقًّا في آرائه.. ولكنه وجد ريتشر أقرب إلى هذه الحقيقة التي كان يتفهمها ويجيد التحدث عنها المؤرخ كوزلوف.. تقضي الماركسية بالتعمق و«الانصهار في المجموعات» وكذلك قال الكاتب التولستي، والذي اعتنق الموجيك فيما بعد، كاتين، عم جاكوب. حتى أخاه ديمتري «انصهر»، أيضًا وفي البدء، كان كل هذا يعود إلى رغبة مبهمة، تقضي بتحويل الإنسان إلى إسحاق آخر، إلى الضحية، وبالاختصار، إلى حصان يسير نحو هدف مجهول يشد عربة التاريخ الثقيلة.

«كان كليم يصغي إلى بريس وقد تملكه الحماس يشتعل رويدًا رويدًا.. بينما لم يبد هو أي اعتراض على أقواله. عرف أن عليه البحث عن أفكار قديمة ليدعم ويفسر مقاومته الجسدية ضد الأفكار الاشتراكية.. يلزمه مقاييس لم يجدها بعد في نفسه.. لكنه شعر بأن الحياة ستكون مريحة للغاية إذا ما هو ابتعد عن الاشتراكيين وخصومهم. لم تكن لديه الجرأة الكافية ليعلن:

- لا أود أن أقوم بدور إسحق.. فتش عن كبش آخر. إن الذي كان يزعجه الآن هو فشل أفكاره التي بناها حول هذه المقابلة.. كان يأمل أن يجد ما يسره ولكنه أحس بأنه فعلًا، عاجز عن التفكير والإدلاء بأي عبارة.. وجد نفسه محافظًا فضوليًّا.. وهذا ما زاد من قلقه واستيائه..

ترك بريس وهو يخفي قلقه تحت قناع كثيف، كرجل كشفوا له عن فلسفة لا يزال يجهل اتساعها وأعماقها حتى ذلك الحين.

اقترح عليه بريس بلهجة الصديق الودود:

- تعال يوم الأحد، وسأقدمك إلى أناس مفيدين.

قرر سامغين بألا يذهب أبدًا.. وفي منتصف الطريق، غضب من نفسه: إلى متى سيستمر هكذا؟ لماذا لا يميط اللثام عن داخليته؟ ومهما يكن فهو إنسان «موجود».. وهذا يكفيه.

أجل، سيذهب إلى بريس ويبرهن له بأنه ليس تلميذًا ولديه حقيقته وأفكاره الخاصة به. سيبرهن له عن حقيقته كرجل يريد أن يكون مستقلًا بذاته.. له مكانته وكيانه.. صرف يومين يتصفح هدية كوزلوف: كتاب راديتشيف المطبوع في لندن بواسطة هرزن. وفي نفس المجلد دراسة الأمير شيرباتوف حول «انحطاط الأخلاق في روسيا» ثم كتاب دانيلفسكي «روسيا وأوروبا» و«الاشتراكية» للكاتب الرأسمالي «لي بون» وكذلك نظرة على مؤلفات نيتشه.. كان هذا كل ما تحت يديه وشعر بأنه مسلح للغاية.. ومن ثم قرر العودة إلى بريس، آملًا أن يلقى في «الأناس المفيدين» رجالًا شبيهين بتلامذة ماراكويف.

قادته المرأة الأنيقة إلى غرفة جميلة تكثر فيها المقاعد الجلدية ويتوسطها مكتب كبير قرب النافذة، وعلى الطاولة قنديل برونزي اللون يشبه ذاك الذي رآه في غرفة فارافكا، تحجب النوافذ ستائر رمادية اللون وتعطر الجو رائحة التبغ الجيد.

دخل الغرفة في هذه الأثناء طالب طويل القامة واقترب من كليم ثم انحنى بأدب يقدم نفسه:

- ستراتونوف.

ثم دخل تلميذ آخر أملس الشعر، صغير العينين.. وجلس في مقعد قرب كليم وكأنه خارج من الحمام لتوه.. مد يده بتكاسل يصافح سامغين ويقول:

- تاغيلسكي.

- تشرفنا، قال تلميذ ثالث ضعيف البنية حليق الشعر والذقن.

كان بوجاركوف ضيف بريس الرابع. وقد جلس في زاوية قرب خزانة مملوءة بالكتب المجلدة. أما بريس فقد جلس وراء مكتبه يضع يديه أمامه فوق الطاولة كمن يقود حصانًا غير مرئي.. ينعكس على وجهه أضواء القنديل أمامه وتبديه أخضر فيه بعض الشحوب. حيا سامغين الجميع مرة ثانية، وبينما كان يجلس في مقعد أكثر راحة من المقعد الأول.. قال أحد الطلاب:

- إن تطور صناعتنا السريع، إذن، أمر مفروغ منه.

- أجل.. أجل.. ولكنني لا أتحدث عن هذا! صرخ الطالب الأشقر بصوت حاد، وهو يتململ في مقعده ويلوح بيديه.

- قلت إن أمة لا تؤمن بفرديتها، ليست أمة بعد. ثم انحنى إلى الوراء وراح يتكلم بسرعة مدة خمس دقائق. ولم يستطع كليم الجمع بينها سوى بعد دقائق.

- نجد لدى السلافيين، والشعبيين، وكذلك المذاهب.. نجد أبحاثًا قيمة ودراسات وافية لكل موضوع.. قال وهو يلتفت ناحية زاوية مهجورة.. لا أحد فيها.. وفجأة استدار إلى بريس ومد له يدًا ترتجف وأضاف:

- هناك «التجار المتحدون» في إنجلترا.. وفرنسا تتجه نحو «النقابات»، ناهيك عن الديموقراطية الاشتراكية المتأصلة في الشعب الألماني، أما نحن؟ ماذا نملك؟ هذا ما أتساءل عنه.

أجابه بريس بكلمات مقتضبة، إن القضية سابقة لأوانها بعد.. عندئذ قفز الطالب الأشقر من مكانه، وكأن أسلاك المقعد تخزه وركض إلى زاوية أخرى وارتمى بكل وزنه فوق إحدى المقاعد يشد بذقنه يكاد يقتلع شعيراتها الطويلة، يفصح عن أسنان بيضاء ويتابع بغضب:

- ولماذا إذن؟ لماذا تقول إنه سابق لأوانه؟ إن القواد يخططون للمعارك قبل الحرب بمدة طويلة.

وهنا جمع أحد الطلاب نفسه، وقد بقي طيلة الحديث شارد النظرات لا يدلي بشيء، تململ في مقعده برهة، ووقف يقول بلهجة قاسية:

- لا أحد يفكر بالحرب..

- ولكن، أجل.. قال الطالب الأشقر بعناد.. أعرف!

هناك في سويسرا، في باريس..

نهض تاغيلسكي من مقعده وتقدم منه بخطى وئيدة وانحنى فوق ذراعي المقعد يقول هامسًا في أذنه:

- آه أجل.. بالفعل. قالها بجد وهو ويهز رأسه.

شاهده كليم هكذا وعادت به إلى ذاكرته إلى ليتوف. أما بوجاركوف فاستمر صامتًا ومرفقاه فوق ركبتيه لا يقول شيئًا.. لكنه اعترض مرة واحدة على أقوال ستراتونوف:

- إن ترتيب الوقائع شيء ضروري ومفيد شرط ألا تفرق أو تناقض عن محاولة لإصلاح التناقضات التي لا يرجى إصلاحها.

لاحظ كليم أن بريس لم يكن موافقًا على ما جاء في أقوال بوجاركوف. أحس بشيء من الأرستقراطية اليقظة أكثر مما أحس في منزله.. فعدم الاتفاق والفتور بين الطلاب كان واضحًا لا يحتاج إلى دليل.

رغب كليم بالتحدث وإبداء آرائه.. أراد أن يلفت الأنظار إليه ويشترك بالحديث من بابه الواسع.. فأعلن أن البعض باتوا يفكرون بالحرب الاجتماعية وإن باتت بالنسبة لهم، شيئًا مقررًا.. استمعوا إليه بانتباه وعندما وصف الشماس، وذكر اسمه بالطبع، هب الطالب الأشقر يرجوه بحرارة ويقول:

- هل تريد وتعرفني إلى ذلك الرجل؟ معقول؟ دعني أتعرف إيه.. أرجوك!

أما ستراتونوف فقد قال وهو يتطلع إلى ساعته الذهبية ويلف سلسلتها حول يده:

- لقد وصفت لنا هذا الرجل وقلت بأنه محب لروح النكتة.. أليس كذلك؟

قال هذا وانتفخت أوداجه وكأنه أراد أن يعبر عن قوته وجبروته، هو الوحيد فقط، ملك الرياح والعواصف، كانت لهجته، على العموم، صارمة ومقتدرة.

وعاد تاغيلسكي يهمس في أذن الطالب الأشقر الذي راح يهز رأسه ببرود ويقول:

- أجل؟ آه؟

أبدى كليم سأمًا من هذه الحركات ونفر منها.. وبعد مضي بضع دقائق قرر أن يغادر المكان.

قاده بريس إلى الخارج وقال بصوت خفيف يعتذر:

- أمسية فاشلة. إنه كما ترى.. هناك أشخاص لم نعرفهم بعد جيدًا..

- المتعجرف الصغير؟

- لا. واحد آخر. ذلك الذي كان يجلس وحيدًا في الزاوية.

إنه بجوركوف، حزر سامغين وهو عائد إلى منزله يسير في الشوارع المضاءة بنور القمر.. شيء مريب. لم يفهم هؤلاء الناس أبدًا.. كما أن لقائين أو ثلاثة لم يكونا كافيين لتعلقه بهم. لم يكونوا يصرخون أو يتناقشون، إنما يتحدثون بوقار عن المسائل المتعلقة بالسياسة الاقتصادية.. علم لا يفهم منه سامغين شيئًا ولا يهواه مطلقًا.. يصفون أنفسهم بالماركسيين.. أما في الحقيقة، فهم لا يحيدون عن «الكوتزوفية» قيد شعرة.. لا يهتمون بالمسائل قدر اهتمامهم بأمور الصناعة والتجارة. يقدرون قيمة مخازن البترول والقمح واللحوم، وكل ما هنالك من مواد أولية تلزم الشعب الروسي بمجموعه. بدا لسامغين أنهم يعبرون عن آرائهم بالأرقام أكثر منها بالكلمات.. يتحدثون عن مستقبل الخط الحديدي السيبيري الكبير، عن صناعة السمن، عن الهجرة، عن أعمال بنك الفلاحين، وأخيرًا عن.. السياسة الجمركية في ألمانيا.. كان كل هذا يزعج كليم ولا يرغب في أن يسمع به لأنه لا يفهم منه شيئًا.. إذ كانت الصحافة مورد معلوماته في جميع هذه الحقول.. ولم يبد حماسًا لها أبدًا.

كانوا يثيرون فضوله رغم الفوائد القليلة المرجوة من آرائهم. ماذا يريدون؟ سمعه ستراتونوف، ذات يوم، يتطلع إلى الطالب الأشقر بغضب ويقول «تابت». يتحدث دائمًا بلهجة القائد الأحمر.. وينم حديثه عن كره متأصل في نفسه واحتقار في نظراته.. تجاه الطالب الأشقر:

- إن الإنسان المقتنع لا يستطيع ولا يجب أن يقبل تضليلًا لأفكاره، أعلن يقول له.

ابتعد الأخير مرتعبًا وقال يسأل كمن لا يصدق ما يسمع:

- أتتكلم بجدية؟

لم يجب ستراتونوف.. فهو لا يرد غالبًا على الأسئلة التي تطرح عليه.

حدث تاغيلسكي كليم عن أخيه ديمتري وعن الخدمات التي كان يسديها إلى الرفاق من معلومات قيمة وأرقام صحيحة. كان رقيقًا، حساسًا، ومع ذلك لم يبد تعجرفًا وتعنتًا في الإدلاء بالمعلومات التي تطلب منه. يجيب عنها بصراحة مذهلة ودقة فائقة.. كطالب أنهى دروسه وبات يود التخلص من كل ما حفظه أثناء الدراسة. كان ينعت رجال الحكم بعصبية ويكيل لهم الشتائم والسباب:

- حمير، بلهاء، لصوص!

وبعد هذا يعود إلى طبيعته ويتناول لفافة من جيبه، يدخنها بروية، بانتظار من يود أن يطرح عليه سؤالًا. وكذلك وجد كليم نفسه، للمرة الثانية، يستعيد ويتذكر ديوميدوف.. إذ إن تاغيلسكي، بدا مثله مقتنعًا، دون أن يشك بصحة أقواله، بدا وكأنه ينتظر مجموعة من اللصوص والبلهاء.. يتقدمون منه ويطلبون إليه:

- تعالَ، من فضلك، واحكمنا!

أنطون برنديف، هذا هو اسم الطالب الأشقر.. كان مقتنعًا أنه لا مفر من قيام الثورة ، وهذا ما كان يخيفه ولا يدري أين يختبئ.. لكنه عاد وأقنع نفسه بإعلان إيمانه كما حاول أن يقنع كذلك بريس وستراتونوف.

- من اللازم أن تلتقي الثورة مع الإصلاح الديني.. مفهوم؟ طبعًا ليس مع إصلاح شبيه بإصلاح المذاهب المنتشرة في الجنوب.. وليحمنا الله من شرها!

طمأنه ستراتونوف قائلًا:

- إننا في مأمن ضد هذا التحول..

- وهؤلاء الطلبة، والمعمدون؟

- يجب أن تفصح أكثر وتتكلم بواقعية.. حدد بالطبع ما تعنيه.. قال تاغيلسكي، ثم أضاف: إن المسألة لا تتعلق بإصلاح لا أحتاجه أنا أو أنت، لكن بإصلاح كهنوتي.. تتعلق بإطلاق حقوق الكهنة، وتحسين حياتهم المادية.

واعترض برنديف يقول صارخًا:

- بضرورة تربية الكاهن الريفي والحاجة إلى تهذيبه وتثقيفه من جديد!

وعلّق ستراتونوف متنهدًا:

- سنلاقي الصعوبات.. علينا أن نقود حملة متعبة ضد الحقل.

- جدًّا، صرخ برنييف، ورفع يديه ملوحًا.. ثم أضاف بصوت منخفض يكاد أن يكون همسًا: جدًّا.

وقف ستراتونوف يقرّب رجليه من بعض قدر المستطاع، يرجع يديه وراء ظهره يشبكها، نافخًا صدره.. فأكسبه هذا قوة في الشخصية وأناقة في المظهر.

- إننا رجال.. بدأ يقول ويتطلع إلى برنييف.. إننا رجال، في رأيي، وهبهم التاريخ قوة وعهد إليهم بمهمة تنظيم الثورة.. ليعيدوا إلى الجماهير الاعتداد والثقة بالنفس..

رفع تاغيلسكي رأسه وابتسم بسخرية.. ثم تطلع إلى ستراتونوف وقال بصوت رنان، يقاطع خطبته:

- لقد احتفظت بعقلية طالب لا يزال في سنته الأولى، تأخذ الكلام عفويًّا، تلوكه ثم تقذف به إلى الخارج.. لا يجب التفكير بالثورة، بل بسلسلة الإصلاحات التي ستجعل الناس أكثر عملًا وثقافة.

سكت بريس وراح يتسلى بنقر الطاولة أمامه دون أي ضجة. كان بعيدًا عن الإطناب يعبر عن أفكاره بعبارات غامضة.. بعيدًا كل البعد عن ذلك الخطيب الذي اعتاد كليم أن يستمع إليه في منزل العم كريتزانيف أو في الجامعة يجادل ماراكويف.

التقى كليم بوجاركوف مرة ثانية.. وبقي، ذلك اليوم، صامتًا، طيلة ساعة ونصف.. فقد خرج من منزل بريس يشد على يده مودعًا ويقول:

- أظن أنه قد تم رسم خطط الغد وحوادثه هنا نهائيًّا. وذهب دون أن يستأذن أحدًا.. بينما بقي كليم في مكانه يتطلع ويردد في نفسه: إن بريس على حق.. فبوجاركوف مزعج ومتعجرف.

كان من عادة سامغين أن يحتفظ بهدوئه وبرودة أعصابه أينما حل، في اجتماع كهذا أو غيره.. فهو دائمًا رزين ومتزن.. يراقب المتحدثين ولا يبدي رأيه.. يتابع تطور أفكاره ولا يدع نفسه تتأثر بأقوال هذا أو ذاك.. أو كأن يتسلى مثلًا ببعض الأقوال تتعارض وصحة أفكاره الخاصة به.. يجتهد دائمًا، ومبدئيًا، للتأكد من صحة الأقوال التي يسمع.. هذا ما قاله تاغيلسكي، وأوعز إلى رفيقه برنييف قائلًا:

- خذ لك مثلًا.. سامغين نفسه، فهو لا ينسى أبدًا أن الحقائق ترتكز إلى نظريات وتتأكد بالنظريات أيضًا.

كان كليم يظن أنه، في بعض الأوقات، يجد مكانه.. الطريق الذي عليه أن يسير فيه.. بدا الرجال من حوله كالمرايا: كل مرآة تعكس صورته وتبرهن، في نفس الوقت، عن عيوبها، وهذا مما يؤكد صحة اعتقاده.. إذ لم يكن في محيطه رجل يعادله من ناحية الاتزان والوقار.

سمع ذات يوم، وهو في طريقه إلى لقاء بريس، سمع خلفه وقع خطوات سريعة وثابتة. ظن أن أحدًا يطارده. استدار إلى الوراء ووجد نفسه وجهًا إلى وجه مع كوتزوف.

- لك مشية خاصة، قال هذا الأخير بصوت منخفض وفرح.. ابتسم فاتسعت لحيته ووجهه.. إن من يراك يظنك ذاهبًا إلى زيارة امرأة لا تحبها أبدًا.

- كيف حالك؟

لم تعجب أقواله كليم، فبدا منزعجًا من هذا اللقاء.. تلفت حوله وقال:

- يظهر لي أنهم أطلقوا سراحك بكفالة؟

- تمامًا.. وعلى حرماني من التجول.. ولكنني أخاف السمنة، ومن أجل هذا أتيت أتمشى هنا.

وبعد تبادل مقتضب للعبارات المختصرة وصلا إلى باب بريس، وضع كوتزوف يده فوق الجرس يقرعه وناول اليد الأخرى إلى كليم.

- أنا أيضًا آت إلى هنا، قال الأخير.

- غير معقول؟ أجل.. لا بأس.

دفع كوتزوف كليم من كتفه أمامه وبعد أن تلفت حوله قال يربت كتف المرأة الجميلة:

- دائمًا الأزهار يا كازيا، آه، كم أحبك.

- وأنا كذلك، أجابت المرأة وهي تحاول سحب معطفها من يديه، ولكنه علقه إلى المشجب بنفسه.

«حركة ديمقراطية» قال كليم في سره.

استقبلهما بريس بفرح وانفعال.

- أنت حر!!

- كما ترى!

ومن ثم صعد كوتزوف إلى الغرفة حتى ألقى بنفسه فوق السرير وقال:

- اطلب منهم بأن يحضروا لنا الشاي.

- لم أكن أعلم أنكما تعرفان بعضكما بعضًا، قال بريس محاولًا الاعتذار أمام كليم.. ثم جلس فوق السرير وراح يسأل كوتزوف من أين أتى وماذا رأى.

شعر سامغين بارتباك في هذا المكان.. وظنه بريس على علم بأحوال كوتزوف.. كما اعتبره هذا الأخير عليمًا بأمور بريس.. فكر أن يسأل رفيقه إذا كان وجوده معهما يزعجهما.. ولكن الفضول منعه من التكلم.

جلس كوتزوف فوق السرير فتدلت رجلاه إلى الأرض وأسند رأسه إلى الوراء يمسك كوب الشاي بيد ويقول محدثًا كليم عن الأحوال العائلية والحزبية.

- إن معتنقي الماركسية الجدد يتزايدون يومًا بعد يوم. يدعون أنهم على اتصال مستمر بالعمال.. ولكنهم يحاضرون فقط عن المبدأ وغير متحمسين للتطبيق الفعلي.

- وفي كازان؟ كاركوف؟ سأل بريس وهو يفرقع بأصابعه.

وجد سامغين أن عادات بريس تشبه إلى حد بعيد عادات ليتوف يوم جاءته تلك الفتاة لتراه في فيلا فارافكا، تصرفات رئيس مع مرؤوسه بالتمام.

سحب كوتزوف علبة لفائف من جيبه.. فتحها فإذا بها فارغة، فزمجر ورماها فوق الطاولة.

- ألا تدخن يا سامغين؟ يا للأسف، إن بعض العادات السيئة تفيد المقربين أحيانًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد يها كليم صاحبه كوتزوف فرحًا مغتبطًا هكذا.

انحنى كوتزوف فوق سريره نصف انحناءة وتابع حديثه يقول:

- ذهبت إلى تولا، بعد برينسك.. إذ هناك أولاد جديون للغاية. قلت في نفسي: لماذا لا أذهب وأشاهد تولستوي؟ وذهبت.. تناقشنا قليلًا حول الأحلام البريئة.. ولكن لم نتوصل إلى اتفاق يرضي الفريقين.

وقال كليم، كي يسلط الأنظار عليه:

- إنه حدث غريب تولستوي هذا!

- فعلًا، وافق كوتوزوف وأضاف: ومع ذلك مزعج.

- لمن؟ سأل كليم.

تثاءب كوتزوف وأجاب:

- للتاريخ، الذي سأم كل هذه «الأحاسيس».

وردد كليم كمن يحلم:

- «إن تولستوي هو قمة القوى البدائية في الريف الروسي».

- ولماذا يجب أن نستخلص من هذا؟ قال كوتزوف، ثم قفز من سريره يقضم أطراف شاربه واقترب من سامغين يقول:

- اعذرنا، بريس تعال من هنا.

تناول بريس من كتفه ودفعه نحو الباب.. بينما بقي كليم وحيدًا في الغرفة يتأمل سطوح الزنك من النافذة.. كما أحس بسرور وهو يستمع إلى صوت كوتزوف اللامبالي عندما كان يتحدث إلى الفتى اليهودي الوقح.. أزعجه منظر كوتزوف وخاصة لحيته الطويلة وحذاؤه القذر.. كما احتقره إزاء موقفه المتصلب مع تولستوي.. ولكنه عرف، وإن لم يكن هذا ليقربه من كوتزوف.. فهو يجعله ذا مكانة يحسد عليها.. أجل.. فهذه حقيقة لا تقبل الجدل.

- سأذهب، قال كوتزوف وهو يدخل الغرفة.. وأنت يا سامغين؟

- وأنا أيضًا.

وفي الشارع المظلم، تحت الثلج المتساقط والبرد اللاسع كان كوتزوف يزرر معطفه ويقول مدمدمًا:

- إن بريس يعيش حياة هادئة وحلوة.

- لست أعرف ما الذي يشده إلى الماركسية؟ قال كليم. تطلع إليه كوتزوف يحدق فيه ويسأل:

- ألا تفهم أبدًا؟

وبعد مسيرة بضع خطوات عاد يسأله:

- ألست جائعًا؟

- سأكتفي ببعض الكحول.

- إذن اشربه.. وافق كوتزوف ودخل إلى حانوت صغير، ثم أخرج سيجارة من جيب سترته وقال:

- حسنًا، سنشرب الفودكا.

ومن جديد حدّق في كليم ساخرًا:

- لقد تحسسك الدرك واقتنعوا بعذريتك السياسية؟

وقبل أن يستطيع كليم التخلص من هذه المزحة الثقيلة، عاد كوتزوف يقول بحنو وتلبك:

- انفعلت دون شك؟ أليس كذلك؟ كدت أذوب أنا عندما فتشني أحدهم.. كدت أن أذوب خوفًا.

وفي المطعم المتواضع انصرف كوتزوف إلى زاوية فارغة فطلب شرائح لحم وفودكا.. بعد ذلك أجال بصره في الجالسين من حوله. وكذلك فعل كليم.. ودهش عندما شاهد بينهم امرأة عرف فيها صديقة قديمة لليتوف.

- أظن هذا المكان مخصصًا للقاءات الغرامية، قال في نفسه وعاد يسأل صديقه:

- هل سبق لك وأتيت إلى هنا؟

- إنها المرة الأولى، أجاب الأخير، ودون أن يرفع رأسه من فوق صحنه سأل وفمه مملوء بالطعام:

- «إذن لا تعرف لماذا يندفع البعض إلى الماركسية؟».

- لا.

- لنشرب كأسًا، قال وملأ كأسين ناول إحداهما إلى كليم وأتبعها بقطعة من اللحم المجفف مر بها فوق أنف صديقه.. إن هناك من لا يرى في الاشتراكية العلمية سوى مبدأ التطور الاقتصادي، كما أن الماركسية بالنسبة لهم لا تعني الشيء الكثير.. إن لم يكن هذا الأمر وحسب.. بصحتك! يظن صديقنا المشترك، بوجاركوف، عكس ذلك ويرى أن حذاقة الطبقة هي التي تدفع كل هؤلاء الفتيان إلى الأخذ بالمبادئ الماركسية.. رغم شعورهم القوي بأنه لا مهرب من المصائب الاشتراكية.. ولكنهم يطيعون غريزة التحفظ.

وما إن انتهى من أكل كل شيء حتى تطلع إلى صحنه بأسى ونادى الخادم يطلب فنجانًا من القهوة..

- هكذا هي عند البعض خطأ نظري.. وعند البعض الآخر فكرة طبقية.. إذا ترك العامل نفسه تؤخذ بمبدأ، فعلى معلمه أن يبدأ بتوعيته.. أي أن يباشر بتهذيب الفكرة وتشذيبها.. هل يمكننا أن نفسدها قليلًا؟ يستعملونها في أوروبا كثيرًا.. وأظن بورجوازيينا الصغار أصماء أو عميان.. بتنا نلاحظ لديهم محاولات لخلق الضمير الطبقي.. يخترعون شيئًا شبيهًا بالسلافية ويتغلبون على بطرس الأكبر.. يتحركون.. إلى..

بدا الرجال الأربعة منتفخين، صامتين.. بينما كانت المرأة تقرأ رسالة.. انتهت منها فطوتها ووضعتها في حقيبتها اليدوية..

تحدث كوتزوف، ثانية، وبصوت منخفض:

- إن مدرستنا الأدبية الجديدة تعني أشياء كثيرة.. يبدو أن بين هؤلاء الرمزيين، المخطئين، أناسًا لهم قيمتهم ومركزهم الأدبي المرموق.. إن الانحطاط في الأدب هو عادة دليل واضح وسابق لأوانه للطبقية، أما عندنا فأظنه لا يتعدى كونه انحطاطًا جزئيًّا.. مرده التقليد وحسب. إن شبابنا يقلدون أعمال الضحايا وممثلي الانحطاط الروحي في أوروبا البورجوازية. ولكنهم كبروا الآن.. وأظنهم بدأوا ينتجون شيئًا يعود عليهم بالفائدة القصوى..

- هل تعرف ستراتونوف؟ سأل كليم.

- طالب حقوق سبق لي وشاهدته مرة، لماذا؟ إنسان عنيد ينتهي بوظيفة كبيرة.. كحاكم مقاطعة مثلًا، مسح كوتزوف لحيته بفوطته وأشعل سيجارة ثم تطلع إليها وتابع حديثه بحنو، يتنهد:

- لقد حان وقت الذهاب.. يا للمدينة الغامضة! يفترض أن يكون الشيطان بعصاه.. كل شيء فيها يعوي.. ليست أوروبا ومع ذلك ترى المنازل مبنية على الطراز الأوروبي نفسه، ترجمات حرة بقدر ما هي قبيحة..

وابتسم كوتزوف ابتسامة عريضة..

- موسكو، ستصبحين أوروبا، ها هو مستقبلك! تذكر فجأة شيئًا ما فمد يده وسحب ورقة نقدية وقال:

- سأذهب. ادفع. أطيب التمنيات.

طلب كليم كوبًا آخر من الشاي.. لم يكن عطشان، لكنه أراد أن يعرف من تنتظر تلك المرأة.. كانت تضع نظارتها السوداء فوق جبينها وتسجل شيئًا في مفكرتها.. وبينما كان سامغين يتأملها قال في نفسه:

- إن السياسة تمنح الكثيرين الفرص كي يظهروا.. كي يسلطوا أنظار الناس عليهم.. ككوتزوف مثلًا.. لكن سيدة كهذه.. ماذا يستهويها؟

واتجهت أفكاره في خطين متعاكسين: كان يفكر بالمرأة ويحاول، في خط آخر، أن يحدد عواطفه، نحو ستيفان كوتزوف.. كشف له لقاؤهما الثالث عن شعور غامض..

نهضت المرأة تحجب وجهها بمنديل أبيض وغادرت المطعم.

- لم يأت، لربما كانت تنتظر عشيقًا.. ومن يدري؟ لعله أوقف.

كان يستحيل عليه التفكير بالنساء، إن لم يتخيل ليديا تخطر أمامه.. ويثير هذا في نفسه حقدًا وغضبًا. سألته باربارا منذ أيام تقول:

- هل تكتب لك ليديا دائمًا؟

- ليس كثيرًا، أجاب.. إذ إنها لم ترسل له سوى خطابًا واحدًا من باريس.. إنها لا تحب المراسلة.

- ولا التكلم.. إنها مغلقة على نفسها.. أليس كذلك؟ تطلع إليها كليم من وراء نظارته وقال يجيب بقساوة:

- ليس هناك ما يدعو للانغلاق.. إنهم معشر الكتاب.. يخترعون لنا هذا لتسليتنا «الحب والجوع يحكمان العالم» وننقذ نحن هاتين القوتين الأساسيتين. كما أن الفن يحاول دائمًا تجميل متطلبات الغريزة.. ويساعد العلم على إرضاء حاجات المعدة.. هذا كل شيء.

كان يبدو له أحيانًا، أنه إذا تحدث بلهجة شديدة وقاسية كهذه يحاول أن يغش نفسه قبل غش باربارا.. يتسلى أكثر فأكثر وهو يلعب مع هذه المرأة.. كان ماراكويف فتى جميلًا.. أجمل منه كثيرًا.. وظن أن طالبًا كهذا يحب إغراء المرأة الشابة.. سر جدًا عندما رآها أكثر مرونة وعطاء نحو هذا الطالب المحب، رغم استعجاله بإكمال مجموعته من صور الشخصيات المشهورة..

وذات يوم، كان يتصفح طبعة أنيقة لتاريخ إنجلترا للكاتب ماكولاي، فقص منها رسمًا يمثل ماري ستيوارت..

تنبه كليم إلى أنه سيفسد الكتاب.. ولكن ماراكويف تخلص منه بإلحاح وقال:

- لقد كان ماكولاي يستعمل كلعبة للأطفال.

وأبدى ماراكويف ذات يوم إعجابه بالشماس فقال:

- يصلح لأن يكون دعاية كبرى في الريف.. إن تلك الديدان هي التي ستنخر عرش رومانوف.

وابتسمت باربارا وكشف عن أسنانها البيضاء الجميلة:

- إذا كانت ديدان فأين هو الجمال وأين البطولة؟

- انتظري، ستكون هناك فصول رائعة في البطولة!

أجاب ماراكويف يعدها..

ولكنها قالت:

- جميل جدًّا تشبيه الشماس بالدودة.

شجعها سامغين مبتسمًا.. كانت تزعجه لأنها كانت تلعب أمامه دور الفتاة الساذجة التي تصدق كل شيء.. ضف إلى ذلك أنها لم تكن جميلة.. وبقدر ما كان الوقت يمر سريعًا بقدر ما كان هو يحب أن يحتقرها.

تطلع إلى عينيها الخضراوين وقال:

- من الضروري أن تتمثل المرأة وتبدو جميلة أكثر مما هي عليه. وكذلك عليك أن تفعل هذا بالذات كي تستطيع العيش إلى كنفها براحة واطمئنان. إن كل مخلوق ذكر يبدي رغبة سرية بالانتقام من المرأة.. في الحاجة التي من أجلها تزوجها.. في مكان معين منها يحتاج إليه أكثر من أي موضع آخر.. في جسدها..

كان سامغين يعرف أنه يعيد أقوال نيتشه وماكاروف، ولكنه عندما يتلفظ بأقوال كهذه يظن نفسه ذكيًّا جدًّا.

- كم أنت صريح، أجابت باربارا متنهدة تنظر إلى الأرض أمامها.

أجل، كان يتسلى أكثر فأكثر معها ويخدعها بأنه يحبها.. كان على يقين بأنها ستتجاوب معه.. وتنفذ رغباته.

ذهب سامغين ذات يوم يتناول طعام الإفطار على مائدة باربارا فوجد أن ماكاروف قد سبقه إلى هناك.. كانت عينه صغيرة غارقة لا تدل على أنه عجوز أو أنه إنسان مريض.. يتحدث دائمًا في موضوع واحد- المرأة- وبدا عاجزًا عن التحدث في شيء آخر.

- إن كل ما هو ضار بالرجل ومتعب يحمل أسماء: الشقاء، الحسد، الاحتيال، والحنو، والفرح، صرخت باربارا تتحداه.

ابتسم كليم وأضاف:

- البلاهة، الألم، الوساخة.

واستمر ماراكويف يقول:

- الحياة، العراك، النصر.

وبعد أن تنبه ماراكوف إلى سكوتهم التام، همس بشيء غريب لم يفهمه بعضهم جيدًا.

- إن الشواذ لا يبعد شيئًا.. لأن للكره أيضًا لذته..

واستمر يجيل الطرف ويحدق فيهم بشراسة:

- إن فكرتي غاية في البساطة.. إن كل الأسماء الرديئة متأتية من كره آدم.. استوحاها هو بنفسه من ضميره الذي دعا إلى رفض سيطرة المرأة.

- هذا ما كنت تقوله بالذات، صرخت باربارا ملتفتة إلى سامغين، بينما هذا الأخير يتأمل صديقه علَّه يجد فيه ما يدعو إلى الخلل العقلي.

رأى أن ماراكويف لم يكن كما عرفه ذات يوم على شرفة منزله وطلب إليه أن يستمع جيدًا إلى أقواله وتصريحاته.. كان مظهره هادئًا ينم عن اتزان عميق ويتحدث بثقة.. يدخن ويترك عود الكبريت يحترق في يده حتى آخره. تقلصت ملامح وجهه وقست وأصبح صوته حازمًا آمرًا لا أثر فيه للميوعة والتردد.

- مستحيل.. هذه أقوال تتارية.. اللاهوت قال هذا وحسب..

ثم طلب إلى محدثه أن يقرأ كتاب «نساء روسيات» لسيتكوف، كاتب فاشل ومنسي منذ زمن بعيد.

سُر كليم وهو يشاهد ماراكويف يتخاذل هكذا، أمام خصمه ويخسر المعركة بحضور الفتاة الشابة.. التي عرفت أن ماراكويف لم يكن يسيء إلى المرأة.. استلطفته جدًّا ورجته قائلة:

- أرجوك ألا تصرخ هكذا! ألا تفهم؟!

هز ماكاروف رأسه كمن يطرد الذباب ثم انتظر كي ينهي ماراكويف صراخه، وعندئذ يصبح باستطاعته الاستمرار في الحديث وبلهجة مقنعة.. أحضر في جيبه قصاصة مقال لفيدروف- فيلسوف يجهله كليم تمامًا.. قرأ بعض المقاطع منها حيث يؤكد الكتاب على أن كل قساوة الحكم الرأسمالي متأتية من ضغط متواصل وسيئ سببه الغريزة الجنسية.. نتيجة اللحم الثائر، إذ لم يعرف بعد ماذا يهدئها ويرفع من مقامها..

صمت برهة وأضاف:

- أجل، هناك أمور عديدة تأتي من الكنيسة.. وعلى العموم عندما تتعلق القضية بالعلاقات الجنسية.. إذ إن أغلبية الرجال لم يفكروا جيدًا بعد. إن الكاتب خصم عنيد وهو محق في قوله «سيطرة المرأة

الناعمة.. ولكنها هدامة». أظن أنه أول إنسان حاول أن يبرهن على شعور المرأة بالسيطرة التامة بصراحة كهذه وعن مركزها الحساس في العالم.. ومن الطبيعي ألا يؤمن بأنها كانت المورد الأول لكل حضارة.

نظرت إليه باربارا الآن وكأنها تقيسه وتزنه.. لتعترف بحسن صنيعه.. تضايق كليم من أقوال ماراكويف وظهر لديه جليًّا، الآن، الانحراف العقلي الذي بحث عنه فيه. سمعه ذات مرة يقول بأنه يعمل في مستشفى وبعهدة أحد الأطباء المشهورين:

- أتقطن عند ليتوف؟

- أجل.. بالفعل.

- وتشربان معًا؟

- بدأت أتغيب منذ مدة.. فلقد سأمت كل هذا، أجاب ماكاروف. وكذلك ليتوف بدأ يخفف من الشراب بعد وفاة أبيه. ترك الجامعة وانصرف إلى تجارة الأثاث.. وجدها مسألة تدر أموالًا لا بأس بها؛ ولذلك راح يمارسها ويجوب روسيا رغبة بترويجها.

التقى كليم بليتوف في شارع مظلم.. كان مارًّا فاصطدم به.

- عفوًا.

- أوه.. هذا أنت؟ صرخ ليتوف بصوت عال لفت إليه أنظار المارة.. فتوقف بعضهم ظنًّا بأن هناك فضيحة ستحصل. كان يرتدي سترة جلدية ويضع فراء حول عنقه، ويلف رأسه بقلنسوة صوفية.. نبتت شعيرات ذقنه وأصبحت شبيهة بإحدى رسوم نيكراسوف.. قال له كليم:

- آسف.. يظنني البعض مجنونًا.. هل نذهب إلى تستوف؟ لننام مع..

وبعد ربع ساعة كان يتمدد في علبة الليل، فوق كنبة مريحة، شارد النظرات ينفث سحابة لفافته ويقول محدقًا بسامغين:

- أمضيت خمسة أسابيع في حضن الطبيعة.. في العراء.. تحيطني الغابات والأنهار.. وبكلمة مختصرة.. يكتنفني السكون من كل جانب.

انصرفت إلى واحة وإذا بي أفاجأ بتوروبويف يخرج من غابة الصنوبر ويتقدم مني حاملًا بندقية، مثلي أنا.. سألني قائلًا: «أظننا نعرف بعضًا؟- تمامًا.. معرفة قوية!» كان بودي أن أفرغ في فمه ما حشوت به بندقيتي من رصاص.. لكن هناك ما منعني.. فأنا شخص مثقف ولا أجهل وجود قانون العقوبات.. كما أنني أعرف أن الحالة لم تستقم بينه وبين آلين.. عندئذ قلت في نفسي: فليذهب إلى الجحيم!

صمت برهة وأطبق عينيه.. ثم نهض فجأة يسكب النبيذ في كأس كليم!

- حقيقة.. لم أفكر بشيء أبدًا.. كنت مسرورًا فقط لأنني التقيت بشخص إنساني. سررت بالغابة الهادئة والصنوبر المحروق.. العصافير تزقزق وأنا أستمع إليها، أحسدها.. فالذكور تغري الإناث.. ونحن

كذلك، ذكور.. أنا وتوروبويف.. ولكن لم يكن هناك من نغني له ويطرب لسماع أصواتنا. أقمت في منزل تاجر يكره اليهود.. متحرر.. ليبرالي.. مغرم بقراءة موباسان ويتشكى من آلام معوية مزمنة. فرك عينيه بقوة وغرق في كنبته من جديد..

- عندئذ أقمت مع توروبيوف. أحب أناسًا كهؤلاء: «كشجرة التين العاقر.. تنمو وحيدة ولا تظلل حولها». أليس هذا؟ أثارتني جدًّا فكرته عن الحكم عليه بالزوال. إنه لا يؤمن «بالأحلام أو ما شابهها».. لا يملك قدرة الإيمان! شيء مؤسف! بينما يتحرك الموجيك في جميع النواحي..

- سأله سامغين: أين هي آلين اليوم؟

- فوق، في باريس، أجاب ليتوف مشيرًا بإصبعه إلى السقف. هكذا كتبت لي ليديا تقول.. تقيم معها صديقة ثالثة.. لم أعد أذكر اسمها.. أجل.. إن الموجيك يتحرك دائمًا.. عاد يقول ويحك بجبينه. ما رأيك؟ أتراه ينفجر هذا الموجيك عمّا قريب؟

- إن الثورة ستقوم ولا محالة.. قال كليم وهو يفكر بليديا التي وجدت وقتًا لتكتب لممثل فاشل كهذا وليس له هو بالذات.. تذكر، وهو يصغي إلى ليتوف، تذكر أنه فكر بأن ينظم لليديا بعض المقطوعات الشعرية الرقيقة.. ولكنه مزقها بعد أن قرأها.. وظن أن ما كتبته له من رسائل مطولة كان كافيًا ولا لزوم للإطالة.. كما أن هناك ما لا يجب أن تعرفه وإلا احتقرته..

استمر ليتوف يشرب ويتكلم بسرعة..

- وأنت يا سامغين، عليك ألا تنجرف في هذه التيارات.. لست بفتى مهووس.. عهدتك رزينًا، وقورًا ولا مجال للمراوغة لديك..

نظر إليه كليم نظرة اللاواثق.. ولاحظ أن ليتوف يحاول التعبير عن أفكاره.. يصدق الفكرة القائلة: «ما يحمله الصائم في رأسه، يحمله السكير على طرف لسانه». وراح يصغي إليه بانتباه زائد.

- أما أنا فكنت دائمًا الضحية.. وتوروبويف أيضًا.. إنه ضحية إجحاف التاريخ.. وأنا ضحية الكحول.. هذا يقربنا إلى بعض.. ولست أرى فيه ما يضحك.

قفز من مقعده وراح يذرع أرض الغرفة بخطى سريعة ثابتة مما جعل الكؤوس والزجاجات تتراقص فوق الطاولة..

- حضرت منذ ساعة اجتماعًا لأناس هم أيضًا يتحركون بقلق.. كالأموات وقد اشتموا رائحة الحريق فتقلصت أجسادهم.. كانت بينهم سيدة مملوءة البدن وفتاة جميلة، بالإضافة إلى أشخاص ممتازين جدًّا.. كانت السيدة والفتاة تجمعان المال من أجل مجلة ماركسية.

قفز ليتوف مرة ثانية يضحك كالمجنون.. ثم تقدم من كليم رافعًا كأسه بيده يدقها بكأس رفيقه ويعلن:

- بصحة الفلاحات الروسيات البسيطات! تعرف أمثال تلك الفتاة التي ركبت حصانًا ودخلت إلى منزل يشتعل؟

جرع كأسه دفعة واحدة ورماه إلى الأرض ثم استطرد يقول:

- خفت جدًّا.. أقول لك بصراحة.. لها ثدي كبير يغذي مجموعة من البلهاء.. أجل.. يا عزيزي! إذ هناك درجة من المظهر تجعل الناس بلهاء يصعب احتمالهم.. هكذا هي بلدنا روسيا بالضبط.

جلس بقرب كليم وأمسك بعنقه:

- وأنت، بكل برودة وبدون أي شفقة.. تمسك بالآلام الإنسانية كعالم رياضيات.. كألماني.. وكمحاسب، الموجودات والمطلوبات..

اذهب.. فإلى جهنم وبئس المصير..

«هكذا يراني» قال كليم في نفسه مندهشًا لأن ليتوف كان يمسك بخناقه جيدًا.. تخلص منه وقال:

- لدينا الكثير من الآلام الاصطناعية..

- تقول هذا لي؟ صرخ ليتوف يقول ويبتعد عنه- إنك تكذب!

- أنا.. ومع ذلك لا بأس! هز برأسه وتابع:

- لا أحبك أيها العجوز.. لا! إنك مسلٍّ ولست لطيفًا.. ولعلك أقل مني حسَبًا ونسبًا.

لوح بذراعيه وطلب هامسًا:

- من أي ارتفاع تنظر إلى الرجال؟ ومن علو أي سقف؟

أمضى كليم نصف ساعة وهو يعمل على تهدئة أعصابه، وعندما عاد إلى صوابه راح يتحدث بلهجة مثيرة تدل على الجنون وتبعث على الهستيريا.. فلم يجد سامغين بدًّا من أن يستأذن منه ويتركه.

وما إن أصبح في الشارع حتى قال في نفسه من جديد:

«هكذا يراني إذن!».

ولم يكن هناك ما يمنعه كي يردد هذا بسرور.

- يعقل أن يكون هناك آخرون ينظرون إليَّ نفس النظرة ولم أنتبه بعد إليهم.. لست لطيفًا يقولون؟ لا حاجة بي إلى هذا.

أجل كان من المستحب أن يعرف فكرة ليتوف. إنسان لا بأس به.. ذكي وناضج- على الرغم من أنه نفر منه في بادئ الأمر.. ولهذا شعر بأن التفكير بذلك يرفع من مقامه.

حدث ذلك منذ خمسة عشر يومًا وقبل أن يقوده الضجر إلى منزل باربارا! وهناك دهش عندما شاهد لوباشا تجلس إلى الطاولة تحمل بيدها كتابًا تقرأ فيه.

- ها هو! صرخت وهي ترفع ذراعيها القصيرتين.. ركضت إليه وتعلقت بعنقه، تدور من حوله وتردد كلمات غريبة لم يفهمها.. أزعجته صراحتها الجميلة، فاستغرب ما تقوم به وتمتم يقول:

- انتظري، من أين أتيت؟ ولِمَ أنت هنا؟

أجابته بحيوية لم يعهدها فيها وقربته سوموفا من الطاولة ورجته أن يجلس وكأنها الناهية الآمرة في المنزل.

- من باريس، نصحتني ليديا بالمجيء إلى هنا.. سأقيم في هذا المنزل، وقد اتفقت مع صاحبته. كيف هي؟ حدثتني ليديا كثيرًا عن أخلاقها الحسنة.

أطبقت عينيها ورفعت رأسها ثم أضافت:

- أوه كليم.. صديقي.. أودك لو عرفت باريس.. كم هي عجيبة.. مدهشة؟

ثم ربتت فوق ركبتيه وتابعت.

عضت شفتيها ونظرت إليه نظرة تساؤل:

- هل أنت ماركسي؟

- أجل.

- ليكن.. إنه مرض سريع العدوى! هل تعرف أن ليديا بدأت تدرس الفلسفة والديانة.. وعلى العموم.. أين إينيكوف؟ سألته، ودون أن تنتظر الجواب قالت بسرعة:

- لماذا لا تشرب الشاي أمامك؟ سررت جدًّا برؤية براد الشاي من جديد.. رأيته مرة في منزل مهاجر سويسري.

نجح سامغين واستطاع أن يقاطعها.. ثم أخبرها أن إينيكوف مغرم بامرأة تكبره بعشر سنوات.. وأن لا جدوى من حبه هذا.. كما وأنه مسترسل بقرض الأبيات الشعرية الرديئة.

- رديئة؟ سألته مطأطأة الرأس وكأنها لا تصدق ما تسمع.. حالمة تتلاعب بجديلتها..

- إذن؟ فالحب القديم لا يصدأ؟

أدفأت يديها في كوب الشاي ثم أضافت متنهدة:

- يجب أن ينظم الأبيات الجميلة.. يمكنه أن يفعل هذا.. عدلت من جلستها في الكنبة، وابتدأت تتكلم بطريقة فوضوية لا يفهم منها شيء.. بدا لكليم للوهلة الأولى أن السفر أثر فيها وجعلها أكثر ثرثرة وزادها تعلقًا بوطنها.. كما أن جديلتها والزي الذي ارتدته جعلاها تشبه المرأة الجبلية أكثر من امرأة المدينة.. ولكنه عاد ولحظ فجأة أنها اكتسبت بعض الحركات المضحكة وتشد خصرها بمشد كبير الحجم جعلها تبدو مستديرة كالدجاجة.. لم تكف عن الحديث وعادت تتحدث بصوت مضحك مغناج:

- أجل يا صديقي، فأنا أحب سريعًا.. تنبه إلى نفسك. قالت وهي تقرب كرسيها من كرسيه وعادت تتكلم بسرعة فائقة كمن يبدو تعبًا ويخلع ثيابه على عجل، حدثت لي مغامرة مؤلمة، قالت وعلى شفتيها ابتسامة شاحبة ثم غمزت بطرف عينيها وتجهم وجهها.. عملت كقارئة لدى سيدة من كريميه.. أوه! كم كان هذا مؤلمًا.. كانت المسكينة مريضة وتعيسة.. إن هذا يكفي لنعذرها.. وها هو ابنها يأتي لزيارتها..

كان قبيحًا ونحيفًا.. ومع ذلك وجدته مدهشًا! كانت عيناه جميلة جدًّا.. رائعة.. ولا يفهم شيئًا على الإطلاق! هددته بإصبعها وقالت تحذره بصوت منخفض:

- لكن أرجوك، فقط، ألا تحدث أحدًا بهذا!

- تعني العيون؟ سألها مازحًا.

- أبدًا، أجابت سوموفا بجدية، وأرجعت جديلتها إلى الوراء.. ثم قالت:

- كان يتحدث دائمًا ويقول شيئًا لم أكن أعرفه أبدًا.. لا يعرف شيئًا عن الشر ولا عن الأهوال بالذات.. حتى بدا وكأنه يعيش في واجهة زجاجية مقفلة.. وهكذا وقعت بهواه.. كان عالمًا.. جيولوجيًّا.. عدة علماء في شخص واحد.. يشبه إينيكوف إلى حد بعيد.. يعد.. ويعد.. ثلاثة ملايين.. أربعة ملايين.. سبعة ملايين.. كيلومترًا.. مبتدئًا دائمًا من الصفر. كنت أود تقبيل عينيه وضمه إلى صدري.. بينما كان هو يحدثني عن كانط ولابلاس.. عن الجرانيت والصوان.. عندئذ فهمت بأنني كنت بالنسبة له صفرًا.. ولا قيمة له.. استبد بي الحب وكدت ألقي بنفسي في البحر.

ابتسمت سوموفا وعضت شفتيها ثم امتلأت مآقيها بالدموع:

- يا لي من حمقاء! سأبكي.. وانفجرت تنتحب.. واستطعت أن أجعله سعيدًا.. يحبني كما أحبه.. استغرب ما آلت إليه نفسه وكيف حدث له هذا التطوّر المفاجئ، بدا كمن استفاق من حلم.. كانت ذراعاه طويلة رقيقة.. يشدني إليه أحيانًا ويضحك.. لقد ولد من جديد وفي عالم آخر.

كانت تنتحب بطريقة مضحكة والدموع تسيل فوق خديها لتمتزج بابتسامتها.. كالمطر تحت الشمس..

- هو نفسه قال هذا: «لقد ولدت من جديد وفي عالم آخر». قالت وهي تمسح دموعها بجديلتها.. لم يحزن كليم لمنظر الفتاة وهي تبكي.. فقد زادها البكاء تألقًا وجمالًا.

- وفجأة، تصوَّر هذا، حدث ما لم يكن بالحسبان، دخلت عليَّ أمه تعيسة.. بائسة.. تمشي بتعالٍ وامتعاض.. اقتربت مني وقالت: «أعلن ولدي منذ برهة أنه يرغب بالزواج منك.. أرجوك ألا تقبلي به وتوافقي على رغبته.. لأنه سيصبح عالمًا كبيرًا.. أتوسل إليك.. أن ترفضيه ولو اضطرني ذلك إلى الركوع أمامك!» وهمت بالركوع.. هي.. تأمل.. تلك التي كانت تعاملني كخادمة وحسب.. أوه يا إلهي!! تعالى نحيب سوموفا ثم تناولت منديلها تضعه فوق فمها تعضه أحيانًا وتنفخ خديها أحيانًا أخرى مما زاد بهطول دموعها وغزارتها.

- كان الموقف محرجًا ومؤلمًا للغاية.. اتفقنا، قلت لها: باستطاعتك أن تتصرفي وتثقي بي. في الصباح الباكر، غادرت المنزل وهو لا يزال نائمًا بعد.. تركت له كلمة حفظتها من رواية إنجليزية جيدة.. كلمة مؤثرة جدًّا.

مسحت وجهها بمنديلها ثم تنهدت وأضافت:

- شعرت بوخز الضمير.. لقد أسأت إليه إذ جعلته يحبني..

طأطأ سامغين رأسه وتطلع إلى الأرض يخفي ابتسامته.. أثر فيه ما لاقته الفتاة من سوء طالع، واقتنع بأنه هو أيضًا عاش مأساة.. ولكنه لم يستطع أن يعبر عن الإحساس الذي أثاره ومحا آخر عبارة قالتها سوموفا.

صمت برهة وعاد يسألها بصوت خافت:

- كنت عشيقته؟

هزت سوموفا رأسها نافية.. لقد استرخت وتهدلت أكتافها ثم أجابت:

- أخذته أمه معها إلى ألمانيا وزوجته من ابنة أحد العلماء هناك.. وهو يقيم الآن في مصحة للأمراض العصبية.. كان أبوه سكيرًا..

تنهدت وتابعت:

- هل تعلم أنني تنبأت منذ أول يوم التقيته.. أن هذا الحب سيعود عليَّ بالويل؟ كم كان هذا يضنيني يا كليم.. آلمني جدًّا وأساء إليَّ.. حتى نادتني ليديا فجأة إليها، ولولا ذلك لكنت...

خاف كليم أن تعود إلى البكاء ثانية فسألها في الحال عمَّا تفعل آلين في باريس؟

- تتسلى! أوه.. كم أصبحت وقحة! سوف لا تعرفها.. كأرملة جندي.. كاللواتي نعرفهن في الريف! ومع ذلك فهي جميلة جدًّا.. لا توصف.. تحيط بها شلة من الرجال.. سيعودان عما قريب.. هي وليديا.

ونهضت تتأمل نفسها في المرآة.

- يجب أن أذهب وأهتم بزينتي.. أين؟

وبينما كانت تعتني بهندامها.. دخلت باربارا يتبعها ماراكويف يرتدي سترة رمادية اللون وبنطلونًا رماديًّا وحذاء جديدًا.. استقبلتها بسخرية بادية فقال:

- مقنعة جديدة؟

بعد نصف ساعة فقط تغيرت نظرة سامغين إلى سوموفا.. وبدأ يفكر بها من ناحية أخرى.. ليست مشرفة.. كان معلومًا أنها تعرف ماراكويف منذ زمن وأن علاقتهما كانت غاية في الخطورة.. استقبلته بتعجب فاضح:

- أهلًا برسول الخير والحقيقة.. كم تبدو غريبًا..

امتعض ماراكويف لمشاهدتها وأجابها بفرنسية ساخرة:

- سيضحك جيدًا من يضحك..

كان وقحًا ولئيمًا.. يدرك هذا تمامًا ولذلك استعاد مظهره العبوس.. وبينما كانت باربارا تعد الشاي، كان الحديث يدور بين سوموفا والطالب..

- لا. أنت تعرف بأنها مجرد أحاسيس فقط!

وسألت سامغين:

- هل تراه لا يزال يتحدث عن الحقول؟

- إن الماركسية لا تلائمك.. زأر ماراكويف مجيبًا..

- لا أعرف إذا كنت ماركسية.. لكنني كائن لا يستطيع التحدث بشيء لا يحسه.. ولذلك لا أتحدث إلى الشعب عن الحب..

تلفظ ماراكويف بكلمات بذيئة ضد المذاهب.

- أوه.. دعك من هذا، قالت سوموفا. لقد تبدلت الأزمنة.. وتطورت منذ كانت الثورات تقوم إكرامًا لحب المسيح.. ويبقى سؤال واحد يجب أن نعرفه:

- هل يوجد أيضًا مثل هذه الثورات!

- لا.. قال ماراكويف متأسفًا.

- نعم، أيها الجاهل، أعادت سوموفا وهي تضرب الطاولة بقبضتيها التي هي أشبه ببراعم الورد.

سكت الجميع وقررت سوموفا، بعد أن لاحظت امتعاض الجميع، قررت اللجوء إلى غرفة ليديا القديمة.. مر ماراكويف بيده فوق رأسه وقال:

- الماركسية تعني طبائع الشعوب.

- منذ متى تعرفينها؟ قالت باربارا تسأل كليم.

- منذ طفولتي!

- كما ترين.. قال كليم واستأذن بالخروج.

تركت تصرفات سوموفا أثرًا سيئًا في نفس سامغين.. كما أزعجه ألا تفارق ذكرى أيامه الماضية، أيام الطفولة، وخاصة بالنسبة لباربارا التي ما زال يراها دائمًا.. ولكنه لاحظ، في نفس الوقت، أن سوموفا ليست مملة.. كانت تعمل بجد ونشاط لتنتسب إلى أحد المعاهد العالية وتلتحق بدراسة إحدى الموضوعات الحديثة.. وهناك التقت بكليم.. وفي موسكو بالذات..

- يا لها من مجنونة.. تمشي دائمًا ونحس فجأة بأننا في حلم.. يسهل الضياع فيها يا كليم.. هل إيف تيكوميروف موسكوي؟ ألا تعرف؟ يجب أن يكون!

- لماذا؟ سألها كليم وقد آنسته ثرثرتها.

- لقد ابتعد..

- أنت لست موسكوية.. ومع ذلك لقد هلكت.. ثم تقرئين في نفس الوقت: «تاريخ المادية» و«فلسفة الأشكال».

- يجب أن نعرف كل شيء يا صديقي.

- أجد أن الكتب تلوث النساء، قالت باربارا بصوت أجش.

نظرت إليها سوموفا بتعجب وأجابت ممسكة بجديلتها:

- هذا ما كان يدعيه أستاذ في زيوريخ.. هو ضد المرأة.. ما اسمه؟ لم أعد أذكره.. إنسان شقي جدًّا.. إن السويسريين الألمان قوم أشقياء ولسانهم ماضٍ كحد السيف.

كانت تأتيه بالأخبار الجديدة كلما التقته:

حدثته عن الطلاب المأخوذين بنجوم السينما، وعن الفحش الذي حدث في عرس «سترنا» عند يار.. كانت قصصها فاترة ويسارية.. يجد فيها الكثير من الإفادة.. بينما يحكم بالسطحية على المحاولات الفلسفية التي كانت باربارا تبديها.. تتلفظ غالبًا بعبارات مستعملة:

- إن الآلام هي الظل المرافق للحب.

كانت أقوال باربارا تذكر كليم بإيفان درونوف.. يستلذها ويتمتع بفحواها وخاصة ما يرد فيها عن الالتصاق بالأعماق عند الجنسين المضادين. كان مفيدًا جدًّا أن يتعرف كيف يتخبط المحامون المشهورون والصناعيون الأغنياء، الرهبان الشباب، الممثلون، الممثلات، الطلاب والطالبات، في مثل هذه الدوامات البدائية للشعور الجنسي.

تذكر كلمات ماكاروف عن «تسلط المرأة الناعم والهدَّام» والعبارة التي قرأها في كتاب الأمير شتير شباتوف «انحطاط الأخلاق»! «إن النساء أقوى سلطة من الرجال».. وعندما تذكر كليم هذا، تطلع إلى باربارا وضحك في سره.

كان يرى أن باربارا معجبة به وتحاول التحرش بشتى الوسائل.. ومع كل حركة تقوم بها يعلوها الخجل ويرتعش أنفها. ارتبك وارتأى أن يقول لها:

- يجب وضع حد لهذا.

أجل.. لأن ماراكويف بدأ يتجهم وأن كليم نفسه سبب كل هذه التغيرات..

تملكه شعور قوي بالفضولية وقرر أن تستمر لقاءاته مع باربارا.. إذ كان يجد لذة بالتحدث إليها وخاصة عندما يعكر صفاءها ويتركها في دوامة من التلبك النقي.

بدأت الآن تغار من سوموفا وامتنعت عن استقباله في غرفة الطعام حيث يمكن أن تدخل مضيفتها فجأة.. أصبحت تستقبله في غرفة نومها التي بدت كتلك الغرف الخيالية التي نقرأ عنها في قصص موباسان.

لاحظ سامغين أن هذه الفتاة ستكون له ساعة يشاء.. فملامحها تدل على ذلك، وخجلها وارتباكها، عندما تشاهده، يؤكدان صدق نواياه..

كان يتملكه هذا الاحتمال دائمًا ويكاد أن يهجم عليها وينال منها ما يشاء.. وفجأة يعود إلى نفسه ويمتنع متسائلًا ما الذي يمنعه؟ أهي ليديا أم ماراكويف؟

وهذا ما دفع سوموفا كي تسأله مرة:

- ألا ترى أن هذه الفتاة تذوب حبًّا فيك؟

- يستحيل عليَّ أن أحب كل الفتيات اللواتي يهمن بي! أكد لها بغباوة.

- يا للمتعجرف الصغير، أجابت سوموفا متأوهة.

وذات يوم عبوس، لزم سامغين منزله وراح يتصفح مجموعة قديمة من صحيفة «منطقتنا».. فوقع نظره على افتتاحية تقول:

«بينما تتقدم الصحة والرفاهية في أوروبا..» واستمر المقال يتعرض للسلطات الحاكمة ويندد بإهمالها المتزايد في هذه المجالات الحيوية.. مما جعل كليم يتساءل: كيف غابت عن مقص الرقيب أشياء كهذه؟

عرف كليم، منذ الجملة الأولى، أن كاتب المقال هو رئيس التحرير نفسه..

كانت صحيفة فارافكا سيئة ومزعجة، غامضة.. أما روبنسون فهو الوحيد الذي استطاع أن يسلي سامغين.

وهكذا كان يبدأ مقالاته بالأمثلة والحكم الشعبية.. يستخلص منها ما يشاء.. ولنقرأ مقدمة إحدى مقالاته:

«كم مرة قلنا للعالم!».

بهذا البيت لكيرلوف ابتدأ واستمر حتى خلص إلى القول: «ولا يزال المسؤول يسمع ويأكل». وكأني بهذه الجملة تسأل رئيس التحرير أو الرقيب وتقول له:

- «أهذا ما كنت تود التعبير عنه يا جورج دندن؟».

كانت الصفحة الرابعة أجمل ما ورد في يومياته.. وفيها قرأ كليم:

(تحيط مدرسة سامغين الموسيقية الجمهور علمًا..).. «مكتب فارافكا التقني..».. «إدارة فيلا فارافكا تقول...».. «فارافكا فارافكا»..

«إنها استيلاء الباسان»، قال كليم في نفسه وابتسم بسخرية..

«تحيط، حمامات دوموغايلوف العائلية، الجمهور علمًا بأنها أضافت إلى القسم المختص بالسادة أنواعًا من دشات البروفسور شاركو الجديدة.. كما أضافت إلى قسم النساء مسابح معطرة».

كان يقرأ هذا عندما قرع الباب.. وما إن صرخ قائلًا: ادخل، حتى ظهر أمامه دونايف، أحذ تلامذة ماراكويف.. لم يزره مطلقًا ولذلك استقبله كليم بتعجب وهو يسوي من وضع نظارته.

دخل دونايف، كعادته، يضحك ويسير بخطى وئيدة.

- هل أنت بمفردك؟ سأل وانحنى يتطلع وراء الستار الذي يخفي السرير. عرف كليم عندئذ أن شيئًا سيئًا قد حصل.

- ليس هناك أحد. اجلس.

أحنى رأسه مرتين وجلس يتطلع إلى حذائه القذر يخفي رجليه تحت الكرسي، يقول بصوت خافت دون أن تفارق الابتسامة شفتيه:

- حسنًا.. لقد أوقف الرفيق بيتر كما أوقف الشماس أيضًا.. اعتقلوهما في سربوكوفو.. كما اعتقلوا فاراسكين وتوماس، هنا. أما أودينتشيف فلم أعرف عنه شيئًا بعد.. يقولون إنه في إحدى المستشفيات. ومما لا شك فيه أنهم جادون بالبحث عني أنا أيضًا.

سكت سامغين وسرت فيه قشعريرة الخوف والبرد.. يفكر بيوميدوف ولا يجرؤ أن يسأل:

- وشوا بهم؟

- هذا ما أتى بي إلى هنا، أجاب دونايف يتلمس بعض المجلدات فوق الطاولة أمامه.. وهل تعرف إذا كانت الرفيقة باربارا قلقة؟

- لا أدري.

- حاول أن تعرف.. يجب أن تنبهها.. هذا إذا لم تكن قد اعتقلت هي أيضًا.

- أظنها تحتفظ ببعض النشرات السرية ولا أجد مناسبة كي أذهب إليها..

- حسنًا، سأذهب أنا.. قال سامغين.

نهض التلميذ العامل ومد يده يصافح كليم والابتسامة تتسع فوق ثغره.

إذن لم تعتقل، اختر لي بعض الكتب. سمعت أنهم لا يمنعون القراءة في السجن.

- إذن لقد وشوا بهم؟

عاد كليم يسأل بصوت خافت ومرتبك.

- هكذا يبدو لي، أجابه دونايف بعد دقيقة صمت وقد أطبق عينيه يتطلع إلى الزاوية كمن يبحث عن شيء.. كان لدينا أشقر صغير هو سابوجينكوف. أبعدناه.. كان رعديدًا وحيوانًا.. ولعل هذا ما أساء إليه.

- وماذا سنفعل به؟ قال سامغين يسأل.. وقد عرف غباوة سؤاله..

وسأله دونايف بدوره:

- أين تريدني أن آخذه.. إذا لم أعتقل فسأذهب إليه.

لم يكن يبتسم الآن.. بل تجهم وجهه وعلا الغضب سحنته وحدق إلى كليم الذي ارتبك وقال:

- أجل.. بكل تأكيد.

- وداعًا.. اذهب إليها في الحال.

ابتسم من جديد وغادر الغرفة. لم يطمئن كليم إلى طيبة قلبه..

بقي في غرفته يتمشى ويداه في جيبه قبل أن يقرر ويذهب إلى باربارا.. قرر أن الذهاب واجب.. ولكنه سيذهب لزيارة سوموفا بحجة أنه يحمل إليها محاضرات البروفسور كيتشفسكي.

استقبلته هذه وهي تلوح بغلاف أزرق.. غلاف برقية على الأغلب.

- هل تعلم أن ليديا ستصل؟ ما بك؟

أخبرها قضية الاعتقالات بالتفصيل واعترته حيرة هي أقرب ما تكون إلى الفرح.

- لنتصرف بسرعة! قالت سوموفا وهي تدفعه إلى غرفة الطعام حيث تجلس باربارا مبعثرة الهندام، ترتدي قميصًا شفافًا يكشف عن كل مفاتنها.

- آي.. صرخت وأرادت أن تهرب..

ولكن سوموفا اعترضت طريقها وقالت:

- إياك والحماقات.. أين منشوراتك السرية؟ هل تحتفظين برسائل من ماراكويف؟ أعطني كل ما لديك.

قادتها سوموفا إلى غرفتها بسرعة واستند كليم إلى المدفأة يتنفس الصعداء ويقول: «لم يفتشوا هنا بعد».. ثم أحس بفرح قوي بدد قلقه وعجز عن استيعابه.

«لا يعقل أن تعود العلاقات إلى أصلها بيني وبين ليديا.. ولا أصر على هذا.. وإذا كانت حامل؟».

ولكنه قال أيضًا: «لو حدث وأوقفت لأثارها هذا بدون شك».

دخلت سوموفا إلى الغرفة تحمل بيدها رزمة من الرسائل وصرخت في وجه باربارا:

- اقذفي بالرسائل في الموقد!

واختفت..

ظهرت باربارا في الباب تبتسم قلقة:

- سآتي.. إنني أسوي هندامي.

- يا للأسف.. يجب أن أذهب إلى الجامعة.. قال كليم.

غادر المنزل وخرج إلى الشارع يفكر كيف سيلتقي بليديا وها هو الموقف الذي عليه أن يتخذه نحوها.

وبعد يوم مشحون بالأفكار القلقة، وكأنه عشية امتحان صعب، وقف كليم في المحطة ينتظر.. فجأة شاهد آلين تطل من إحدى العربات.. تطلعت إلى الناس بامتعاض وقالت:

- هل أنت حمال أعمى؟

تقدم منها كليم ورفع قبعته محييًا..

ردت عليه التحية بالفرنسية وناولته رزمة كبيرة وكأنه حمَّال.. تسير وراءه ليديا التي بدت باسمة تحمل حقيبة صغيرة وقبعة.

- صباح الخير، قال بهدوء ودون سرور.. لم يلحظ كليم التعب في عينيها.. تناول يدها يقبلها ويتطلع إلى بطنها متفحصًا.

غادروا المحطة وجلست إلى جانب آلين.

طلبت آلين، منذ وصولها إلى الفندق، أن يهيئوا لها إبريق الشاي.. وقالت تأمر خادمًا عجوزًا:

- أيها الأب.. ائتنا بإبريق شاي، مع طعام روسي كثير.. هل تعلم أنني عشت في الخارج مدة سنتين؟

- أجل.. أجاب العجوز بابتسامة أبوية.

نزلت ليديا في غرفة قرب غرفة آلين.. ومن شق الباب شاهدها تركض إلى سوموفاكي تفتح الحقيبة..

- علها أحضرت شيئًا عن أدب المهاجرين للوبا معها.. قال كليم في نفسه..

وقفت قرب الطاولة، فارعة القامة تصف أمام المرآة ما أحضرته من أدوات زينة من باريس..

لم يكن فيها ما يذكر بذلك الجمال الفتان قبل أن تغادر روسيا.. بدت وكأنها آخذة بالذبول والشحوب..

- أحب أن آكل، قالت.. إن الفرنسيين لا يأكلون أبدًا.. يتسلون فقط.. تراهم يمضغون دائمًا.. في الشعر.. وحتى في الحب.

كان صوتها يزداد قساوة.. حتى بدت وكأنها تود التعريف بما آلت إليه.. على عجل.

دخلت سوموفا وأغلقت ليديا الباب خلفها بقوة..

- آليا، سأعود بعد ساعة، قالت سوموفا واختفت..

وغمزت آلين بطرف عينيها.

- إنها تسرع لتبذر الثورة! أحب هذه الفتاة..

ثم سألت متنهدة:

- وأنت، هل تبذر؟ هل اشتركت بالمناوشات؟

سكتت وعادت تستعلم:

- هل رأيت توروبويف ثانية؟

ثم قصت عليهم، بعد أن فرغت من طعامها، شيئًا عنه:

- دخل عليَّ منذ آخر الشهر الأول يرتدي معطفًا والسيجارة في فمه.. أخبرته بأنني أكره هذا النوع من الدخان. «حقًّا؟» أجاب مندهشًا، ولكنه لم يرمه.. هكذا ابتدأت القضية..

جرعت نصف كأسها ومصت شفتيها ثم عادت تضيف:

- لم أكن لأتصور أبدًا.. إنه يسهل الالتقاء بوحوش جميلة مثله.. وخاصة بينكم. إن الناس بالنسبة له كصفحات الكتب التي تقرأ.. وعندما سألته: «متى سنتزوج؟» فاجأه سؤالي وظنني بلهاء.. «ما بك.. هل تظنينني أصلح لكي أكون زوجًا محترمًا.. أنا.. الرجل الآتي من الداخل».. أجابني، فهمت حالًا أنه على حق، هو، زوج؟ ثم أضاف: «وأنتِ.. بمَ لديك من مواهب.. أتصلحين لتربية عائلة؟ أم هل خلقت للحياة العائلية؟»، «وهذا صحيح أيضًا» قلت في نفسي: أجل، بكيت قليلًا.. هيا نشرب.. فلا شيء ألذ من الشرب.

شربت بشراهة ثم تركت شعرها يتدلى فوق كتفيها وصدرها.. قسمته قسمين وراحت تجدله ضفائر..

- عرفني إلى أصدقائه حتى إن أحدهم، وكان صاحب أعمال بترولية وغنيًّا جدًّا، طلب مني أن ألحق به إلى باريس.. كنت ساذجة في بادئ الأمر ولم أستطع التمييز بين الأمور بعد.. ولذلك تشكيت إلى إيفور. هز منكبيه وأجاب: «ثم ماذا.. إنه حيوان.. كلهم هنا على شاكلته». وأضاف يعزيني، وبقيت هنا أيضًا.. أشفقت على عيني وقلت: «سوف لا أبكي أبدًا.. يجب أن أجعل الآخرين يبكون..».

توقفت عن المضغ والكلام وراحت تتطلع، شاردة الذهن، من فوق رأس كليم.. الذي تنبه الآن إلى جمالها وبدا له فتاكًا لا يقاوم.

«لعل سوموفا وجدت الكلمة المناسبة: أرملة جنود».

دخلت ليديا مرتدية ثوبًا برتقاليًّا وتشد خصرها بحزام أخضر عريض.. كان شعرها رطبًا ولكنه مصفف على خير ما يرام.. متجعدة الوجه، في فمها لفافة تنفث دخانها بعصبية.

تناولت كوب الشاي وأعادته إلى الإبريق ثم قالت:

- اسكب لنا كوبًا أقوى.

- بالرغم من ذلك.. ففيه أغصان كفاية.. قالت آلين وهي تسكب الشاي على مهل. شعر سامغين بارتباك.. إذ جلست ليديا أمامه ورجلاها تحت ساقيها تتطلع إليه متفحصة..

- إنها لا تطلب شيئًا ولكنها مشبعة بالأسئلة، قال في نفسه.

قالت آلين وهي تجدل ضفيرتها:

- تعرفت إلى ممثلة فرنسية شقراء، ذكية، تعمل في دار الأوبرا.. آه يا صغيري كليم.. أودك لو عرفت كم هن ذكيات الفرنسيات! يصرفون عليهن مبالغ ضخمة.. قالت لي: إننا لا نطلب شيئًا نحن النساء.

- هذا ما يجعلنا فقراء.. كما ترين. أتذكرين هذا يا ليديا؟

- ماذا؟ قالت ليديا شاردة النظرات..

- النقاش الذي دار بينك وبينها.. وماذا قالت؟

- أجل.. أذكره جيدًا.. كانت خارقة النظرات فعلًا.

أجابت بسرعة جعلت كليم يظن أن هناك شيئًا لا تود الإفصاح عنه بحضوره..

- ربما كان هذا مجرد مغامرة قامت بها فتاة قروية روسية.. يعذبها الشعور بالجنس ولا تستطيع التفريج عن نفسها وإلا افتضح أمرها، قال في نفسه وتنبه إلى أن ليديا تحدق به.

لم تكمل هذه كوب الشاي ورمت اللفافة فيه.. ثم نهضت واقتربت من النافذة تزيل البخار عن الزجاج بمنديلها.

- ما الذي يقلقك هكذا يا كليم؟

أراد أن يجيب بكلمات ذات وزن كي تبقى محفورة في ذاكرة ليديا، ولكن مثل هذه العبارات لم تكن جاهزة لديه الآن.. كان يجول في خاطره شيء لا قيمة له.. قد يزيد المشكلة تعقيدًا إذا ما تلفظ به.. ولذلك اكتفى بأن يضيف بصوت خافت:

- أوقف بعض معارفي وقد يحين دوري أنا..

دخلت باربارا واندفعت نحو ليديا تضمها إليها وتشد عليها قائلة:

- يا عزيزتي.. أيتها الغجرية الجميلة!

ثم صرخت في وجه آلين:

- يا إلهي. يا له من جمال! كنت أعرفك جميلة بعد أن حدثتني ليديا.. ولكن ليس إلى هذا الحد.. لا يجرؤ على لمسك.. صرخت وهي تأخذ بيدي آلين وتهزهما.

سرت ليديا برؤية صديقتها وما تركه فيها لقاؤها من حبور.. جلستا متشابكتي الأذرع فوق الكنبة.. كانت باربارا تبكي ووجه ليديا بين يديها تحدق فيه وتقول:

- عزيزتي..

«كيف تنظر كل منهن إلى رفيقتها؟» تساءل كليم وهو يراقبهما.. ولكن آلين قطعت حبل أفكاره وقالت:

- عرضوا عليَّ العمل في الأوبرا.. سأقرر عما قريب.. «يجب أن نعيش حياتنا» كما أخبرتني صاحبتي الفرنسية.

ذهبت باتجاه المكتبة وجلست بين الصديقتين.. وفي الممر كان الخدم يتراكضون ويتصايحون.. وصرخ أحدهم بصوت حاد:

- الثلاثة عشرة، أيها الأحمق!

وفجأة ارتفع صوت آلين عاليًا يقول:

- أوه.. يا عزيزتي.. إياك أن تثقي بالاشتراكيين.. هم أيضًا يتطلعون إليك من الوسط..

وراحت تقص عليهم وتقول:

- في كريميه، رجل اشتراكي يجوب الشوارع حافي القدمين.. يرتدي قميصًا من الخيش يستر كل جسمه.. وله وجه صبياني على الرغم من أنه لم يحلق ذقنه منذ زمن بعيد.. يعمل حمَّالًا لدى امرأة تولستوية.. يجلب لها الماء كل يوم لتملأ خزان بيتها..

- هو أيضًا كان تولستويًّا، أضافت ليديا.

- صحيح؟ لا يهم. كان ينشد الأغاني الروسية بطريقة غريبة ومدهشة.. ويتطلع إليَّ كطفل ينظر إلى قطعة حلوى.

شعر سامغين بثقل الجو فتناول قبعته وقال:

- إنك بحاجة إلى الراحة.

- أجل يا عزيزي.. أجابت آلين ويدها فوق الأخرى.. أتأتي هذا المساء؟ شدّت ليديا على يده صامتة.. كما أزعجه أن تتبعه باربارا بنظراتها المغرية.. وبسرور فاضح غادر المنزل مستاء من برودة ليديا.. وهو الذي كان ينتظر أن تلقاه بحماس وشغف.. استمرت تنظر إليه بينما كان هو يرتدي معطفه ويفتح الباب لينصرف.

«يجب أن أجتمع بها وتدور بيننا محادثات مصيرية»، قال في نفسه ولم يعد إلى الفندق ذلك المساء..

عاد في صباح اليوم التالي، فأخبرته آلين أن ليديا ذهبت إلى دير القديس سرجيو.. كانت آلين تجلس أمام المرآة تسوي من هندامها وتقول بدون مبالاة:

- تقرر، كالأطفال، أمورًا غير منطقية.. وهذا لا يدل على أنها تفتقر إلى ميزات.. لا. لديها الكثير منها. أخبرتني بأنك طلبت يدها! احذرها.. ستكون امرأة صعبة المراس.. تبحث دائمًا عن أشخاص غير عاديين، فالناس يا عزيزي كالكلاب.. ينتمون إلى أجناس مختلفة.. لكن لهم نفس العادات..

- غريب أن أسمع منك مثل هذه الأقوال، أجاب كليم ممتعضًا.

- وأين تكمن الغرابة؟ لست بلهاء.

صمتت برهة وعادت تسأل:

- ماذا حل بليتوف؟ قالت ولا زالت منهمكة بأظافرها..

أخبرها كليم، مستاء، عن ليتوف وعلاقاته بالثوريين ولقائه بتوروبويف. أصغت إليه آلين دون أن تقاطعه ثم أضافت:

- إنه يوازي فلاديمير فاسيلتش من حيث الإفادة والقيمة..

- ألا تشفقين عليه؟

- كيف؟ قالت مندهشة.. لماذا تريدني أن أشفق عليه؟ أصيب بصدمة نفسية عنيفة.. كما أصبت أنا.. لتتزوجه ليديا! التي تبحث عن الرجال غير العاديين!

التفتت إليه وأعادت على مسمعه بحيوية ما أخبرها به تاجر شاب: كان له عم مليونير.. ومتزوج.. واتته الجرأة يومًا وقال بأنه سيدفع مبلغ خمسين ألف روبل إذا ما ظهرت امرأة الحاكم الفاتنة عارية أمامه.. حمل أعداؤه هذا الكلام إلى المرأة الجميلة. فوافقت هذه شرط أن ينظر إليها من ثقب الباب، راكعًا.. وهكذا فعل. التقاها ذات يوم وجهًا لوجه فتقدم منها وقال:

«أرجوك أن تصفحي عن حماقتي بحق المسيح.. إذ إن جمالك فعلًا أخاذ وأشكر الله الذي أتاح لي فرصة التطلع إليه والتلذذ بمرآه».

- لعل ذلك لم يكن صحيحًا.. ولكنه ممتاز على كل حال.. قالت آلين تتفحص كليم في المرآة..

وسألها هذا:

- هل دفع؟

- العجوز؟ نعم.

- لا أعتقد.

- يا لك من رجل مثالي.. قالت وهي تنظر إليه بغضب وتبتسم مع ذلك.. وهذا مما شجع كليم على السؤال فقال:

- ما الكمية اللازمة لموافقتك؟

- إن هذا المبلغ لا تملكه يا عزيزي! أجابت ثم اقترحت: ما رأيك أن نقوم بجولة قصيرة في المدينة؟

سارا في الشارع طيلة نصف ساعة ودون توقف ثم التفتت إليه تقول:

- إنني جائعة.

قادها سامغين إلى الارمتياج حيث اختارت طاولة في منتصف القاعة، وفي المكان الذي يستطيع الناس أن يشاهدوها جيدًا.. وعندما أتاها الخادم بلائحة الطعام قالت له:

- لا يا صديقي، تدبر الأمر بمعرفتك وآتنا بأطعمة موسكوية.

ابتسمت وقالت لكليم:

- وفي باريس كنت أقول للخادم: «أرنا حسن تدبيرك».. وهذا ما كان يحيره ويجعله ينظر إليَّ مندهشًا.

- وفي الحب أيضًا؟

- وفي الحب أيضًا.. أجابت جادة ثم زمَّت شفتيها وتابعت بصوت خافت: من الطبيعي أنك لاحظت بأنني أبدو مغناجة.. عاهرة؟ وزيادة في الإيضاح أقول لك: أجل.. أجل.. إن هذه هي المهنة التي أنوي اعتناقها.. وليحملكم الشيطان جميعًا يا أعزائي، أضافت هامسة والشرر يتطاير من عينيها.

- لست بعالم أخلاقي.. قال كليم بتلعثم.. كان يود أن يبدو لطيفًا وخضوعًا بقدر ما كان جمال آلين ومزاجها يثيرانه.. لقد حزرت ما كان يريد أن يقوله عندما تكلمت عن «مهنتها» وزادت من حيرته، كانت تنظر إلى الرجال في القاعة وتغمز بعينيها بتحدٍّ. عندئذ قال كليم في نفسه: يبدو أنها اعتادت هذا ولا تخاف عواقبه.. كان الانتباه الذي تبعته مزعجًا ومقلقًا.. شعر بأن الأنظار مسلطة عليهما ويحاولون الأخذ بكل ما تقوله.. وعندما جيء بصحائف الأطعمة المتنوعة، أجالت طرفها بالجميع وقالت تخاطب الخادم:

- رائع، ستصبح عما قريب رئيسًا للطهاة..

ضحك الخادم بدوره مسرورًا وانحنى يقول:

- اسمحي لي بأن أوصيك بشرب العرق ممزوجًا بعصير البرتقال.. ثم عليك بالنبيذ الأحمر اللذيذ والمعتق.

- أحب السقاة، قالت آلين ترفع صوتها بدون حياء.. إنهم الوحيدون الذين يصلحون لخدمة النساء في عصرنا، وبطرق ممتازة جدًّا. على فكرة، أين ماكاروف؟

ابتسم سامغين.

- اعترفي بأنك ستنقلينني من الساقي إلى ماكاروف..

- لا. ليس من الساقي.. لكن من المعاملة الرائعة.. أجابت بجدية.

- إنه يكمل دراسته ويقطن مع ليتوف وأشاهده أحيانًا.

- لماذا؟

- لست على ما يرام وإياه.

- كذلك هو؟

- ربما.

وعندما بدأت تأكل قال كليم إنها المرة الأولى التي يشاهد فيها سيدة تأكل بترتيب وأناقة كهذه، وبدا له أن الآخرين يحذون حذوها وها هم يتناولون ملاعقهم وشوكهم وأن السكون قد خيم على القاعة.

اكتفت من الطعام وقالت له قبل أن تتركه:

- أما الآن فسأعتني وأهتم بمستقبلي.

فجأة أتى تاغيلسكي من إحدى الزوايا وتقدم، متورد الوجه، يسأل كليم:

- من أين أتت هذه النمرة؟ من باريس؟ أوه.. صرخ يمتص شفتيه ويضيف: إن ذلك يبدو في الحال.

ابتسم سامغين بسخرية، وحاول أن يفكر بليديا ولكن تفكيره تحول عندما تخيل المرأة الصعبة المزاج التي يعرفها ليتوف.. كانت تجلس فوق مقعد، فظن كليم أنها تنظر إليه بقساوة وتساؤل.. فرفع قبعته احترامًا..

- هل خدعت؟ قال في نفسه والتفت إلى الطيف المجلل بالسواد الجالس بين الأشجار العارية. «لا، إنها نفسها.. تتجسس، الملعونة».

ذهب إلى باربارا يأمل أن يعرف بواسطتها أشياء عن ليديا، ولكنه صعق عندما شاهد ليديا تجلس في غرفة الطعام إلى الطاولة، ديوميدوف أمامها وباربارا مسترخية فوق الكنبة..

- أجل.. أجل.. صرخ ديوميدوف بوقاحة، إنها غلطتك.. غلطتك فقط! كان يستند إلى الطاولة ويمد ذراعيه باتجاه ليديا ملوحًا بها، يبعثر بعض الأوراق ويضرب فوق الخوان المجعد كي يسوي من تجعداته.. مد إلى كليم يده القاسية والباردة.. ثم سحبها فجأة.

- صباح الخير، قالت ليديا وبنفس اللهجة التي سمعها منها في المحطة.. وبعد ذلك التفتت إلى ديوميدوف وقالت له: حسنًا.. أكمل!

عاد هذا الأخير يتابع حديثه لكن بصوت خافت الآن وبسرعة.. مختصرًا الكلمات..

جلس كليم إلى جانب باربارا.. تناولت قطعة حلوى من علبة أمامها وناولتها إلى سامغين تقول:

- إنها تحوي كحولًا في الداخل.

وسأل كليم هامسًا أيضًا:

- كيف عرفت هذا؟

هزت باربارا كتفيها بصمت، بينما تابع ديوميدوف حديثه بصوت عال وبلهجة المنتصر:

- إن صاحبك ماراكويف رجل غير شريف.. فهو يعري الحقيقة ويخدعك، نعم! إن ما يعمله العجوز فيدروف يتلاءم وأفعاله! أنا أعرف ذلك العجوز جيدًا.

بحث كليم كي يعرف ماذا قالت له ليديا باستثناء التحية.. كان يجلس وراءها وجرب أن يتمثلها وهي تنظر إلى ديوميدوف.

- يجب معاقبة الرجال الذين يتركون النساء تحكمهم.. ولا ينتج عنك أي شيء روحي.. سوى المقاطع الشعرية الصغيرة.. والتابلوهات الباهتة.. والروايات.

- يا للخرافة! إن هذا يدمي قلبك، قالت باربارا بهدوء.

كانت ليديا ترجوه دون أن تتحرك:

- انتظر، فاريا..

بينما أضاف ديوميدوف بصوت غاضب:

- إنك مخطئة..

ولكن كيف تسكتين يا ليديا.. لِمَ لا تردّين؟ قالت باربارا ملحة:

- كيف هذا؟ ليس هناك من حياة روحية؟ والفن؟

- لا تعرفين شيئًا، أجاب ديوميدوف صارخًا، يجب عليك أن تقرئي النبي هنوش الذي قال: «إن الملائكة الساقطون... هم الذين علموا الفن لبني الإنسان». الملائكة هؤلاء من هم؟

تبين كليم وجه ديوميدوف جيدًا الآن.. نظرة قاسية في عينيه الزرقاوين.. شاربه الأصفر المرتعش غضبًا وذقنه المرتجفة.. كانت المرة الأولى التي يراه فيها منفعلًا هكذا.. فقد كان ديوميدوف ذا شخصية غير اعتيادية.. يرتدي أجمل ثيابه وكأنه ذاهب إلى حفلة زواج أو اعتراف.. لم تكف يداه عن التحرك، تارة يشبك أصابعه ببعض وتارة ينظر إليها متأملًا.

- تستخدمين هذه الفنون الكاذبة والمغلوطة إما لإثارة اللحم أو لإغراء الرجال ذوي الحياة الصعبة.. إنكن أيتها الوديعات عابدات للشيطان الملعون، إنكن مصدر الشر في الحياة.. مصدر إثارة غبار الجريمة.. كل ما يحيط بنا من ويلات يصدر عنكن وحسب.

تململ ديوميدوف في مكانه وضرب فوق الطاولة بقبضته مما أرجف ليديا.. استقامت في جلستها ثم نهضت تقرب منكبيها من بعض وكأنها كتاب، تود الانغلاق على نفسها..

كانت باربارا تأكل الشوكولا بنهم.. تثقب القطعة من جانبها وتمتص السائل داخلها وتضع ما تبقى منها في فمها تلعق شفتيها ثم تمسح أصابعها بمنديلها.. شك سامغين في أمرها.. لا شك أنها كانت تتلذذ برؤية ديوميدوف وليديا أكثر من تلذذها بحلاوة الشوكولا.. تسر بلقائهما.. كيف استحالت هذه الحمقاء إلى سكون عميق تثقل كاهلها كلمات هذا الإنسان المجنون.

- إنها مخلوقة محتالة، فكر في نفسه وراح يتطلع إليها مشدوهًا، ويصغي إلى صوت المبشر اللاهث الذي ما إن يستريح برهة حتى يقول من جديد:

- منذ حواء وأنت تأتين بالأعمال المخيفة.. تجسد قابيل في الفردوس.. وقايين على الأرض كي يصبح للإنسان عدوًّا..

- كان قايين أول مواليد حواء، قالت ليديا مذكرة، ثم نهضت وابتعدت باتجاه المدفأة.

اتكأ ديوميدوف إلى الطاولة ونهض بدوره، متثاقلًا.. وكأن عيناه تكادان تخرجان من محجريهما.. مستطيل الوجه.. متراخي العضلات..

- أجل.. أجل.. قايين.. قال بتلعثم وغمز بعينيه.. قايين، وماذا بعد؟ فقد أغرى الشيطان حواء..

- يتوجب عليك أن تقرأ التوراة على الأقل يا ديوميدوف، قال كليم يبتسم بهدوء.

كان ينوي أن يقول هذا بلطف واحترام.. ولكن الشقاوة تسربت إليه رغم إرادته.. ولاحظ أن هذا لم يعجب ليديا، ومع ذلك استمر يقول:

- يجب أن تتثقف وإلا هددت الفكرة.. ولكن أظنك لم تحسن استعمالها بعد.

- إنني رجل بسيط، أجاب ديوميدوف ممتعضًا.

- تمامًا، قال كليم موافقًا.. وعليك ألا تنس هذا.. أظنك قرأت الكثير من تولستوي.

- وبعد هذا؟

- ولكن تولستوي كان متعبًا من تعقيد الحياة المتحضرة اللانهائية.. وبدل أن يجد حلًّا، زادها تعقيدًا.. يحق له النقد لأنه يعرف كثيرًا.. ولكن أنت؟ ماذا تعرف؟

- إن الحياة مستحيلة، هذا ما يحدث، أجاب ديوميدوف.

- كفى يا كليم.. إنك لا تجيد التحدث.

نطقت ليديا بهذه الكلمات بلهجة جازمة وقاسية في آن واحد.. وقفت الآن وراحت تنظر إليه مؤنبة.

أحس كليم بأن بلعومه كاد يجف فسعل وقال:

- سيئ؟ ربما.. ولكنني أرفض تشجيعًا مصدره أنت.

- حسنًا.. سأذهب.

نهض ديوميدوف من كرسيه على مهل، متأسفًا، ثم غادر الغرفة مسرعًا..

- انتظر.. صرخت ليديا قائلة وسارت إلى الغرفة الثانية تلوّح بمنديلها..

نظر كليم إلى باربارا فرآها تهز رأسها مؤيدة وتقول بصوت خافت:

- لقد لقنته درسًا قيمًا.. كان يستحقه.

- أكيد.. إن هذا لا يزعزعها.. هل لاحظت كم باتت متعالية، متكبرة؟ اكتسبت هذا من رحلتها إلى باريس..

- هل تنظر إلى باريس كنظرتها إلى بحيرة سيلو؟ تمتم كليم يصيخ السمع ويستعد لمشاحنة مع ليديا.
صفعت الباب وراءها، في الممر، والتفتت باربارا إلى كليم تقول:
- لقد ذهبت معه.
- لماذا يسرك هذا؟ سألها كليم وهو يتفحصها بقساوة.. وأنا كذلك يجب أن أذهب.. إلى اللقاء.
ولكنه لم يكن على استعجال كي يذهب.. كان يقف أمام باربارا ممسكًا بيدها ويفكر بالقلق الذي سيساوره عندما يعود إلى منزله ويخلو إلى نفسه.
عاد إلى بيته ووجد فوق طاولته مغلفًا كبيرًا بخط ليديا.. تأمله بجدية ودون أن يترك مكانه مد يده ليأخذ المغلف الكثيف.. ترنح وكاد أن يقع فضرب بيده فوق الطاولة.. فوق المغلف بالذات.
- أتصرف كالأحمق، قال في نفسه، وجلس إلى طاولته.
فض المغلف ووجد فيه خمس أوراق مكتوبة بخط جميل..
كانت الرسائل الخمسة موجهة إليه من ليديا:
«هذه هي الرسائل التي كنت أنوي أن أبعث إليك بها من باريس»، قرأ وهو لا يعلم لماذا أمسك بنظارته خوفًا أن تقع من فوق أنفه، «ولكنني لم أتوصل بعد كي أعبر كفاية عما أريد أن أكتبه، أنت تعلم بأنني لا أحسن الكتابة بقدر ما أحسن القراءة.. لا أجيد سوى السؤال.. أبعث إليك بهذه البدايات للرسائل الخمسة.. ولعلها تصلك لتفهم ما كنت أنوي أن أقوله. لست أدري تمامًا ما أريد، أو بتعبير أوضح، لست أعلم ما لا أريد.. لا أريد أي علاقة معك.. ظننتك البارحة لا تصدق هذا وتنوي أن تسوقني إلى تجربة الحب ثانية معك.. ولكن يجب أن أشرح لك لماذا لا أريد العودة إلى هذا مطلقًا. أود أن أشرح بطريقة تقنعني أنا قبلك.. من الصعب يا كليم إبداء الرأي..» وعلى ورقة أخرى طالع عبارتين:
«كنتَ المرآة التي تعكس كلماتي وأفكاري.. لم تمنعني عن سؤالك أبدًا.. ثم ساعدتني كي أعرف رعونة الأسئلة وتفاهتها».
وتقول في الرسالة الثالثة:
«هناك أناس يعيشون على الهامش، لا صالحين ولا طالحين.. ولكن عندما تحتك بهم وتقف أمامهم وجهًا لوجه يوحون إليك بالأفكار الرديئة.. كانت لي معك أوقات لا تشبه شيئًا البتة، ليست عن «أواصر الحب».. إذ يعقل أن أكون قد جربتها مع أناس آخرين.. أقدر منك كما جربتها أنت مع امرأة أخرى..».
وفي ذيل الرسالة أضافت بخط رديء:
«من المحتمل أن تكون من أولئك الذين يسمونهم «عاطفيين».. يتسلون بدل أن يحبوا.. وأنا كذلك لا زلت أجهل ما هو الحب وكيف يكون؟.. لا أود أو أنوي أن أجرّب هذا ثانية».
وقالت في مقطع آخر:

«أعتقد أنني تحدثت إلى إنسان كما تحدثت إليك.. إن اكتفاءك الذاتي يزعجني، شعرت أبدًا بأنك لا تفهمني ولا تعلق أهمية على ذلك أو حتى تفكر به.. وهذا ما دفعني كي أكون صريحة جدًّا بالنظر للعناد الذي تتميز به.. إنني صريحة مع نفسي ولذلك أقول لك بأنني لا أفهم ماذا حدث بيننا؟ من المؤكد أن هناك شيئًا ما هو نتيجة أخطائي.. لا أذكر أنني قلت لك يومًا أو اعترفت لك بالحب.. أظن أنني أشفق عليك.. كنت تتصرف بسوء وعدم إدراك.. ومن الطبيعي أن يثير كل هذا فضول فتاة مثلي.

كانت كلمة «من الطبيعي» محذوفة.

«لا تغضب.. على الرغم من أنني لا أجد فيه ما يسيء إليك..».

استاء سامغين مما ورد في الرسائل وقذف بها بعيدًا باشمئزاز.. فوقعت إحداها على الأرض.. التقطها وراح يقرأها:

«أعتقد أن الذين يدعون بأن الثورة ستجعل الحياة مريحة مفيدة.. أظنهم قومًا بسطاء. ماذا تعطي الثورة؟ لا أدري أبدًا في رأيي، يلزمنا شيء آخر.. شيء آخر أقسى وأشد.. شيء يريهم ما هم صانعون.. ما يهم لو فنيت نصف الإنسانية وجن النصف الآخر؟ عندما تنضم إلى الثورة.. ترى أنك لم تستعد شيئًا. ينقصك الشعور اللازم كي تقوم الثورة..

وقرأ في الصفحة الثانية:

«يجوز أنني أتكلم معك ككلب يتحدث إلى طيف ولا يفهمه أبدًا».

جمع سامغين الرسائل وضمها في قبضته.. ثم أطبق عينيه المنهوكة ورفع نظارته ووضعها أمامه فوق الطاولة..

- كنت بالفعل أنتظر منها شيئًا كهذا.. ومن العبث أن نحتقرها. لا أظنها طبيعية.. ولعل في ذلك كل شيء.

جلس إلى الطاولة وعاد يطوي الرسائل المنثورة أمامه. قرأ مرة ثانية الرسالة الثالثة وخبأها بين صفحات جريدته وابتدأ يمزق الرسائل الباقية بسرعة.. كان الورق قاسيًا كالجلد.. كان عليه أن يمزق الأغلفة أيضًا.. وبقيت له ورقة ناعمة لا شك أنها انتزعت من كتاب.

«ها أنا يا كليم، في المدينة التي يعتبرونها أدهش وأجمل مدينة في العالم.. أجل، إنها مدهشة حقًّا.. جميلة، وقورة، فرحة، يقولون، لكني أشعر بأنني مستاءة. عندما تكون الحياة حلوة لا نقترف الجرائم..».

لم يجد كليم صعوبة بتمزيق هذه الورقة، نظرًا لنعومتها.. ثم ابتعد عن الطاولة وتمدد فوق الكنبة..

«كنت مصيبًا وقريبًا من الحقيقة عندما فكرت بأن هذا الحب لا وجود له إلا في خيالي»، قال في نفسه وعاد يطبق جفنيه..

أتته الخادمة بإبريق الشاي، ووضعته أمامه فنهض وسكب لنفسه كوبًا وراح يجرعه على مهل:

«يا للخيبة! أنا أيضًا فشلت في الحب» قال وهو يضرب زجاج النافذة بإصبعه على مهل.. أما الآن فقد زال الشك وعادت إليَّ حريتي.

ورغم هذا فقد بقيت أحاسيسه متضاربة.. لم يتوصل إلى إقناع نفسه بهذه الفكرة دون أن يستحقها.. لقد أهين بشراسة، وقال في نفسه: لو كنت أكثر صراحة معها...».

بدا كل ما يتعلق بليديا من أشياء لطيف وقاسية أشد ثقلًا وأكثر التصاقًا.. كانت كثيرة ومدهشة وتعود إلى ذاكرته على الرغم منه.

تذكر ما قاله ليتوف وهو مخمور، عن آلين:

- إنها كسني الثالث والثلاثين.. هل تعلم أن ضرس العقل بدأ ينبت.. إنها مزعجة جدًّا بالنسبة للسان.

ومساء اليوم التالي تحدثت إليه سوموفا هاتفيًّا وسألته لماذا لم يأت ويرافق ليديا إلى المحطة؟

- أصبت بوعكة صحية ولم أغادر المنزل، أجابها.. وبدون أن يدري أضاف، سأذهب إلى قريتي في عيد الفصح.

- هل سنذهب معًا؟ ما رأيك؟

ولكنه لم يكن ينوي الذهاب.. ولم يذهب.. بقي في موسكو طيلة الربيع وحتى أيام الامتحان يتردد على الجامعة بانتظام ويعمل بجدية في المنزل. يزور يوم السبت بريس.. وكثيرًا ما استاء من هذه الزيارات على الرغم من الوجوه الجديدة التي كان يلقاها هناك: طالب من كلية الهندسة المدنية: طويل القامة، متجهم الوجه.. وضابط من المعسكر.. غاية في الأناقة.. كما تعرف إلى بعض التجار والأدباء المرموقين.. كانوا جميعًا يعدّون وفجأة أعلن تاغيلسكي بلا مبالاة:

- 643 مليونًا من الأطنان.. اسمحوا لي أن أقول لكم بأن الرقم مغلوط.. لقد ارتفعت موازنة بنك الفلاحين كثيرًا..

كان ستراتانوف يذرع أرض الغرفة إيابًا وذهابًا ويشتم الألمان، والإنجليز واليابان..

يذهب إلى منزل باربارا نادرًا كي يتسلى بعض الوقت.. يلعبون لعبتهم المعتادة ويثرثرون مع لوباشا.. التي كانت تسيء إلى اللعبة. كما يستمعون إلى معلومات سوموفا عن حياة مختلف الفرقاء وعن تطور حركة «التحرير».. كما تدعوها..

كانت تتفق دائمًا مع باربارا.. تتحدث إليها وكأنها شقيقتها الكبرى.. تقدم إليها الهدايا الصغيرة.. رغم البخل الذي تميزت به.

أحب كليم ذات يوم أن يمزح بتطرف مع باربارا، وبحضور سوموفا بالذات.. فاستاءت لوباشا منه وقالت:

- إذا تجرأت وأعدت هذه الأقوال أمامي مرة ثانية، قلعت أذنيك وفقأت عينيك..

- ولكن هذا مزاح فقط! صرخت باربارا تحاول إصلاح الحال بينهما..

عرف كليم أن لوباشا تملك الفن والرغبة، أشياء لا يملكها هو ولكنه يحترمها بالذات.. جعلت من تانيا كولوليكوفا قديسة في نظره.. تخدم الإنسانية جمعاء، كانت تعمل في الصليب الأحمر (السياسي)، فجعلت من نفسها خطيبة ماراكويف وابتدأت تتردد لزيارته في السجن.

- يجب على باربارا أن تتحمل مسؤولية هذا. قال كليم..

- سأقوم به لأن هذه الأخيرة لا تدري كيف تتصرف.

- وأضاف كليم، سأمت من ماراكويف وقصصه.

- أظنك طرفًا آخر في الموضوع، أجابت لوباشا منفعلة وراحت تتأمله مؤنبة.

- إنك تسيء التصرف معها يا كليم.. على الرغم من أنها لطيفة جدًّا.

وابتسم سامغين بسخرية من جديد.

- مراوغة، قال وهو يصدر صريرًا بأسنانه.

لا، لم تكن لوباشا تشبه تانيا تمامًا والتي ندمت طيلة حياتها؛ لأنها لم تكن أحسن مما كانت عليه، كان تواضعها العالي كخادمة غريبًا جدًّا عن مفهوم لوباشا.. فهم سامغين هذا وأتى ينظر إليها كمقلدة تهكمية تعيد شخصية آناسوكوفا إحدى بطلات رواية بسكوف (على حد السيوف).

كان سامغين يضع هذا الكتاب جنبًا إلى جنب مع (الشياطين) لدوستويفسكي و(البحر الهائج) لبيسمسكي.

كانت لوباشا دائمًا على عجلة من أمرها. تخاف من التأخر. تنظر إلى الساعة كل صباح، لا تأوي إلى فراشها قبل منتصف الليل. وتقول:

- غدًا سأستيقظ في تمام الساعة السادسة والنصف.

يمكنها أن تخيط وتقرأ في نفس الوقت، وتتلذذ بقضم قطع البسكويت من محلات (فيلنبوف) الشهيرة والتي تحبها كثيرًا.. تطرح على كليم الأسئلة الصعبة:

- إن نظرية صفوف العمال تقضي على كل ما هو إنساني، أليس كذلك؟

- تمامًا، ثم أضاف كي يزيد في حيرتها وقلقها ويخيفها..

- إن الإنسانية والعراك هما مبدآن متناقضان دائمًا.. إن رازين وبوغاتشيف هما فقط اللذان خلقا «العصيان الروسي دون رحمة أو شكر» ويمتلكان المعلومات الكافية حول مفهوم صراع الطبقات..

إن ناتشيف هو الوحيد بين مثقفينا الذي فهم منهم ما تطلبه الثورة من الإنسان.

أحس سامغين بأنه يتكلم إلى نفسه أقل مما يتكلم إلى لوباشا.

- تطلب إلى الإنسان أن يقتنع وألا يكون سوى الخادم وضحية التاريخ بدل أن يحلم ويفكر في حرية فردية تسمح له بخلق مستقل.

- إن التاريخ بالنسبة للإنسان مجحف جدًّا.. أقسى من الطبيعة. إذ إن هذه الأخيرة لا تطلب منه سوى إطاعة الغرائز التي وضعتها فيه، بينما التاريخ يغتصب ثقافته.

«أليس هذا ما يقوله تولستوي»، ساءلت لوباشا نفسها بصوت عال.

نظر كليم إلى باربارا فشاهدها تجلس كتلميذة وقد أخذت بمعلمها، تنتظر أن يطرح عليها سؤالًا لا تعرفه.. تتلفظ بكلمات أحيانًا، وترمي من ورائها إلى تهدئة طباع المعلم.

- يا له من تفهم مؤسف، تبديه بالنسبة للحياة.

- إنه متشائم، قالت لوباشا.

ولم تترك الكلمات لتقلقها أو تخيفها.

- أنا أعجز عن التفكير دون أن تتملكني الشفقة، قالت.

وجد سامغين عنادًا لديها.. عنادًا لطيفًا ولكنه لا يتغير.. فأبدى تحفظًا وشك فيها على الرغم مما أبدته من صراحة وتفهم. إذا تكلمت أحيانًا عن نفسها مبتسمة وساخرة في بعض الأوقات.. فإنما تفعل هذا كي يصبح تفهمها صعبًا.

وقد اقتنع سامغين بهذا واعتاده بعد أن شهد لقاءها وقارنه بلقاء لوباشا مع ديوميدوف. كان هذا الأخير يصل كعادته: لا يتكلم بل يجلس ولا يحيي أحدًا وكأنه خارج من حائط..حليق الرأس.. ينظر إلى البعيد ويفكر بأشياء كثيرة لا يبوح بها إلا نادرًا.

- بقيت مدة ثلاثة وعشرين يومًا في المستشفى، أضاف يقول، ثم طلب مساعدة مالية من باربارا حتى يستقر في مكان ما ويحصل على عمل يعيش منه.

توقفت سوموفا عن العمل ونظرت إليه بتحدٍّ.. وما إن رآها تتطلع إليه حتى قال يسألها مازحًا:

- لماذا تنظرينني؟ ألا يروقك شكلي؟

- حدثتني ليديا فارافكا عنك كثيرًا.. إنك متطرف.. أليس كذلك؟

- إنني رجل، أجاب عابسًا وأشاح بوجهه عنها.

فوجئ سامغين بغزارة وقساوة اللؤم الذي أحاطت به لوباشا ديوميدوف. كانت عيناه تلمع وتشع منها البرودة.

أجبرته أن ينطوي على نفسه كحيوان يتألم.. ويقول:

- إنك تمزحين.. أظنك تهزأين.. انتظري.. سيضحكون منك هكذا.. وعمّا قريب.

- إن السلحفاة تسير ولكن متى تصل؟ أجابت.. وعادت دهشة كليم لتزداد وهو يسمعها تتكلم هكذا بعطف وحنو:

- هل تودين التعرف إلى رجل أفكاره كأفكارك؟ إنه مزارع يعتنق مذهبًا مفيدًا جدًّا.. يملك كتبًا كثيرة.. ستعيشين في الريف وتقر عينك.

- لا أحب المذاهب، أجاب ديوميدوف هادرًا وهو يشد على يد سيدة البيت.. ودع كليم بينما لم يمد يده ليصافح سوموفا لكنه أعلن لها عن استيائه:

- لا أود الذهاب إلى الريف.

وعندما غادر المنزل، سأل كليم لوباشا:

- لماذا تريدينه أن يتعرف إلى معتنقي المذهب الجديد؟

- وماذا تريدني أن أفعل؟

- أراك تجدين الكفاءة في نفسك لتنقية الأعضاء.. كل حسب ذوقه ومعتقده.

- تمامًا! وبدون خطأ! أجابته دون أن تنظر إليه أو ترفع رأسها عن ماكينة الخياطة..

أراد سامغين أن يهزأ منها ولذلك عاد يقول ملحًا حتى أفضت إليه، مكرهة، بِمَا يجول في خلدها وقالت:

- إن الحقل مركز جاهل تمامًا.. وتفكر قليلًا.. ولذلك فكل الأفكار تفيدها شرط أن تثير الحافظات الكامنة.

- هذه هي فكرة أصيلة، قال سامغين ساخرًا.. ولكنها أجابته دون أن تتطلع إليه:

- إنك لا تعرف الريف أبدًا.

منعت كليم أن يتخيل مستقبله ويفكر به أو أن ينظر إلى نفسه كرجل ذو أهمية، مستقر، وقد اكتسب الود والاحترام.. منعته من أن يعتبر وخاصة الآن أمام سيدة المنزل المتواضعة والتي يمكنها أن تتحدث بأسى عن كل شيء.. سيدة بإمكانها أن تدير مجتمعًا حيث يلتقي أناس يهتمون بالنواحي الثقافية ويقلقون إذا ما تراءى لهم أن هناك خطرًا يهدد مستقبلها.. وحيث كان هو، كليم، يهيئ الجو ويعد المدافع ويؤلف الشرائع.

كانت سوموفا تتحدث عن المستقبل بلهجة صبي يحب حفلات الصراع ومقتنع أن الأحد القادم هو موعد عراك آخر.

كان عليه أن يقتنع بما يسمع.. لقد كانت حالة تفكيره تأخذ مظهر العدوى السريعة الانتشار ويحس بأنه منقاد فعلًا إلى مثل هذه الأقوال وتصديقها.

لقد أصبح مجتمع كل الأفكار ويعود الفضل في ذلك إلى أفكار لوباشا وباربارا.. أصبح مجتمع الآراء والتفاعلات والنكات التي تقال الآن.

جرب أن يجمع كل بطاقات الزيارة التي تعبر عن الطابع السياسي.. في البدء، بحثت له سوموفا عن العديد منها.. ثم انصرف هو بنفسه إلى البحث وأصبح بعد فترة وجيزة مالكًا لصور تمثل فنلندا تدافع عن دستورها ضد النسر الغازي، الموجيك يحرث أرضه والقيصر الروسي يسير من ورائه، وكذلك الجنرال والبابا والعامل والتاجر والعالم والشحاذ معتمرًا سلاحًا هو عبارة عن شوك وملاعق؟ «واحد في العربة، وسبعة مع الملاعق»، تقول الأسطورة.

حصلت باربارا على رسم لا نعرف أين وجدته لتهديه إياه.. كان هذا الرسم عبارة عن قرية نصف مهدمة يقف على أطلالها القيصر عاريًا والتاج على رأسه.

كان هناك رسم كاترينا محاط بالوحوش الكاسرة.. وكذلك تشيدرستون وإلى جانبها بدا بوبلدوننزيف بشكل طائر الخفاش بالإضافة إلى رسوم أخرى لاذعة..

كان كليم يعتبر اقتناء مثل هذه المجموعة مغامرة خطيرة.. ولكنه خلص إلى الاعتزاز والفخار بها وانصرف إلى تكملتها كالقاضي يهيئ الأوراق الثبوتية لدعوى ما.

لم يكن كليم يتردد على الجامعة إلا نادرًا.. وخاصة بعد مسيرة طلابية حامية قامت تطالب بالعودة إلى مبدأ عام 1864.

- إننا نصر عليه، صرخ أحدهم.. كان طالبًا جميلًا يجلس إلى جوار كليم وفي سنته الجامعية الثانية.. أشقر الشعر قصيره..

- وأنت أيها الرفيق هل تصر عليه؟

- لا أعرف تلك المعاهدة، أجابه كليم باقتضاب.

- وأنا كذلك لا أعرفها أبدًا.. وعاد يصرخ من جديد: اتفقنا.. لنرسل طلبًا للوزير.

«كان فارافكا على حق: إنها معارضة مثيرة» قال سامغين مرة ثانية يحدث نفسه.

كان يحفظ كالرجل الآلي، دون تردد أو تباطؤ.. ثم عرف أنه أخطأ الآن تمامًا عندما اختار كلية الحقوق.

لم يكن ليرى نفسه كمحام يقف ويدافع عن المجرمين.. عن الحرائق والرذائل.. وعلى العموم لم يكن يميل إلى تصنيف الرجال الذين اكتشف لديهم ما اكتشف من غموض ورياء بطريقة أو بأخرى.. كان ينظر إليهم وكأنهم حجر عثرة في طريقه يتنافون مع مبادئه الخاصة.

تردد إلى المفرزة الجنائية في محلته خمس أو ست مرات. لم يسبق له أن زارها قبل الآن مطلقًا.. حتى الكنيسة لم يزرها إلا نادرًا.. ظنًّا منه أن باحتها هي ساحة المحكمة ومذبحها منصة يجلس إليها القضاة ومستشاروهم.. وفي الغرفة رسوم معلقة للقيصر ورسم آخر لأحد القديسين، خلف المذبح مباشرة.. ويشبه الكورس أو الجوقة بالمجرمين والمحامين..

أخطأ في المرة الأولى.. إذ وجدهم يحاكمون جماعة من اللصوص.. ثلاثة من المحتالين يتغامزون ويتهامسون وكأن لا دخل لهم بالأحكام القاسية التي سيلفظها القضاة بحقهم.

بدوا وكأنهم يدركون تمامًا ماهية القضية.. أنصتوا يحدقون الآن من جديد بالقضاة.. يجيبون عن الأسئلة الملقاة عليهم باختصار وتهذيب ميكانيكي يفوق سرعة أسئلة القاضي وطلاقتها، وشراسة تعليقات المدعي العام وتفاهتها. واحد من الثلاثة فقط، حاد النظرات، أشقر الشعر أجعده، حاول بإلحاح تبرئة رفيقيه وإبعاد التهمة الملصقة بهما ولكنه لم يفلح. كان هناك محاميان يتحدثان إلى بعضهما كالمغنين في الجوقة ولا يعيران أي اهتمام يذكر لموكليهما.. أما القضاة، بينهم من يثير إلا واحدًا فقط، قصير القامة، يجادل المتهم بإلحاح ويمنعه كلما هب واقفًا ليقول:

- هل تسمح لي أن أقول!.. هل تأذن لي أن أذكرك بأن...؟

سأم سامغين المنظر وبدأ يحصي الحضور في القاعة.. كان هناك ثلاثة وعشرون رجلًا وتسع نساء. كانت إحداهن ضخمة الجثة طويلة الشعر تشبه ممثلة تلعب دورًا في إحدى مؤلفات أوستروفسكي.. دور الفاجرة الجشعة. عندما لاحظ أن أكثر من عشرين شخصًا اجتمعوا لمحاكمة ثلاثة فقط، ظن أن القضية غاية في الأهمية وتستحق مثل هذا الاهتمام. ومرة ثانية وقع على قضية أثارت دهشته وإعجابه بسبب ما احتوته من قساوة ودهشة وأشياء أخرى تفوق التصور.. جلس في قفص المتهمين أربعة موجيك متوسطو الأعمار وإلى جانبهم جلست امرأة عجوز صغيرة الأنف والعينين، مستطيلة الوجه شاحبة اللون. كانت التهمة الموجهة إليهم جميعًا هي أنهم قتلوا امرأة عجوز ظنوها ساحرة.

جلس رئيس المحكمة إلى منصة يحيط به القضاة المساعدون.. كان قصير القامة مربوعها.. ضرب المطرقة الخشبية وقال بصوت متراخٍ يشبه إلى حد بعيد صوت امرأة يقول:

- هكذا تعترف بأنك كنت الأول الذي تعرف إلى القتيلة، وعرف أنها ساحرة.

- لماذا الأول؟ كانت القرية كلها تعرف ذلك.. ولكن الريح سمحت لي فقط أن أشاهد الذنب، كانت هي تغسل عند النهر وكنت أنا أصلح زورقي هناك، ثم هبت الريح تعرّيها.. عندئذ شاهدت الذنب يا سعادة الرئيس.

- انتظر! هل شاهدت شعرًا على الذَّنَب؟

- ما هذا؟ سأل المتهم بلهجة غير الواثق من أقواله.

ابتدأ الرئيس يشرح له القضية وانحنى الناس المحيطون بكليم يستمعون إلى الشروح وكأنهم يأملون سماع شيء مدهش أو مثير لم يسمعوه قبلًا. استمع المتهم إلى أقوال الرئيس ثم هز رأسه عاليًا ورفع كتفيه بامتعاض وهدر قائلًا:

- هذا ما يعرفه الجميع.. لم يكن على الذنب من وبر، بل كان يشبه ذيل الأرنبة.. بدا وكأنه خصلة من الشعر الطويل.. هذا كل ما رأيت..

ابتسم القضاة وضحك الجمهور.

- سكوت.. سأضطر إلى إخلاء القاعة، صرخ الرئيس يقول مهددًا، ثم عاد يلقي على المتهم بعض الأسئلة الأقل جرأة من هذا، وأعلن رفع الجلسة.

غادر سامغين القاعة مبهورًا، ممتعضًا.. مرت بضعة أيام وإذا به يعود إلى المحكمة من جديد. كانوا يحاكمون شابًّا قوي البنية طويل القامة قتل أباه.. يدافع عنه محام شاب مشهور في المدينة.. يتكلم بصوت هادئ ورزين لا انفعال عليه أو ارتباك. كان واضحًا أنه حائز على سهولة التلاعب بالألفاظ.. ويمتلك سرها ويسخرها لمآربه؛ كي تؤثر على المدعي الذي سامحه والد موكله وعفا عنه.. كانت الحركات أو الإشارات متعددة وبدأت لهجة الكلام تعلو وتعلو وإذا به يعلن:

- يجب تصديق أقوال لوميروزو.. وأنه كان محقًّا في كل ما أدلى به.. إن العضو الإجرامي موجود.. وبدافع الشعور الإنساني واستنادًا إلى مادة الإجرام التي تسيء إلى المجتمع رفض دريل أن يعترف به.

سُر سامغين تمامًا من هذه النهاية .. وفكر أن يسجل اسمه في كلية الهندسة المدنية كما أشار عليه فارافكا ذات يوم.

ثم اعتراه شعور غريب ومزعج في آن واحد.

ترك منزل باربارا ذات ليلة مقمرة وراح يسير على الكورنيش.. كانت الساعة متأخرة تلك الليلة.. وقد هطل المطر الربيعي الخفيف فرطب الشوارع وأنعش الجو الحار وزاده رطوبة، بالإضافة إلى رائحة الأوراق والأزهار الندية. كان يحس بارتياح وفكَّر بأن يقيم مع باربارا إلى الأبد.. إذ إنها كانت تود ذلك جدًّا ويرتاح هو إليها في نفس الوقت.. لأن باربارا وأفينيغنا تحسنان الاعتناء به.

لقد اكتشف في باربارا صفة إيجابية.. كانت تحب منزلها وتحافظ دائمًا على تزيينه.. ففهم سامغين إنها «تستعد لاستقبال سيدها».

- أهذا أنت يا سامغين؟ صرخ به رجل مر بجانبه.. وأخذه تاغيلسكي من ذراعه.. قبعة مرتدة إلى الوراء.. يرتدي بذلة رمادية سميكة.. كان مخمورًا ووجهه مغطى بالبقع الحمراء.. واسع الحدقتين يحدق بكليم وكأنه يخاف أن يغمز بعينه.

- تسعى وراء العواهر؟ لقد فات الأوان وأتيت متأخرًا جدًّا. ثم ماذا سنجد منهن هنا؟ وأضاف بصوت وقح: أكره الفتيات.. أستخدمهن لمآربي الجنسية وأبتذلهن فيما بعد، أقول لهن بصراحة: «أحتقركن لأنكن شاركتني الحب». يضحكن.. أجل يقهقهن. الساذجات.. ومع ذلك فكلهن لصوص.

تذكر سامغين أنه قرأ في مجلة «الأوراق الموسكوية» الخلاعية حادثة مشينة بين طالب وفتاة.. كان اسم الطالب يبدأ بحرف ت.. اتهم هذا الأخير خادمة البيت بأنها تسهل الدعارة وسرقت منه بعض أمواله.. لكن الشهود أفادوا أن هذه المرأة لعبت دور الزبون كل الوقت وأمضت ليلتها مع رجل آخر: إذن لم يرها الطالب أبدًا وكان يخدع نفسه.. كان عنوان الحادثة: خطأ أحد العلماء.

رفع تاغيلسكي قبعته محييًا واستطرد يثرثر ويقول:

- أما بشأن الفتيات، فأنا أقيم هذه الأيام برفقة الأستاذ كوتشين. إنك ولا شك تتذكر فضيحة البترول مع الآنسة ميتروفا التي أحرقت نفسها في السجن(4). أرادوا أن يؤلفوا قصة مثيرة حول الموضوع.. ولكنني لا أظن ذلك.. إذ ليس لديه ما يدل على أنه ليبرالي.

(4) أوقفت هذه الفتاة لتدخلها في السياسة وعندما اعتدى عليها الأستاذ كوتشين أقدمت على حرق نفسها بعدما بللت جسمها بالبترول. (المترجم)

ابتسم تاغيلسكي من «فصاحته» وأضاف:

- لا، إنه ليس سيغدريفيلوف وبوجه عام ليس رجلًا مخيفًا.. لكنه «صاحب مبادئ» وأنت تعلم البقية..

تأرجح وكاد أن يقع.. لكن سامغين أمسك به.

- انتظر، نسيت في المطعم كتابًا مهمًا وقفازي.. قال تاغيلسكي يفتش في جيوبه ويتطلع إلى قدميه وكان هناك يلبس القفاز، لنرجع، هل تريد؟ اقترح على كليم.. إن المكان ليس ببعيد.. سنشرب زجاجة نبيذ وندردش بعض الوقت.

دون أن ينتظر موافقة كليم أمسك به واستدار من حوله بخفة ولباقة وبقوة إنسان نصف مخمور. كان يفيد سامغين جدًّا بتصرفاته في دائرة بريس.. ولعل الشيء الذي كان يميزه دائمًا هو نحافة جسمه حتى ظن البعض أنه يحتفظ به رشيقًا هكذا للبذلات الرسمية والمقاعد الفخمة التي تتناسب مع مثل هذه الأجسام.

- أكنت في زيارة بريس منذ زمن طويل؟ سأله سامغين.

- تناقشنا فترة لأطرد الملل وأروح عن النفس، أجاب بعدم مبالاة.. وزاح الباب برجله وطلب إلى الخادم أن يبحث له عن الكتاب والقفاز.. وفي المطعم بدا أقل تجهمًا وأكثر نشاطًا.. وعندما جلس إلى الطاولة، وزجاجة النبيذ أمامه، سكب كأسين وراح يقص على كليم بصوت خافت وسرور واضح:

- إن لكوتشين هذا، أفكاره المفيدة جدًّا، قال لي ذات يوم: على الرغم من أن الماركسية مبدأ صلد كامل البناء، فأنا أجدها غير مقبولة؛ لأنني أنتمي إلى طبقة البورجوازيين القدماء. يجب أن يكون لديه الشجاعة الفائقة ليصرح بمثل هذه الاعترافات.

أجال طرفه في كليم ليعرف مدى التفاعل الذي تركته فيه هذه العبارة.. ثم مد لسانه وعاد يلعقه بشفتيه المكتنزتين.. كالكلب. كانا يجلسان قرب طاولة في مواجهة غرفة صغيرة حيث فرقة صغيرة من الموسيقيين تضج وتعزف على الأرغن.. ضجة كبيرة ودخان كثيف.. وجلس في آخر القاعة، منفردًا، يهودي مرهق الأعصاب كما يبدو من حركاته يتلاعب بأصابعه العشرة ويطرد من أمامه دخان رجل روسي ناصح يجلس أمامه.

ضحك تاغيلسكي من هذا المنظر وصمت عن الحديث، ثم عاد يعب الخمرة بشراهة ويتحدث إلى كليم.

قال لي أيضًا: «أعتبر أبناء طبقتي بلهاء وخونة، ينقصهم الذكاء؛ لأنهم يدعون هذه الفلسفة التاريخية تتأصل في نفوسهم كمبدأ.. إذ إن قانون التاريخ الحقيقي والذي لا يناقش.. هو الاستفادة التامة من قوى الطبيعة وقوى الإنسان كذلك.. وبقدر ما كان الخضوع مضطهدًا بقدر ما تكون الثقافة عالية». ما رأيك بهذه الأقوال؟

سكتت الجوقة الموسيقية ولم يملك اليهودي الوقت ليرفع صوته ويقول بانفعال:

- ولكن، من يقبل أن يبني مصنعًا في مكان لا أحد فيه؟ يلزم سبع ساعات من السير المضني للوصول إليه!

كسر الرجل، الذي يشبه وايت إلى حد بعيد، الجمجمة البيضاء، قدم نصفها للسيدة ثم نادى الخادم بصوت فيه تأنيب:

- يا خادم! أين النخاع؟ ماذا تقدم لنا؟

استدار اليهودي مرتبكًا ولاحظ أن تاغيلسكي يتأمله ويسخر منه، فامتعض قليلًا ولم يجب بشيء، وعاد الأرغن يعزف من جديد. تناول تاغيلسكي جرعة من كأس النبيذ أمامه وانحنى يهمس في أذن سامغين:

- ألا تظنه فتى شجاعًا؟ سأله.

- حاد، ربما، أجاب سامغين.

- ربما.. وأخبرني بأن الحكومة سترفض تطبيق الأحكام القاسية على السياسيين وخاصة في أمور الإدارة وتتحاشى إحالتهم إلى المحاكمة.. وهكذا تتمكن من أن تظهر للشعب من هم أولئك الذين يدفعون حياتهم ثمنًا للحقيقة.. لأنهم يحبون الموقوفين.. المحتقرين، المهانين.. الذين يتعلمون إهانة وتحقير الحضارة..

- عندنا.

- أجل وعن هؤلاء أكلمك.

ثم مد إلى سامغين علبة فخمة من اللفائف الناعمة وقال:

- هل لاحظت كيف تجعل الماركسية الأمور والعلاقات أكثر تدهورًا؟

رفع سامغين كتفيه على مهل.. وبينما كان يمسح نظارته، كان كذلك يصغي بانتباه ويشك في ذلك الرجل الأنيق.. الذي لم يكتف بالتحدث عما سمع.. بل ودار يخبر الغير بما اكتشفه هو واخترعه.

- إنه يحاول الإساءة إلى كل معارفي.. كما يحاول تضليل آرائي.. قال كليم في نفسه.

خفت وطأة السكر عن تاغيلسكي وبدا أكثر رزانة.. كما اتخذ صوته بهجة العزم والجد.. تنساب الكلمات من فمه عذبة ويلمع بريق السرور في ناظريه.

- يجب أن تعترف يا سامغين أن حقد العالم هذا الذي يتعلمونه هو ما يعلمونه بالذات لبقية معارفهم.. كبوجاركوف مثلًا؟ سأل تاغيلسكي وسكب ما تبقى من زجاجة النبيذ في كأس كليم ثم نظر إليه وابتسم وكأنه يتحداه.

- لا أدري ماذا يتعلم بوجاركوف وماذا يعلم؟ أجاب سامغين باقتضاب.. ولكن يبدو لي أن في العالم المتحضر رجال كثيرين.. غرباء، والذي يدل وجودهم على أن هذا العالم لا يسير على خير ما يرام.

قال هذا وعاد يفكر في نفسه: «إنه يحاول أن يدعني أتكلم!».

ولكي يحول الحديث إلى نواحٍ أخرى سأل:

- ستجري امتحانات الدولة وتشترك فيها. أليس كذلك؟

هز تاغيلسكي رأسه موافقًا وضرب بقبضته الصغيرة الوردية فوق الطاولة وقال:

- وماذا ستصنع فيما بعد؟

- هل ستفاجأ لو انخرطت في سلك الوظائف الحكومية؟ سأل وهو يتأمل سامغين ويحدق فيه ويمر بلسانه فوق شفتيه.. كانت عيناه تعكس نورًا لمصباح.. بينما وقفت أطراف شاربيه.

- ما المدهش في هذا؟ أنا محام، وأنت مدعٍ عام.

- وتصور أنك أنت متهم سياسي وأنا المدعي.

- ألا تدينني؟

- لا. يا للكتوسين من شيطان.. إنه يقول: «بقدر ما يكون المتهم ذكيًّا وبقدر ما هو مجرم». وأنت ذكي جدًّا، وأقول هذا بصراحة ودون أي مواربة. هذا ما تدل عليه ملامحك.. ألا يجدر بك الصمت.

فرغ المطعم من رواده وراح الخدم يتطلعون إلى الزبائن المتأخرين بامتعاض وتساؤل.

- يجب أن نذهب الآن.

وسارا في الشارع مدة دقيقتين صامتين.. كان سامغين ينتظر أن يعود تاغيلسكي إلى الكلام.. وهكذا فعل هذا الأخير..

- إن روسيا تحتاج «إلى حكماء» يهدئون الأجواء ويلطفونها.. ألا تذكر من قال هذا؟ سأل تاغيلسكي.

وأجاب كليم:

- أنت الذي قاله.

- لا، إنما رددته فقط. أظنه ليونتيف أو كاتكوف.

- لا أعرفهما.

وبعد مسيرة بضع خطوات عاد تاغيلسكي يسأل:

- ألا ترغب أن نزور شقيقتين؟ إنهما يستقبلان الزبائن اللطفاء ليلًا ونهارًا؟ والمكان قريب من هنا.

رفض كليم.. وعندئذ صافحه تاغيلسكي وضغط على يده بشدة وأنزل قبعته جيدًا في رأسه مغطيًا جبهته وأذنيه ونصف وجهه ثم استدار في آخر الشارع وانحرف إلى زقاق يسير بخطوات إنسان واثق من نفسه.

«ولطف الجو؟» قال كليم في نفسه وهو يتأمله.. يظن نفسه فطنًا.. ويشبه ألفونس مغري النساء المثريات.

- إنه يكذب.. سوف لا يدخل إلى قصر العدل.. ليس لديه الفطنة والذكاء.

أنهى كليم اجتماعاته الجامعية وقرر أن يمضي بعض الأيام في منزله، ثم يذهب إلى القوفاز مارًّا بالفولجا.. لم يكن يرغب أبدًا في الذهاب إلى منزله؛ حتى يتسنى له رؤية والدته، ليديا فارافكا، والسيدة سبيفاك.. كان جميع الأشخاص، الذين هم من هذا الطراز يثقلون كاهله ولا يأتونه بأي فائدة، سيجد هناك

أيضًا صحيفة «منطقتنا» ويشاهد درونوف وأرينيكوف.. وحتى في هذا لم يجد تسلية.. ولكن الصدفة قادته إلى طريق آخر.. فبينما كان يهيئ حقيبته ويستعد للسفر إذا به يتلقى برقية من أمه تقول:

«أبوك مريض.. أنصحك بالذهاب إلى فيبورغ».

كان والده رجلًا منسيًّا بالنسبة له، ولذلك لم يقلق أو يرتَع عندما علم بمرضه.. ولكنه سُر لأن الزيارة تحولت عن البيت وأن الطريق الجديد هو نوع آخر. ترك عند باربارا الأشياء التي لا يحتاجها وغادر إلى فنلندا.

استقبلته هناك امرأة مترهلة وبعد أن استمعت إلى شروحه قادته إلى غرفة نصف مظلمة حيث كان يرتاح والده، إيفان سامغين، مستلقيًا فوق كنبة مريحة.

- كلي.. ي.. ي.. م.

قال الأب وهو يعاني سكرات الموت ويدعو منظره إلى الأسى والحزن. تطلع سامغين الابن إلى هذا طيلة بضع دقائق ثم أحنى رأسه وأغمض عينيه وفتحهما فجأة.. شاهد امرأة عجوز أيضًا تقيم عند رأس المريض.. فقالت تخفف من حدته:

- إنها النوبة الثانية.. كانت الأولى أخف وطأة ولم تكن خطيرة.

- ماذا سأفعل هنا برفقة امرأة كهذه؟ سأل كليم نفسه. ولكي لا يسمع والده أصاخ السمع إلى الموسيقى المنبعثة من المطعم خلف النافذة. توقفت الموسيقى برهة وعادت لتعزف في هذه اللحظة التي دخلت الغرفة امرأة ثانية، أكثر شبابًا وحيوية من الأولى، رشيقة القامة ترتدي فستانًا رماديًّا.. تطلعت إلى كليم بدهشة واستغراب ثم قالت تسأله:

- لست ديمتري ولكنك كليم؟ أوه.. فهمت الآن.

مرت بيدها فوق الشعيرات المنسدلة فوق جبهة المريض ومسحت بمنديلها العين الدامعة والوجه المبلل والمغطى بالشعيرات البيضاء والسوداء.. شعيرات ذقنه.

إن أول عمل قامت به هو أن أوعزت إلى كليم أن يغادر غرفة والده في الحال. تطلع هذا إلى وجه أبيه وأحس بأن شيئًا يسحق قلبه واستاء من الاستماع إلى الموسيقى الصاخبة.. دون أن يتوصل إلى إسكاتها دقيقة واحدة.. وإلى الأبد.

وفي غرفة الطعام المغطاة بألواح الخشب الأبيض.. رأى سامغين إبريق شاي ومن حوله عدة أكواب.. ثم قالت المرأة هناك:

- اسمي أينو ويمكنك أن تناديني بآنا ألكسندروف.. ثم أشارت إلى الباب المؤدي إلى غرفة ثانية، غرفة الأب، وقالت:

- إنها أختي كريستين.

أشعلت سيجارة وعادت تسأل:

- كيف عرفت؟ لقد أرسلت البرقية إلى ديمتري.

شرح لها كليم أن أخاه لا يستطيع المجيء لأنه تحت مراقبة البوليس وحوّل البرقية إلى والدته.

- لا، قالت وهي تسكب الشاي، لم يتلق البرقية مع أنه أنهى خدمته.. ومنذ شهر تقريبًا.. لدينا رسالة منه.. سيكون بيننا عما قريب وبعد أيام.. كانت تتحدث إليه بصوت حازم لا يخلو من الشدة والصرامة.. تتكلم الروسية بطلاقة:

- هل ستنتظره لتتحدثا عن الإرث أم لا؟ سألت كليم ودفعت إليه بكوب الشاي.

ارتبك كليم من معلوماتها الوفيرة عن أخيه وأجابها بتهذيب ولطف وأنه لا يفكر الآن بالإرث مطلقًا، ولم يأت إلى هنا من أجل هذا. ضحكت واستطردت:

- لا. قالت: إنها مسألة مزعجة ويجب الانتهاء منها كي لا تزعج من جديد.. سأقولها لك بالاختصار: هناك وصية، نعم يمكنك أن تقرأها وترى: البيت وكل هذا- ولوحت بيديها- وكثير من الأشياء الأخرى تخصني أنا؛ لأن هناك أطفالًا.. ولدين ذكرين.. هناك شيء قليل لديمتري ولا شيء لك.. شيء مجحف كما أظن.. يجب إحلال العدالة بينكما عندما يأتي أخوك.

كرر لها كليم ثانية، إنه لا يحتاج إلى شيء.. ولكنها ضحكت وأضافت:

- هذا لأنك ما زلت فتى ولا تعرف قيمة الدراهم وأي فائدة تعطيها. وأشرق وجهها للمرة الثانية وزادها رونقًا وجمالًا.. وإذا به يتجهم فجأة وترتسم فوقه علامات الاحتجاج والاستنكار:

- كان والدك روسيًّا حقيقيًّا، كالولد، قالت، واحمرت عيناها قليلًا. واستدارت تصيخ السمع إلى الموسيقى. كان البيت يبدو هادئًا وكأنه منعزل عن المدينة كلها.

«تتكلم عن أبي وكأنه لا يوجد أبدًا»، قال كليم في نفسه.. بينما استمرت هي، وكأنها تناقش إنسانًا آخر تضرب بكعب حذائها وجه الأرض..

- كان لطيفًا صالحًا.. يعرف كل شيء.. لكنه يجهل معرفة نفسه تمامًا.. كان يجلس هنا وهناك.. في أرجاء الغرفة.. لكنه لم يكن يفكر في نفسه. دائمًا يفكر في البعيد. هناك أناس كثيرون من هذا الطراز.. لا يعرفون الاستقرار في منازلهم، إنهم الروس، على ما أظن.. هل تفهم؟

وأحنى كليم رأسه موافقًا.

ثم أضافت بصوت خافت جدًّا:

- بينما كان يلعب «الكانسترا»، كان يفكر بالرياضة التي كانت تثير الشعب الإنجليزي، كان هذا يقلقه ولذلك كان يخسر دائمًا.. لكنهم كانوا يحبونه لأنه كان يخسر.. عندما لا يلعب كان يربح ويربح.. هكذا كان دائمًا.. غريبًا وعجيبًا.

وجد سامغين، وهو يحدق فيها، ملامح والدته وهي في عامها الثلاثين.

لم يكن هذا التشابه في صديقة والده الذي يعجبه ويثيره.. حتى إنه لم يفاجأ عندما هزت رأسها وقالت له:

- كانت صحته قوية جدًّا.. يتعاطى النبيذ قليلًا ويكثر من اللحوم.. لم يكن يعرف كيف يتصرف.. كفلاح يقدر حصانًا لا يخصه.

وجاءت الأخت الثانية وألقت بوزنها فوق مقعد مستطيل تمد رجليها إلى الأمام وتتنفس.. ثم سألت أينو كليم أين ينزل؟

- سأبعث من يعود بحاجياتك وتبقى بيننا.. وعندما حاول كليم أن يرفض استطردت تقول:

- سأخجل إذا كان الولد لا يقيم حيث سيموت والده..

على العموم، كان كل شيء يسير وكأنه ليس هناك أب يعاني حالة نزع أليم. توفي إيفان في اليوم الثاني، وحوالي الساعة السادسة صباحًا.. وعندما كان كل من في البيت نيامًا، فقط أينو كانت تسهر.. إذ إنها هي التي دقت باب غرفة كليم وقالت بصوت تكاد تخنقه العبرات:

- مات إيفان.

كانت أينو تسير وراء النعش متشحة بالسواد، مرفوعة الرأس.. كان وجهها متجهمًا ولم تكن تبكي.. وحتى عندما أنزلوا النعش إلى الحفرة.. رفعت رأسها وهزت كتفيها ثم انحنت على مهل. أبدى كليم الرغبة كي يعجبها وسألها، وهم في طريق العودة: أين الأولاد الآن؟

- طبعًا ليسوا هناك.. عندما يكونون صغارًا لا يحتاجون إلى رؤية أب يموت أو أب مريض.. ولا حتى أي شخص آخر.. أخذتهم إلى والدتي منذ زمن بعيد.. هناك عهدت بهم إلى أخي.. وهو مهندس زراعي.. متزوج وليس له أطفال.. وهكذا رحبت امرأته بأطفالي واعتبرتهم كأولادها.

أراد كليم أن يغادر في اليوم التالي.. ولكنها فوجئت بقراره ومنعته من الذهاب.

- كيف؟ لم تشاهد أخاك منذ سنوات.. أولست مشتاقًا لرؤيته وانتظاره، ما زالت الفرصة تسمح بذلك؟ شيء سيئ.. كما يجب أن تتداولا في أمر الوصية وتنفيذها.

خجل كليم وقال إنه ينوي زيارة فنلندا قبل أن يصل أخوه.

- حسنًا، يجب أن تذهب وتشاهد سيومين! قالت: سأعطيك عنوان أصدقائي وتذهب حيث تشاء وسيعملون على ترفيهك..

سار في قنال سايما وزار كوتكا، هليسنغفور، وآبو.. أمضى فترة شهر سائحًا هنا وهناك في هذا البلد الذي لم يكن يعرفه قبلًا إلا في كتب التاريخ والجغرافيا وكتاب آخر لم يذكر اسمه، لكنه حفظ عنه هذه العبارة عن ظهر قلب:

«ها أنا في قلب البلد الدافئ.. بلد المستنقعات والبحيرات والغابات، بلد الجرانيت والرمل.. بلد الأطفال والعبوس والطبيعة الهادئة».

كان يحس أن في تلك الجملة حقائق راهنة.. يتقبلها دائمًا عندما يجد فيها نفعًا وراحة بال. كان يشاهد بين صخور الجرانيت والغابات طرقًا جيدة وكأن لا وجود لها في روسيا.. يشاهد مباني مدرسية ضخمة ومراعي خصبة قرب الغابات الشاسعة.. كما شاهد أن كل شبر من هذه الأرض كان محروثًا بعناية فائقة.. كما انتشر الفنلنديون يعملون بجد ونشاط ضد المستنقعات والصخور.

* * *

كان يسر جدًّا وهو يشاهد ما يصنعه هؤلاء الناس: إذ بنى كل منهم مسكنًا له حيث شاء وأراد.. كان كل منزل يشبه التحفة وكأن البناء بناه لسكنه الخاص.

تذكر سامغين، يوم كان طفلًا أنه قرأ «كاليفالا» الذي أهدته إياه والدته.. كان عبارة عن كتاب شعري ولم يعد يذكر منه شيئًا.. بدا له مزعجًا، لكن والدته أصرت على قراءته وحتى آخر سطر منه.

- ها هو الشعب الحي.. يستحق أن يكون حرًّا، قال كليم في نفسه.. ثم تذكر بألم المدائح التي تطلق على المواطن الروسي وعمق الهوة بين الشعبين.

«أجل. أجل.. إنهم يعرفون كيف يعيشون» قال بعد أن زار عدة بيوت وأحسنوا وفادته واستقباله.. استقبله جميع أصدقاء أينو.. كانوا يعرفون تمامًا الحياة والفن الروسي.. ناقشوه في أمور عديدة وسر جدًّا بينهم.. كانوا يعرفون بلده كما يعرفون كف اليد..

* * *

استقبله أخوه بسرور وتحفظ..وبقليل من التفكير وعدم الإدراك.. أمسك بكتفيه يضغط عليهما حتى كاد المسكين أن يصرخ من شدة الألم.. ضحك وغمز بعينيه وراح يتفحص كليم ويحييه بصوت هادئ:

- باسم الله.. لقد كبرت وتغيرت جدًّا.. حسنًا هل نتعانق؟

كان ديمتري يرتدي قميصًا كاكيًّا وبذلة متعددة الألوان.. تشبه إلى حد بعيد أزياء الفلاحين القدامى.. شعره قصير جدًّا.. حليق الذقن مستدير الرأس كالموجيك بالذات.. يشع من ناظريه نوع من الفرح ممزوج بالامتعاض.

إنني هنا منذ ستة أيام، قال بصوت جهوري وكأنه يود الصمت المخيم على جو المنزل.. وبفضل السلطات المختصة هنا، قمت بنزهة طويلة.. استمعت إلى أغان جميلة ورائعة.. وفي هذه الأثناء.. كان الأب- وتطلع إلى أينو- أجل.. يكفي هذا، لقد فات الأوان، ولا لزوم للعودة إليه.

توطدت أواصر الصداقة، ظاهريًّا، بينه وبين أينو. لاحظ كليم، من وراء دخان سيجارته، أنها تتطلع إلى ديمتري وتشمله بنظرة حب عذري.. نظرة عادية لدى بعض النساء عندما يبدين اهتمامًا ببعض المراهقين المفيدين..كما وجدت الوقت الكافي لتقول لكليم:

- إنه يشبه أباه أكثر منك، كما أظن.

قالت هذا عندما كان ديمتري يخرج من الغرفة في هذه الأثناء.. ثم عاد يحمل بيده منفضة سجائر ذهبية.

- هذه هدية مني لك.. صنعت تحت إشراف إليزابيث بيتروفنا، في أوستوغ. لا أظنها سيئة.. أليس كذلك؟ كما جمعت هناك بعض المعلومات حول موضوع عن هذا الفن.. وأحضرت لأينو هدية مماثلة مقدمة من القيصر ألكسي..

سر كليم بالهدية جدًّا وقال:

- ألم تسأم هناك؟

- أبدًا.. إنها منطقة ممتازة وغنية جدًّا.

«تبدو الحياة سهلة، بالنسبة لأناس مثله» قال كليم في نفسه بينما كان يصغي بانتباه تام لأقوال ديمتري يتحدث عن صيد الأسماك والرحلات.

كان ديمتري رائعًا يشرب الشاي ويستفيض في رقة وأناقة:

- شعب من أقوى الشعوب.. وحيله من أقوى الحيل.

- أتذهب إلى البيت؟ سأل كيم.

- إلى البيت؟ لا. أجابه ديمتري ينفي ويمسح شاربيه بكفه وقد دخلت أطرافها في فمه مما زاده متعة وحيوية.

- أنت تعرف أنني لا أحب فيرافكا كثيرًا.. كما أن هناك تلك الوريقة الصفراء: «منطقتنا!»، والشيطان يعرف! يقولون إنه يستولي على الجميع: البيوت والناس والغابات.

«من الحمق أن يتلفظ بهذه الأشياء أمام شخص غريب» قال كليم في نفسه بينما استطرد أخوه قائلًا:

- سأذهب إلى بسكوف.. إذ إن العواصم وجامعات المدن محرمة عليَّ.. سأبقى في بسكوف حتى الخريف القادم، وبعدها سأذهب إلى بولتفا.. كي آتي إلى هنا، طلبت فرصة خمسة عشر يومًا شرط أن أذهب كل يوم إلى أقرب مركز بوليس وأثبت وجودي.. وأنت كيف تعيش؟ إذا لم تخني الذاكرة، فالماركسية لا تروق لك؟

تريث كليم وابتسم يفكر في نفسه: «لعله ابتدأ».

ثم تذكر توميلين وقال بصوت حازم:

- لكي نفهم جيدًا.. يجب ألا نؤمن حالًا.. إن الشك هو الذي يقوي الإيمان ويثبته.

- وأنا مع هذا الرأي، قالت أينو تهز منكبيها.

تطلع إليها ديمتري ثم تطلع إلى أخيه وصرَّ بأسنانه واتسعت دائرة وجهه ونبتت شعيرات ذقنه.. لوح بيده خلف كتفه وتنهد بعمق ثم تابع يفرك بخديه:

- إنك تعلم ولا شك أننا مجبرون على التفكير الكثير هناك.. فالطبيعة موجودة أينما كان.. لكن الرجال هم القليلون.. إنه بلد قاس.. وهناك فراغ يجب أن نملأه.. عندما نقلت إلى ميزين..

- لماذا؟ سأل كليم.

- الشيطان وحده يعرف! كانوا يظنون أنني أفكر باللجوء إلى بلد آخر والهرب من أوستوغ.. وهكذا حصل.. إذ بعد مضي ثلاثة عشر شهرًا أرسلت إلى هناك.. لست متأسفًا على ما حدث.. لكنني تمتعت بمشاهدة المناظر الخلَّابة وازددت علمًا وثقافة.

مر بيديه فوق لحيته ووجهه.

- إذن أنت تعرف ميزين، بلدة كبيرة.. يبلغ عدد سكانها حوالي الألفي نسمة، كالأفعى ميدغارد، يحيط بها البحر كالدرع ويسمونها: بلانش، لكنها في الحقيقة رصاصية اللون تزأر في الليل وحيث الليالي هناك طويلة ولا آخر لها..

غمز كليم بعينه كمن أعجبه الوصف وأدهشه الحديث، وراح يعمل على محو التجاعيد من وجهه وجبهته ثم طلب إلى أخيه:

- أمن المستحسن أن نأخذ بالأيديولوجية؟

- لماذا؟ سأل كليم.

- إن الرجل يميل بطبعه إلى الانسياق، وإلى الخضوع والغرائز.

- إنها فكرة لاهوتية..

- أجل.. هناك شبه، قال ديمتري معترفًا ثم أقر بعد ذلك:

- إن هذه الفكرة موجودة في القانون الشعبي.

طلب إلى أينو أن تسكب له كوب شاي آخر واستطرد يقول:

- حدثني الرجل الذي سكنت منزله وكان صيادًا ماهرًا فقال: «تدعي يا إيفانيتش أن على بني الإنسان العمل على تغيير مجرى حياتهم وتطويرها إلى حياة أفضل.. ولكن الأرض تعترض سبيلهم! وأنا كذلك أمانع؛ لأنني أرى الناس الذين يعيشون جيدًا هم أسوأ بكثير من ذوي المعيشة المتردية.. أنا أعرف في نفسي ماذا يساوي جميع عمالي.. يساوون أكثر مني وكذلك أتصرف معهم بشراسة كبقية أصحاب الأعمال الكبيرة.. وإذا جعلناهم مثلنا لتصرفوا كما نتصرف نحن.. وهنا تكمن العقدة».

ابتدأ ديمتري حديثه دون مقدمة، مباشرة، ثم ازداد حماسًا فيما بعد.. وراح يتحدث بسرعة.. عرف كليم أن أخاه يسعى لتقليد لغة الغير ووجد أنه لا يستطيع الوصول: «ليس موهوبًا».

سكت ديمتري وهذا ما دفع كليم كي يقول:

- يتبين مِمَّا تقدم أنك لم تنزعج من الأيديولوجية.

- كان رجلًا عاطلًا، قالت أينو بإصرار.

- عاطل؟ تظنين؟ سألها ديمتري وهو يتأملها.

- أجل.. هذا ما أفكر فيه.. لا أدري كيف أعبر عنه.. لكنه سيئ على كل حال.

قطب ديمتري جبينه ثم تنهد وأضاف:

- ذكي تقول يجب أن أعرف شيئًا لا زلت أجهله.

ثم تابع موجهًا الحديث إلى أخيه:

- هناك، فكرت وحاولت بالفعل أن أتحدث إلى الناس، ولكنهم لم يفهموني.. أعني أنهم كانوا يفهمون، ولكن لم يوافقوا على أقوالي.. إنني لا أجيد فن الدعاية ولا أستطيع إقناع الغير. إنهم أفراد متعنتون ومن الصعب زعزعتهم. قال لي أحدهم مرة: «لماذا أهتم بالناس، إذا لم يهتموا بي هم أيضًا؟» وقال آخر: «لربما مت في البحر غدًا، وها أنت تطلب إليَّ أن أخبرك ماذا سأفعل بعد عشر سنوات..». إلخ.. إلخ.

كان منظره يدل على أنه رجل مرتبك.. ولاحظ كليم مرة ثانية.. أن الحياة البسيطة هي أكثر تعقيدًا من الكتب العلمية التي درسها أخوه.

كانت أينو تجلس في مقعدها تدخن لفافة وتفكر.. وفجأة تنحنحت وقالت:

- إنها أفكار ناضجة فعلًا.. أفكار رجال أقوياء.. أجل.. فأنا أحب الرجال الأشداء.. إن الذين لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم ويعيشون بأنفسهم، يموتون كالأغصان اليابسة.. أما أولئك الذين يحسنون التغذية من الطبيعة وشعاع الشمس.. فهم الذين يكسبون الرهان.. يجب أن نعمل بجد ونشاط ليتسنى لنا الحصول على ما نبغي أو بعضه.. نعيش كرحالة فوق أرض مجهولة لم يطأها أحد بعد.. فالضعفاء مزعجون دائمًا وأثمانهم باهظة.

ضحكت بهدوء وعادت تقول:

- سأذهب إلى النوم.

وانسحب كليم كذلك مدعيًّا النعاس.. راغبًا بالبقاء منفردًا ليفكر في أخيه، وما إن أوى إلى غرفته حتى خلع ثيابه ونام في الحال.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كان يتناول القهوة، تطلع إلى أخيه يسأله:

- هل تعرف أن كوتزوف أوقف؟

- متى؟ ومن جديد؟ صرخ الأخير بقلق.. وبعد أن استمع إلى تفسيرات كليم ضحك عاليًا وأضاف:

- إنه في نيجني، تحت مراقبة البوليس.. راسلته لمدة طويلة.. أظنه أحسن من ستيفان.

ثم أضاف بعد فترة صمت وجيزة:

- إن ما قالته أينو البارحة عن الرجال الأقوياء لم يكن عاطلًا أبدًا.

- إن هذا في روح الشعب هنا.. نبهه كليم قائلًا.

- إنها امرأة صالحة ولطيفة.

- وماذا تعرف عن مارينا؟

- لا شيء، قال ديمتري دون مبالاة.. تراسلنا مدة ثم انتهى كل شيء. كانت تفكر بالله أحيانًا ولكن بطريقة ساذجة.. وعندما يتكلم «البومور» هناك عن الله.. يصبح الإصغاء إليهم لذة لا تعادلها لذة.

ابتسم ومر بيده على لحيته يزيل ما علق فوقها من فتات الخبز.

- كدت أن أتزوج هناك يا عزيزي.

- من منفية؟

- لا. من «بوموريه».. ابنة أحد الصيادين.. وعن أبيها حدثتكم البارحة.. عائلة متحدة جدًّا: ثلاثة إخوان وأختان.. فالنساء هناك «متوحشات» جدًّا.

دخلت أينو وقالت مبتسمة تشير إلى كليم بإصبعها:

- هناك رجل يود رؤيتك.. هل أدعه يدخل إلى هنا؟

- أنا؟ أجاب كليم مندهشًا ووقف.

- أنت، أنت، أجابت ورفعت رأسها مرتين..

اختفت ثم عادت برجل عجوز طويل القامة، طويل الشعر.

- هل أنت كليم سامغين؟ سأله بلهجة رجل البوليس وراح يتفحص الحاضرين ويتأمل الغرفة..ثم أشار بأصبعه إلى ديمتري وسأل:

- وهذا، من يكون؟

- إنه أخي.. ديمتري سامغين.

- آه! قال الزائر.. ومد إلى كليم ورقة صغيرة كان يحتفظ بها في يده.. إنها من سوموفا.. انتبه جيدًا فالورقة ناعمة..

* * *

اقترب من الطاولة وجلس، بينما كان كليم يفض الورقة.. وسمعه يقول:

- منذ متى عدت من المنفى؟

قرأ كليم:

«إنه من بلدنا، من بلاتون دولفانوف.. سيعطيك أشياء صغيرة.. أحضرها معك. ل س».

طوى كليم الرسالة وأحس برغبة عارمة لشتم لوباشا.. إنها لا تخجل من أفعالها.. تبدو مستعدة لجره إلى «القضية» وطرحه في شباكها.

وقف عند الباب يتفحص الزائر الجديد الذي كان يذكره بأحد ضيوف كاتين الأدباء.

بدا هذا الإنسان، على العموم، وكأنه يخرج من «غياهب النسيان».

حاول كليم أن يتجنب التطلع إلى ربة البيت؛ مخافة أن يقرأ في عينيها بعض أمارات الاستياء.. كانت تعد القهوة للمرة الثالثة ومنذ ساعة تقريبًا.

- هل ترغب بتناول فنجان قوة؟ سألت دولفانوف بحبور.

- طبعًا! قال هذا وضم ساقيه الطويلتين إلى بعضهما ثم عاد يمدهما ويسد طريق أينو إلى الطاولة..

تململ سامغين في مقعده وظن الزائر يمزح.. وعندما رفعت أينو تنورتها لتمر فوق ساقيه قال لها:

- لا يليق.. إنني تعب جد من كثرة النوم تحت الطاولة..

- لا لزوم لهذا.. قالت أينو بلهجة من يتحدث إلى الأطفال.

- فنلندية؟ سأل دولفانوف وهو يتفحصها، وانحنت هامتها باحترام تؤكد تكهناته.. رد عليها التحية بانحناءة مماثلة وقال:

- هذا يبدو جليًّا.

قطع كليم الحوار واقترب من دولفانوف يسأله بامتعاض:

- هل تدرك ما جاء في الرسالة؟

- طبعًا.. لكن قل لها إنني أتيت متأخرًا جدًّا.. ومع ذلك يجب أن تعرف هي ذلك!

كان دولفانوف يتحرق ويتطلع إلى من حوله متسليًا بشرب فنجان القهوة.. دفع الفنجان باتجاه سيدة المنزل ثم وقف يتأوه ويتثاءب..

ظنه كليم سيستأذن ويذهب، ولكنه رآه يقترب من الحائط ويضرب بإصبعه فوق الخشب ويقول مؤيدًا:

- إنه عملي جدًّا.. من أي نوع هذا الخشب؟

- من الشوح، أجاب كليم بحيوية.

- لا، قالت ربة المنزل.

- على كلٍّ.. لا يهم.. أجاب دولفانوف مشيرًا بيده، مبعدًا أكمام ثوبه ثم جلس من جديد وعادت ساقاه إلى وضعهما القديم.. بينما رفعت المرأة رأسها عاليًا وانفجرت ضاحكة.

- لماذا.. ما زال ذلك لا يهم.. لماذا سألت عنه؟

حدجها دولفانوف بنظرة تعجب مبتسمًا، ثم انفجر ضاحكًا هو أيضًا، وراح يتأرجح في كرسيه ويقهقه عاليًا.. وما إن انتهى حتى قال يخاطب ديمتري:

- إنها مضحكة فعلًا!

مر بيده فوق ساقيه وقال يوجه حديثه إلى أينو:

- بالتأكيد.. ومع ذلك تكثر أقوال الحماقة في أيام كهذه.. وأنت بالذات تتحدثين بها.. أحيانًا.

أضحكتها أقواله أكثر فأكثر..

لم يعد دولفانوف ليهتم بها.. لكن توجه إلى ديمتري يحدثه وكأنه صديق قديم وقد سرته رؤيته جدًّا.. كان يتطلع إليه ويتابع حديثه في آن واحد..

- إنني مصاب بداء المفاصل وتؤلمني ساقيّ جدًّا.. أمضيت أحد عشر شهرًا في السجن مقابل لا شيء.. لقد سأمت فعلًا.. إذ إن الجو المشبع بالرطوبة يكفيك.

ورغم هزلية المشهد، تخوف كليم أن يتفوه الرجل ببعض الحماقات وعندئذ يعكر صفو حياتهم.. لم يرتح لمنظر دولفانوف منذ أن دخل هذا إلى المنزل وخاصة منذ أن وضع يديه فوق فخذيه.. فعمل كهذا لا يدل على أن صاحبه ينوي المزاح والتسلية فقط.

- عيون فتاة، عيون حيوانية، قرر سامغين في أعماق نفسه وهو يستمع إلى صوت دولفانوف الأنثوي.

- لم يكن لديَّ ما أتسلى به سوى اختلافي الدائم مع المدير، إنسان لا يصلح لشيء، سكير يريد أن يجعل من نفسه إنسانًا متوحشًا.. يدخل إلى الزنزانات «يفتش عن شيء يفترسه، ويأتي بالفضيحة وكأنه في علب الليل أو فوق خشبات المسارح. كنت أثيره عندما أقول له: «كف عن هذا.. إن الضجر هو الذي يدفعك إليه، ومع ذلك فأنت فتى لا بأس به.. مع العلم أنك مهووس ومتعجرف».

فيجيب صارخًا: «أنا بالنسبة لك طفل، تقول؟ مع أن سني يساوي أضعاف سنك!» واستمر هذا الحوار بيننا طويلًا.. حتى كان يوم وقال لي:

(يا لك من شيطان خبيث يا دولفانوف.. تكاد أن تقضي على سمعتي). عندئذ ضحكنا معًا.. وعلى مهل كي لا يتأذى (الصيت الحسن).. وأقنعته أن يؤسس معملًا صغيرًا لتجليد الكتب.

كانت أينو تركز كوعيها فوق الطاولة وتستمع إليه فاغرة فاها، والحيرة بادية على وجهها.. ترتدي فستانًا أسود مرصعًا بأزرار سوداء كبيرة كالبصل وزنارًا عريضًا يشد خصرها..

- إنها لا تصدق كلمة واحدة من كل ما قاله، فكر كليم في ذاته، بينما سأل ديمتري دولفانوف بلهفة:

- شعبي؟

- لا، ماركسي.. أجاب ديمتري مبتسمًا.

- غير معقول.. صرخ دولفانوف مندهشًا وأضاف:

- من يصدق هذا.. وجه روسي نقي.. وعلى العموم.. ماركسي.. لا أصدق.. كما أن مسألة كهذه تعود بكاملها إلى ما قاله الفيلسوف الألماني هيجل:

(الرجال أو الروس) وموغسين الذي كان ينادي دائمًا: (بولوا على رؤوس السلاف).

* * *

كان دولفانوف يتكلم ويتطلع إلى كليم مما جعل هذا الأخير يظن بأن المتحدث يتأهب للقيام بأعمال مزعجة.. إذ إن يديه كانتا تتلاعبان بشعره وتمران بهدوء فوق رقبته الطويلة. كان الشعر ينبت في رأسه بطريقة غير طبيعية وكأن جمجمته كالمسمار الحاد.. انهال بالسباب على تريتشكي وبسمارك وأشخاص ألمان آخرين لا يعرفهم كليم. كان يبدو وكأنه متعود وحاذق على التحدث إلى الجمهور العام..

- آسف جدًا أن نيكولا مايكالوفسكي(5) ورجالنا على العموم- خوفًا من النفوذ الصهيوني- لم يستطيعوا أن ينصرفوا إلى الرباط الروحي الذي يجمع بين الشعبية والسلافوفيليسم.

(5) مؤلف روسي شهير.. كان يميل إلى الشعبية ومديرًا لأكبر المجلات الروسية آنذاك: «روسيا الفتية». (المترجم)

لم يكن ليستاء من تعابيره أبدًا.. بل تجرأ ووصف الماركسية بأنها «مبدأ ألماني- إسرائيلي» كان ديمتري يستمع إليه ويتطلع من حين إلى آخر نحو أخيه متسائلًا.. وكأنه يعجبه اعتراضات لا يجرؤ هو على التكلم بها.. وكذلك كانت أينو تضحك مندهشة وتنتظر.. ولعل هذا ما دفع كليم إلى القول:

- إن ما تقوله قديم جدًّا.. وبصراحة، لا يتعدى ما يرد في الصحف اليومية.. كشف دولفانوف عن أسنان كبيرة صفراء يستعد دون شك لقذف عبارات وقحة تجعل من الإنسان لاقطًا آليًّا لتعابير وجودية.. ولا تستطيع أن تشرح له كيف يتوصل إلى تفهم كنه عبوديته للحقيقة وتحويرها. إذ لم يسبق أبدًا، وكأن الواقع أقوى من الإنسان الذي سوف لا يسر أو يقتنع أبدًا.

هل أنت راهب مبتدئ؟ سأل كليم مرغمًا، يحاول أن يسيطر على سورة غضبه المتأججة.. كان غاضبًا وهو يسمع إنسانًا يعبر عن أفكار تقترب من أسراره الخاصة.. وليس هذا وحسب.. لكن كان بإمكان المتحدث أن يتمادى في تفسيراته ويذهب بها بعيدًا.

- أجل.. ماذا في ذلك؟ صرخ دولفانوف يجيب ويلوّح بذراعيه.. متململًا في كرسيه وكأن سؤال كليم قذف به في الهواء.

- إنه رجل مترجرج الأفكار.. يقرب من الصبيانية، قال كليم في نفسه، والغريب في الأمر أن ديمتري لم يعارضه بعد.

- أجل أنا راهب مبتدئ، عاد دولفانوف يقول.. كما أنني مقتنع تمامًا بأن العالم يفهم بالخيال وليس بالانعكاس.. إن الإنسان فنان قبل كل شيء.. والانعكاس لا يعمل إلا ترتيب اختباراته.. نعم!

- إنها الإيديالية، قال ديمتري بارتخاء.

- أجل.. وماذا بعد؟ بماذا «تؤنس» الغرائز الحيوانية إن لم يكن بالأيديالية؟ تنغمس في الاقتصاد وتنفي ضرورة الصراع السياسي، ولكن الشعب لا يجاريك في ماديتك المبهجة لأنه يشعر تمامًا بالحرية السياسية، ويود أن يكون له رؤساء وقادة خاصون به، قريبون منه بالجسد والروح.. بينما أنتم، بالنسبة له، تمسون كالغرباء؟

* * *

وقف ومد عنقه إلى الأمام متطاولًا وانحنى فسقطت خصلات شعره فوق جبهته وخديه.. ثم قال مبتسمًا يخفي يديه وراءه:

- في الحقيقة، إنكم، أيها الماركسيون الجدد أطفالًا بدائيين وأتوسم فيكم شوقًا وتحرقًا لمعرفة الإيمان.. وقد اخترتم أسهل السبل نظرًا لضعفكم.

تجهم وجهه وتقلصت عضلاته.. ثم تابع يقول:

- مخادعين.. ثم تنهد يزرر معطفه.. ولكنكم ستسيرون، أخيرًا، إلى جنبنا. إن بعدكم عن السياسة سوف لا يستمر طويلًا.

مد يده يصافح أينو.

- إلى أين ستذهب؟ سألته.

- إلى تورينو، وأنت تعرفين جيدًا هذا.. أجابها ضاحكًا.

نظرت إليه تتفحصه.. فرد عليها بحركة مطمئنة من يده:

- لا بأس في ذلك.. سيبدلون ثيابي ويحلقون ذقني.

أمسكت أينو بيديه الاثنتين تهزهما بين يديها وتقول:

- رحلة موفقة.

- هيا.. وداعًا أيها الإخوة وإلى اللقاء.. قال دولفانوف.

خرج ترافقه أينو.. وتطلع سامغين إلى أخيه متسائلًا.. كل واحد ينتظر ما سيقوله الآخر.. اقترب ديمتري من الحائط ووقف أمام لوحة زيتية ثم قال بهدوء:

- هذا يعني أنه ذاهب إلى الخارج.

- إنسان غريب.. قال سامغين ومسح نظارته.

- أجل.. أجابه دون أن ينظر إليه.. ولكنني رأيت من أمثاله الكثيرين. هناك العديد منهم لدى الشعبيين.. عرفت واحدًا في أوستوغ.. كان طالبًا من كازان.. يبدو أنني رأيت هذا الفتى قبل أن أغادر المدينة.. إذ وصلها ثلاثة مغنون، كان هو واحدًا منهم.. شبه غريب.

قام ديمتري بنصف استدارة وعاد يقف أمام أخيه وجهًا لوجه ويقول:

- اسمع، إنها قضية مؤلمة حقًّا ومزعجة.. أن لا يترك لك والدك شيئًا أبدًا.

- خرافات.. أجاب كليم.. لا أود التحدث بهذا.

- لا. انتظر! قال ديمتري بلهجة التمني وأزاح يديه عن صدره.. هناك أربعة أو خمسة آلاف روبل.. خذ نصفها.. ما رأيك؟ عليَّ أن أرفض هذا المبلغ إكرامًا لأينو.. ولكن، كما رأيت، وددت أن أذهب إلى الخارج.. أود أن أتثقف.

حدجه كليم بنظرة قاسية وطلب إليه أن يكف عن الكلام.

- لقد تسلمت أينو كل ما هو ضروري لتربية الأولاد، ولكي يعيشوا براحة وهدوء.. أما بالنسبة لي.. فلست بحاجة إلى شيء.

- اسمع.

- لا أريد أن أعرف شيئًا عن الموضوع.. قال كليم وابتعد نحو النافذة المطلة على الساحة.. أما بالنسبة لك، فأنت تحتاج إلى الخارج كي تكمل دراستك.

تكلم مدة طويلة وببرود.. يحس بالمفاجأة التي أحدثتها وصية والده.. لم يشعر بشيء عندما أخبرته أينو أن والده لم يترك له شيئًا.. وإذا بهذا الشعور الرديء يعاوده الآن.. وبمقدار ما كان الغضب والحقد يلهبه..

- ليكن.. ويا للحماقة، قال في نفسه..

ولكن هذا التأنيب لم يكن ليمنعه عن جرح أخيه: كأن يقول له شيئًا مزعجًا.

وجد فرصة تمكنه من السيطرة على نفسه واستمر يقول:

- شرعية أو عدم شرعية اللطف أو الكراهية..

ولكن أينو دخلت وقالت فجأة:

- يبدو لي أنه روسي أكثر منكما أنتما الاثنان.. هل تذكران (القلب الذهبي) لزلاتوفراسكي! أجل! لقد تكلم بطريقة مدهشة إلى مدير السجن.. نعم! إن باستطاعته أن يفعل كثيرًا! سيصغون إليه ويؤمنون به ويحبونه.. لديه القدرة الكافية على التعزية.. أليس صحيحًا؟ إنه راهب جيد!

- إنه لكذلك بالتمام، قال كليم معزيًا.

- أجل.. أجل.. هذا ما أظنه! إذن أنا محقة؟ سألت تمر بيدها فوق وجهها.

اقتربت مجددًا من كليم سامغين وسألته:

- لماذا عاملته بجفاء؟

- اعتقدت أن هذه الزيارة قد...

- أوه.. لا. قاطعته مجيبة.. كنت على علم بكل شيء.. فإيفان يساعد الكثيرين أمثاله على الذهاب حيث يشاؤون.. يكتبون إليه دائمًا: سيأتي رجل، ويأتي بالفعل.

- سأذهب الآن إلى الشرطة..

رافقته أينو لتختار الحجارة اللازمة لبناء قبر أبيه.

انفرد سامغين بنفسه وشعر بأن حقده يسبب له ورمًا في بلعومه ويتضخم رويدًا رويدًا.

- أكيد أنني سوف لا أثير قضية الدراهم.

ثم تذكر الانتباه وعاطفته.. تلك العاطفة التي كانت تزعجه جدًا ويود التخلص منها.. كما تذكر عدم مبالاة أهله واكتراثهم بأخيه ديمتري.. يتذكر أباه وأخاه في الحديقة، مدعيًا أنه يبكي لدى قراءة كتاب نيكراسوف الشهير: (نساء روسيات).. عاودته أفكار مبهمة وفاترة كالرماد.

- إن الدولة مبنية على العائلة.. صلات الدم..

«عندما كنت دون العاشرة، كان أبي ينظر إليَّ كالغريب.. كنت ألعوبة بالنسبة له».

* * *

وقف وسوى وضع نظارته فوق عينيه ثم تخيل وجه والدته المرتبك.. يوم بدأت تحس أنها أصبحت عجوزًا قبل أن تتقدم الأنوثة منها.

- سأمضي ثمانية أيام في بطرسبورج وبعد ذلك أنتقل إلى مكان آخر.. أما إلى هؤلاء فسأقول إنني تسلمت برقية.. ستعرف أينو أن البرقية لم تصل.. لتعرف.

ثم قرر أن يقول لهم إن البرقية وصلته بينما كان يخرج إلى الشارع.. ولذلك ذهب يتنزه، وعند الغداء أعلن لهم عن رحيله. شاهد أن ديمتري صدقه.. بينما عادت ربة البيت تتحدث عن الوصية.

- لست أرى أي سبب لتغيير إرادة والدي، أجاب بحزم.

رفعت أينو منكبيها بسكوت..

ومباشرة بعد الغداء دار بين الأخوين هذا الحديث:

- هل تعلم أن ما قلته، ويا للأسف، حول عدم شرعية اللطافة.. صحيح؟

- إنني في ورطة أليمة الآن.

شعر كليم أن أخاه صادق فيما يقول.

- بئس ما حصل، قال في نفسه..

ودعت أينو كليم بفتور.. وأراد ديمتري مرافقة أخيه إلى المحطة.. ولكنه تعثر في الطريق ومزق رجل بنطلونه..

- أوه.. قالت أينو.. كيف ستذهب هكذا؟ هل لديك بنطلون آخر؟ لا.. ولا يمكنك أن تذهب إلى المحطة إذن..

سر كليم بأن أخاه سوف لا يرافقه وعاد يفكر:

- إنها لا تريد هذا.. يا لها من امرأة طيبة.. محتالة.. عرفت ماذا تفعل.

عرف في بطرسبورج أن مارينا وعمته غادرتا البلدة إلى هايسال.. أمضى في العاصمة بضعة أيام وسئمها؛ نظرًا للفوضى السائدة هناك. كانت المدينة تنضح بالعرق فثار سامغين ضد فحش الليالي «البيضاء» التي تحاول أن تبدل الإنسان العادي وتجعله غير طبيعي.. بدا الجو مشحونًا بالغبار الكثيف الآلي..

سبب له إلحاح الفتيات نوعًا من الخوف والخجل.. كل منهن تهدده بالشلل التدريجي.. مشت إحداهن قرب كليم تهمس في أذنه:

- هل تأتي أيها الطالب؟ زميل إذن؟

وراحت تضيف:

- تعال معي يا عزيزي، تعال معي..

وما إن هددها بأنه سيستعين بالشرطي حتى ارتعبت ونزلت من فوق الرصيف تعبر الشارع وتختفي وراء نُصُب كاترين الكبرى. قال سامغين في نفسه إن هذا النصب يشبه جرس موسكو الكبير.. وأن بطرسبورج ليس فيها ما يدل على أنها بلدة روسية.

«أحتاج إلى الانتقال وتغيير الجو.. أود أن أتقرب من أشخاص بسطاء وساذجين»، قال كليم في نفسه وهو جالس في القطار الذي قاده إلى موسكو.. كما ظن أنه اتخذ قرارًا حازمًا..

إزاء هذا القرار- قرار العودة إلى البيت- ذهب إلى المحطة لزيارة باربارا، ليس لأنه يحتاج إلى رؤيتها، بل ليؤنب سوموفا ويقول لها إنه لا لزوم حتى تكل إليه أشخاصًا لا يتحمل مسؤوليتهم، كدولفانوف مثلًا.

استقبلته العجوز السمينة أفينيغنا باشة وأخبرته أن باربارا غادرت المنزل إلى كوستروما.

مسحت العرق المتصبب من جبهتها وقالت تنصحه:

- يجب أن تتزوجها يا كليم.. ماذا تنتظر؟ تؤجل.. وتماطل.. بينما تخرج هي كالكلبة بأثواب من يحميها.. آه كم أنت صبور في أمور القلب!

أكملت غسل أكواب الشاي وتطلعت إلى كليم باسمة ثم أضافت:

- تمامًا كلولي الصغيرة.. تود أن تجعل العالم كله سعيدًا.. ولكن هذا ليس بالمعقول.. نامت كذلك الليلة.. وما إن دخلت أوقظها حتى وجدتها تنام جالسة في الكرسي وقد خلعت أحد نعليها.. استولى عليها النعاس متغلبًا قبل أن تخلع الفردة الأخرى.. يأتي إليها الرجال دائمًا.. دائمًا.. أما الخطيب فلم يسبق له أن رأيته مطلقًا.. شيء مؤسف.. فتاة جذابة ومثلها و...

أعجب سامغين بالقهوة اللذيذة الطعم وقطع الحلوى التي قدمتها هذه المرأة مما جعله يرتاح إليها جدًّا ويأنس لحديثها وأقوالها، تذكر تانيا مربيته، وجدة درونوف ومربيات بوشكين وبقية الرجال الروس العظام..

«نسي نيكراسوف أن يتكلم عن هؤلاء النسوة الروس.. ولم يتحدث أحد عن الدور الكبير الذي يلعبنه في تكوين النفس الروسية.. هل عرفن أكثر من كتب الرجال، إنهن علمن الشعب المحبة والإخلاص؟» هذا ما فكر به سامغين وهو متمدد فوق المقعد..

ظهرت له هذه الفكرة أصيلة وجعلت قرابته بكل ما يحيط به أكثر عمقًا وقوة.. سجلها في مفكرته وقال مسرورًا:

- أجل نشعر بالحرارة هنا أكثر من فنلندا..

تصفح بعض الأعداد القديمة من «الرسول الروسي»(6) ونام فوق الكنبة دون أن يشعر بذلك، ثم استيقظ ولوباشا تهزه من كتفه وتردد له هذا البيت لكوتزوف:

(6) مجموعة شعرية لنيكراسوف. (المترجم)

«لماذا ننام في وضح النهار الجميل؟».

استلقت إلى جانبه تساعده على خلع نعليه والتخلص من ثيابه على عجل، ثم تعلقت به تضمه إليها بشهوة وتمسح العرق المتصبب من جبينه وصدغيه.

- آه يا صديقي كليم.. هل تعرف أن قرار الحزب الاشتراكي الديموقراطي وزع البارحة! كتب جيدًا وبوضح! لا.. فكر فيه فقط! لدينا حزب الآن! ويا له من حزب!

- من هذا، نحن؟ سألها كليم ووضع نظارته فوق عينيه.

- آه يا إلهي! ولكن نحن.. روسيا! افهم إذن: إنها نهاية الخلافات والمشاكل.. كلٌّ يعرف ماذا يتوجب عليه أن يفعل وأين يذهب.. يتكلمون بوضوح عن المعركة السياسية وعن الأوامر التي تشدنا إلى الشعبيين.. هل فهمت؟ زادها الحماس عرقًا رويدًا رويدًا.. وفكت أزرار صدريتها تقول:

- أكاد أن أختنق!

راحت تورد له ما جاء في معروض الحزب وتتبع كلامها بحركات.

وهنا تذكر سامغين تلك الفتاة البائسة يوم كانوا يعملون متحدثين على رفع الجرس وكيف أنها صرخت بصانع الزجاج تقول:

- سيدي ليكافئك الرب ويسبغ عليك نعمته.

وجد سامغين شبهًا كبيرًا بين هذه المرأة ولوباشا، وتلك الفتاة.. ولم يستطع أن يتمالك نفسه، فضحك.. وهذا ما زاد من سرور سوموفا فلكزته بركبتها مازحة، واستطردت تقول:

- أليس هذا صحيحًا؟ إن الرجال سيكفون عن المكيدة لبعضهم، ويتعاونون على تنفيذ الأعمال الخيرية والمشاريع الحيوية.. أليس ذلك مهمًا ؟ ضربها كليم بقبضته برفق فوق يدها، وإن كان ينوي أن تكون الضربة أقوى وأقسى!

- ستحدثينني عن البيان في ما بعد، أما الآن..

- باربارا؟ سألته.. تصوَّر أنها ذهبت تلعب، تود أن تتأكد من نفسها.. هكذا قالت لي.

- لست أعنيها الآن.. فهي ليست فنانة أكثر منك أو من أي امرأة أخرى.

ومدت لوباشا له لسانها.

- إنك أحمق صغير ولست متشائمًا.. إن ما حدث لها هو قولها إن وجودك معها يزعجها.. وأنت يا للوفلاس القاسي! لماذا التباهي والتظاهر؟ أسأل نفسي دائمًا ولم أجد الجواب بعد.. على فكرة، هل تعلم أن ليديا ذهبت مع فريق إلى ما وراء الفولجا، إلى كريجنتيز.. كتبت تخبرني أنها تعرفت إلى المدعو برفديف.. طالب يدرس المذاهب.. وكذلك هي.. فقد دفعها الضجر إلى الهروب منك.. إنها طيبة.. غير اجتماعية، هذا كل ما في الأمر.. أفينيغنا.. يا أمي الصالحة.. أعطني شيئًا باردًا كي أشربه!

- سوف لا أعطيك شيئًا تشربينه، أجابت أفينيغنا وهي تدخل حاملة رزمة من الثياب البيضاء المطوية. يجب أن تأكلي قبلًا، وبعد ذلك سأذهب للبحث عن الحليب في الدكان.

لم يجد سامغين الوقت الكافي ليوجه إليها بعض الأخطاء، ومع ذلك فهو لم يعد ليهتم بها أو يعلق أهمية كبرى عليها.. فقد كان انفصال لوباشا المسلي عاملًا أساسيًّا للمصالحة معها.. ولو قليلًا..

- آه.. أجل.. نسيت أن أقول لك، عادت تحدثه وجهًا لوجه، إن ماراكويف حكم عليه سنة بالسجن.

تركت كرسيها فجأة واتجهت إلى الباب:

- سأبدل ثيابي قبل أن أذوب.

وقبل أن تخرج، عادت فجأة إليه تقول بتلعثم:

- آه يا صديقي لو تعلم من الماركسي الذي تعرفت إليه.. على كلٍّ سأقول لك.. إنه صوت مخملي.. كما يقولون.. إنه مركب صغير يتهادى.. إن كل شيء فيه واضح وجلي إلى درجة.. لماذا تضحك؟ شيء سخيف.. لكن أقول لك: إن الذين يصنعون التاريخ، هم رجال من أمثاله.. إنه يشبه.. يشبه جيليابوف(7)، أجل!

(7) أكبر ثوري يتسلم السلطة ويبرز إلى المقدمة بعد مقتل القيصر الثاني. (المترجم)

وبينما كانت تختفي قالت:

- أجل!

شعر سامغين أنه منغمس في هذه الأخبار الجديدة.. وأيقظ البيان فيه فضولًا غريبًا «يجب أن يعيده الطلاب إلى عائلته.. كما يجب أن يذهب لمشاهدة برايس».

تذكر سرور لوباشا البالغ، وفكر بامتعاض أن مصدر كل هذا، هو الرغبة التي يعرب عنها جسدها الملآن، وقد أثاره الماركسي.. المخملي..

«هذا لا يمنع أن أعطيها قطعة من الصابون».

ظهرت في الباب عارية الكتفين، تلف جسدها بمنشفة كبيرة وطرحت فوق الطاولة رسالتين ثم قالت:

- وصلتا منذ زمن بعيد.

قالت له والدته في الأولى إن وجوده في فنلندا ضروري. تبين لكليم، حسب لهجة الرسالة، أن والدته لا زالت تحن إلى والده وتبدي أسفًا بالغًا لمرضه.. كما أنها تعلم أن هذا الداء لا مفر منه.. وما إن وصل إلى آخر الرسالة حتى استوقفته هذه العبارة فقرأها بتمعن وابتسم: «لا أظن أن إيفان أكيموفيتش ترك وصية.. لم يكن هذا من عاداته.. أما إذا أردت باسمي واسم أخيك، يمكنك أن تجمع المعلومات عن حالته المادية وتلجأ إلى محام شهير» ثم ذكرت له عنوان شخصية مثقفة شهيرة. وكانت الرسالة الثانية أكثر تفصيلًا:

«أبعث إليك بهذه الرسالة إلى موسكو لأنك لم تترك عنوان الفندق في فيبورغ، حيث تنزل. أصبحت إليزابيث ليفوفنا بطلة فضيحة كبيرة.. وسيؤدي ذلك إلى محاكمة كبيرة قد تنتهي بسجن إينيكوف.. الذي تعلم أنت عنه الكثير.. لقد غضب جدًّا وتعرض لرئيس الكنيسة في الساحة العامة.. وضربه.. وأعتقد أن إينيكوف مغرم بها.. وهو لا ينكر هذا.. كما يقول إنه ليس بذلك الرجل الذي يغازل النساء.. تدخل رئيس الكهنة في الموضوع.. ومع ذلك فإن نتيجة الحكم ستسيء إلى إينيكوف.. الذي يدفع الصراحة إلى حد الحماقة ويرفض أن يدافع عنه أحد.. كما يدعي أن رئيس الكنيسة كان يرعب إليزابيث ويهددها بأن يشي بها: تدخلت في السياسة وسرّحت العمال والحرفيين.. ولكنني أعرف ليز جيدًا ولا أصدق مثل هذه الادعاءات.. ولعل أسوأ ما في الأمر أن إينيكوف تناسى الضرر الذي سببه لمدرستي.. إن ليز تدهشني: كيف تترك فتى طائشًا يتعلق بها؟ كتبت تقول إن الأيام بدأت تقلق شيئًا فشيئًا وكان من الطبيعي أن تتصرف السلطات، بحزم وشدة لتحافظ على النظام والأمن..».

توقف كليم عند هذا الحد ولم يود أن يكمل.. إذ كان في الغرفة من يسعل ويبصق.. وظهر عند العتبة رجل صغير القامة:

- هل تسمح بالدخول؟

- تفضل.

- هل سوموفا هنا؟

- سآتي في الحال، أجابت لوباشا وقد فتحت الباب نصف فتحة.

سار الرجل في الغرفة يتأمل كليم الذي قال في نفسه:

«علّه أتى بأخبار جديدة».

- حسنًا، قال الزائر ووضع يده فوق راحة كليم، وبينما كان ينتظر أن يشد عليها، سأله:

- ألست من أقارب جاكوب إيفانوفيتش؟

- إنه عمي.

- آه.. لقد التقيته في سجن ساراتوف.

- توفي!

- تمامًا. وبحضوري.

تناول الزائر كرسيًّا وجلس أمام كليم يتفحصه، ثم تركه واستلقى فوق مقعد مريح..

- هل أنت طالب في الجامعة هنا؟

- أجل.

- وفي كلية الحقوق، أجاب الرجل مؤكدًا وقد عاد يجلس إلى الطاولة، ثم أخرج من جيبه كيسًا محشوًّا بالتبغ فوضعه أمامه إلى جانب كراسة المحاضرات والولاعة.

- يتميز طالب الحقوق بسرعة بديهة عن طالب العلوم الطبيعية.

«كل يحاول أن يتفرد بصفة أو بأخرى» فكر كليم في نفسه، ممتعضًا.

دخلت لوباشا على عجل إلى غرفة الطعام مجللة بثياب بيضاء، وكأنها ذاهبة إلى حفلة مناولة أو اعتراف.

- حسنًا، ماذا لديك يا عم ميشا؟

- إنه يرفض، قال الرجل يهز رأسه..

- أوه.. يا للخبيث! صرخت تقول وتشد جديلتها بعصبية.. ثم امتعض وجهها ألمًا وسألت:

- إذن سيمر هذا كما افترضته أنت؟

- تمامًا.. أجاب العم ميشا برصانة وهدوء..

نفث دخان لفافته بقوة في الهواء وعادت لوباشا تخاطب كليم:

- لقد عرف العم ميشا إيباتيفسكي جيدًا.

- الأب والابن، أضاف العم يرفع إصبعه إلى فمه.. كنت مع الابن في سجن فلاديمير.. كان فتى رائعًا.. ذكيًّا.. ولكنه متفلسف جدًّا.. كبقية المبتدئين.. أما أبوه.. فكان راهبًا غامضًا.. تعيسًا وسكيرًا.. كأولئك الذين ينتقلون من دير إلى آخر في نهاية حياتهم.. يدعون مخافة الله، لكنهم يزرعون البلبلة والشغب في صفوف المواطنين.

- هل قرأت البيان؟

- أجل.. وسلمته إلى المرسل إليه..

- وماذا بعد؟

- إنه لحدث خطير ومهم، أجاب العم ميشا.

صمت فترة وأضاف:

- وربما كان حدثًا تاريخيًّا فريدًا من نوعه.

قطعت لوباشا حديث العم ميشا وسألته إذا كان يرغب بتناول الطعام.. فهز رأسه موافقًا وجلس إلى الطاولة بانتظار ما ستقدمه له.. وأتته برغيف أسود وكوب حليب، ثم نهض يبحث في الغرفة عن مكان يرمي فيه عقب سيجارته..

ودخل رجل آخر عليهم، معتدل القامة أسود اللحية.. عبوس الوجه رطب العينين:

- بيمن غوساروف، قدمته لوباشا إلى العم ميشا وكليم.

انحنى بيمن مرتين احترامًا، ووضع أمام لوباشا رزمة من المجلات وقال:

- إن الصفحات مشار إليها على الغلاف.

وراح هو كذلك يتحدث عن البيان.. لكن بامتعاض..

- كان ذلك منذ زمن بعيد.. يتحدثون عندنا عما يجب أن يفكرون به، بينما يجب أن يتكلموا عما يجب عمله.

وافق العم ميشا بإيماءة، ولكن هذا لم يهدئ روع غوساروف الذي أكمل حديثه وبنفس اللهجة:

- لا زال الليبراليون العجزة يصرخون في المجلات والصحف ويقولون: لا يمكن أن نعيش هكذا.. مع أن جيلنا حل مسألة كيف يجب أن نعيش ولماذا يجب أن نعيش.

- هل أنت ماركسي؟ سأله كليم.

نظر إليه غوساروف بعين واحدة واستدار يحدق في صحنه:

- إنني خليط لآراء عديدة.. أعرف دور العامل الاقتصادي في التاريخ وكذلك عامل الفرد.. ومهما يكن الحكم الذي تطلقه عليه المادية.. فإنها تبقى دائمًا نظرية تشاؤم.. إذ إن الثورات صنعت للمتفائلين وحسب.. ليس هناك من ثورة حقيقية إذا استثنينا المبدأ الاجتماعي والمحبة الحماسية لجميع الناس.. وهكذا يكون المجون مبعث المادية.

ارتأى كليم من العبث أن يجادل رجلًا كهذا وإلا عرض نفسه للسباب.. لكنه حاول أن يسأله ماذا يفهم بكلمة «مجون».. زأر غوساروف يجيب:

- لقد عبرت عن وجهة نظري.. أما أنت، فافعل ما يحلو لك.. يجب أن نقوض الأوتوكراسية وبعد ذلك نرى ما يكون..

أكل صحنين من ثمار التوت ومسح فمه بمنديله ثم وقف ونظر إلى نفسه في المرآة وغادر الغرفة مسرعًا كما دخلها..

- فتى جيد.. قال ميشا.

ولكن سامغين ظنه كرجل أتى من بعيد لعمل مهم- يتزوج فتاة جميلة أو يعيد امرأته الهاربة، إلى المنزل-.

ثم استأذن العم ميشا بعد أن شد على يد كليم مصافحًا وابتسم له برضى وحسن نية.. وفي الممر، قال يخاطب لوباشا:

- لا. لا. يجب ألا تتعجلي الأمور.

وبعد أن قادته هذه قالت:

- إنك تعرف، طبعًا، من هو العم ميشا.

كان كليم يجهله.. ولسنا ندري لماذا حرك أهدابه كمن تعب من التحدث عن العم ميشا، أما غوساروف.. فكان ابن مقاول غني.. ترك والده يوم كان في المدرسة والتحق بكلية الطب البيطري في كازان.. حيث طرد في السنة الثانية.. عمل في البحرية. وها هو الآن بدون عمل.. لكنهم وعدوه بمركز لائق في أحد المصانع.

- يبدو لي كرجل دعاية ناجح.. ولكنه لا يعجبني.. وقح، يشك به.. هل رأيت أسنانه الكبيرة؟!

- أليس حيوانًا؟ سألها سامغين.

- لا. إن هذا يأتيه من شكه وغروره.. قالت لوباشا.. لكن اللطيف هو دولفانوف.

- ارفضي العابثين.. إنهم لا يصلحون لشيء.. يدورون من منزل إلى آخر..

- أوه! لقد تأخرت.. لدي موعد في ساحة بتروفسك! يجب أن أسرع.. أن أطير!

* * *

راح سامغين يذرع الغرفة ويفكر في أمه وإينيكوف والسيدة سبيفاك. وبدا له كل هذا بعيدًا ولا فائدة ترجى منه. سؤال واحد فقط كان يقلقه: ماذا يحتوي البيان؟ حزب جاد يمكنه أن يضم جميع المثقفين ويأخذ بيد من حديد حركة الطلاب ويدعمها.. كما باستطاعته تنظيم صفوف العمال وطرد العناصر السيئة من بينهم.. هل يمكنه أن يفعل كل هذا؟ وهل حملة التطهير هذه تؤدي إلى نتائج إيجابية؟ في حزب مثقفين يستطيع أن يجد له مكانًا.. ذهب إلى بريس وهناك أخبره كازيا أن بوريس فيكتور رؤفيتش سافر إلى الخارج.. دخل سامغين إلى مطعم وتناول غداءه ثم ذهب إلى دار الأوبرا يروح عن نفسه.. ولم يعد إلا بعد منتصف الليل.. أخبرته أفينيغنا أن لوباشا عادت منذ دقائق فقط واستغرقت في النوم حالًا..

أوى إلى فراشه وحلم هذا الحلم.. شاهد نفسه فوق منبر وفي غرفة مظلمة وفارغة.. ومن هذا الفراغ سمع أحدًا يصرخ ويقول يخاطبه:

- تفضل وانهض!

استيقظ سامغين وقفز من سريره إلى الأرض.

- اسمك؟ سأله أحد ضباط الدرك وتراجع إلى الوراء ووقف قرب رجل يرتدي زيًّا يشبه زي موظفي وزارة العدل.. كما وقف إلى جانبهما جندي يحمل بيده شمعة تنير وجه كليم، بينما وقف دركي آخر في باب غرفة الطعام.

- اسمك؟ عاد الضابط يسأله بقسوة.. شاب شاحب الوجه يتطاير الغضب من عينيه.. بحث كليم عن نظارته ثم وضعها فوق عينيه وتنفس بارتياح وأعلن عن نفسه.

- ماذا؟ سأل الضابط مرة ثانية بقرف وسخرية.. وطلب إليه أن يريه هويته.. تناول كليم سترته وبحث في جميع جيوبها ثم أخرج الهوية وناولها إلى الضابط العنيد.

- أضئ، قال هذا الأخير يأمر حامل الشمعة وراح يتصفح الهوية.. وهناك من أشعل النور في غرفة الطعام وقال بصوت منخفض:

- من هنا؟

ثم سألت لوباشا بصوت جهوري ووقح:

- ماذا يعني كل هذا؟

- حملة تفتيشية، قال الصوت الخافت وعاد يسأل بدوره:

- هل أنت باربارا أنتروبوفا؟

- لا، أنا لوبوف سوموفنا.

- أين سيدة المنزل؟

- والشقة؟ أضاف صوت آخر.

- ماذا؟

- وصاحبة الدار؟

- ذهبت إلى كوستروما، كما تشرفت وأخبرتكم..

- من غيركم يسكن هنا؟

- لا أحد. أجابت لوباشا غاضبة.

وبينما كان سامغين يرتدي ثيابه حانت منه نظرة إلى الدرك، فرأى أحدهم يتبادل النظرات القلقة مع الضابط.. ثم ضرب الأوراق براحته وسأل:

- منذ متى تقيم هنا؟

- توقفت لمدة أربعة وعشرين سنة وأنا في طريقي إلى فنلندا..

- من أين؟

- من فيلبورغ كما زرت مدنًا أخرى.

ابتسم الموظف وراح يفتل شاربيه ودخل إلى غرفة الطعام.. ثم قال الضابط يشير إلى عنق الموظف ويخاطب كليم..

كان يجلس في الغرفة ضابط آخر، أسمر الوجه، متوسط القامة، مدبب الأنف.. كان يقلب رزمة الدفاتر والمحاضرات وما إن دخل كليم حتى فاجأه بالسؤال التالي:

- ما هذا؟ مسرح؟

ثم انحنى من جديد فوق الطاولة وعاد يقول لنفسه:

- محاضرات.

نظر إلى لوباشا تجلس في آخر المقعد عابسة الوجه منفعلة.. وضع أمامه أوراق كليم وانحنى يهمس في أذنه شيئًا استمر بضع ثوان.. أوقفه رئيسه بإشارة وقال يسأل كليم:

- أتيت من فنلندا؟ متى؟

- هذا الصباح.

- ماذا ذهبت تفعل هناك؟

- أدفن أبي.

وقف الضابط ثم سعل وذهب إلى غرفة سامغين.. تبعه مرافقه وجندي آخر يعبث بشاربيه ويطلق ضحكات ساخرة.. قفلوا الباب وراءهم بينما انصرف كليم إلى نفسه يتساءل:

«وأنا كذلك يجب أن أرافق الجند وأسخر منهم».

فهم جيدًا أن حملة التفتيش لم تكن تتعلق به، فاطمأن واستكان.

- ليحملهم الشيطان! صرخت سوموفا تقول فجأة.. ابتعد كليم عنها وجلس فوق كرسي، بينما كانت هي تطلب بصوت عال:

- يا بوليس، مرهم أن يحضروا لي ماء كي أشرب!

ودون أن يلتفت الضابط إليها أمر يقول:

- بتروف، نفذ الأمر.

دخلت أفينيغنا تحمل زجاجة فوق صينية واسعة..

سكبت كوبًا ورفعت الزجاجة إلى فمها تتمتم شيئًا..

ظهر المساعد في الباب وقال يسأل:

- هل يوجد هاتف في الشقة؟

- فتش.. ابحث عنه، أجابت لوباشا، قبل أن يأتيه الجواب من أحد الجنود:

- لا يا صاحب السعادة.

عادت الخادمة أدراجها وارتطمت بأحد الجنود:

- ألا ترى أنني أحمل صحونًا وأكوابًا؟ قالت مؤنبة.

ولكن يديها كانت فارغة.

انتهى كل هذا بعكس ما كان يتوقع كليم، فدهش.. إذ عاد الضابط ومساعده إلى غرفة الطعام وكأنهما خارجان من عراك.. جلس الثاني إلى طاولته وراح يكتب بسرعة.. بينما وقف موظف العدل قرب النافذة مديرًا ظهره إلى كل ما يحدث في الغرفة..

اقترب الضابط من لوباشا وقال لها بصوت خافت:

- تفضلي وارتدي ثيابك.

نهضت في الحال وذهبت إلى غرفتها بخطى ثابتة يتبعها الجندي بنظرات زائفة.. ثم التفت إلى كليم وقال له:

- وأنت كذلك، أرجوك.

اقتيد سامغين إلى دائرة الشرطة وسجن هناك عشرة أيام.. لم يتعرض فيها إلى تعذيب أو إرهاق.. لقد أحسنوا وفادته وأحاطوه بكل عناية وتقدير..

وفي صباح اليوم الحادي عشر تقدم أحد الضباط وفتح باب زنزانته، وقال له آمرًا بعد أن تفحصه جيدًا:

- تعال..

وبعد دقيقة كان كليم يفكر أن ما حدث له سيعاد مرة ثانية..

كان يجلس الآن إلى طاولة وأمامه ضابط يقرأ بعض الأوراق..

لم يجد كليم في هذا الوجه شيئًا خاصًّا.. ولذلك سأله الضابط مازحًا:

- هل انزعجت كثيرًا؟

- قليلًا.. قال يجيب معترفًا.. ولهذا يجب أن..

لم يدعه الضابط ينهي حديثه، بل راح يتشكى من قلة المطر والهواء الحار.. ثم سأله:

- أتدخن؟

وفجأة وضع مرفقيه فوق الطاولة يضم بين أصابعه أوراقًا.. ثم سأل كليم:

- والآن؟ ما قولك؟

لم يجب كليم بشيء ولم يتبع السؤال أي تفسير.. ولذلك قال يسأل بدوره:

- عمَّ تتكلم؟

- عنك..

أرجع الضابط رأسه إلى الوراء ومد رجليه تحت الطاولة وخبأ يديه في جيوبه، ثم علت وجهه موجة من الارتباك والحيرة.. تنشق الهواء الرطب وقال بصوت منخفض وبتروٍّ:

- قادتني أحكام وظيفتي إلى معرفة ما جاء في رسائل سيدتك الوالدة، قرأت كذلك ملاحظاتك- كلها- فأدهشتني جدًّا! كيف حصل ووقعت في أيدي ضباط الدرك وأنت المثقف الذي يفكر بعمق وحكمة؟

- لا شك أنك تعرف هذا جيدًا، أجابه كليم مبتسمًا، ثم فهم أن جوابه لم يكن لائقًا ولا لزوم لابتسامة.

- أعرف الوقائع.. أما الأسباب؟ إنها ما زالت غير مفهومة بالنسبة لي! قال الدركي وقد سحب يديه من جيبه وتناول مقصًّا من أمامه يطقطق به.

- إليكها، أجاب مقطب الجبين، أعرف أن بعض زملائي الذين تربطهم علاقة ودية بالطلبة، يعمدون إلى تحقيقات غريبة ويحاولون إقناع الأهل بصحة آرائهم.. أي يؤثرون فيهم عاطفيًّا.. لست منهم، قال يتابع ويخاطبه بكلمات روتينية جافة.. بحكم الواجب أضحي بنفسي لصالح الأمر الشعبي، وإذا رأيت إنسانًا يسيء إلى هذا النظام فلا تظن أنني أحاول معاملته بالمثل.. لا. إن الرجل إنسان عاقل ومفكر.. وإذا استحق العقاب، فسأعمل على أن يناله بقدر ما يستحقه.. أحيانًا يعاقب الإنسان بأكثر مما يستحقه.. مسبقًا وعلى حساب المستقبل.. هل تفهمني؟

تمالك سامغين نفسه كي لا يجيب «بنعم» وقال:

- إنني أسمعك.

اتسعت حدقتا الضابط وارتفع صوته قليلًا وأضاف:

- إذن كيف تتعامل مع رجال السياسة وتعرض وظيفتك للخطر؟ مع العلم أنهم من المشتبه بهم وأنك لا تستلطفهم.

- أظنك استنتجت هذا من ملاحظاتي، قال كليم يجيب الدركي.

- ما الذي لم أستطع استنتاجه؟

لم يجب كليم.

وأضاف الضابط مرة ثانية:

- إن تصرفك السلبي تجاه السياسيين يظهر بوضوح تام.. وبالرغم من أنك لا تذكر أي اسم. فهذا لا يمنع من وجود شخص كماراكويف في دائرتك «السياسية».

- لا يمكنك أن تقول أو تجزم بأنني أنتمي إلى تلك الحلقة أو أن آرائي...

- نعرف كثيرًا عنك، وربما كل شيء.. أجاب الضابط. وعرف كليم أنه تسرع بالجواب.. كان يرى الآن وجه الضابط يتموج أمامه ويتفاعل. واستطرد الأول يقول:

- إن في هذا كفاية لنحرمك من متابعة دروسك في الجامعة ونرسلك إلى موسكو ومنها إلى مسقط رأسك، وتحت حراسة البوليس المشددة.

صمت برهة وعاد يضيف:

- ولكن السلطات إنسانية جدًّا، إنها لا تساعد على زيادة أولئك الذين لا يعرفون أين يجدون مكانهم في الحياة أو يعملون على تضخيم صفوف الضعفاء بالعطاءات الشخصية.. كما هم الثوريون جميعًا.

لمست في مذكراتك شيئًا يتنافى وآراء العجوز كوزلوف.. إنك تعجب بمعرفته لروسيا وحبه لها. ولكن المحبة كالإيمان، ماتت دون عمل.

تململ في مجلسه وتابع محاولته لإقناع كليم:

- لا. يجب أن تقرر: نحن أو هم.

«ليس ذكيًّا بِمَا فيه الكفاية» قال سامغين في نفسه.

- نحن، هي القوى التي أعطت روسيا مركزها العالمي المرموق.. وجمالها الأصيل وثقافتها الطبيعية.. يمكنني أن أؤكد لك بأن السلطات لا تسمح بتحويل حركة سياسية، لا! صرخ يقول بحرارة وانفعال ويحدق في كليم.. ثم سأله للمرة الثانية:

- حسنًا، ماذا قررت؟

- لا أفهم سؤالك، أجاب كليم.

- لا تفهم؟ قال الضابط وقد ازدادت حدقتاه تسطحًا واتساعًا.. ولكنه شيء سهل الفهم، أعرض عليك أن تعبر بطريقة فعالة عن آرائك، وأن تضع نفسك إلى جانب النظام الشرعي.. مفهوم؟

لم يكن سامغين ينتظر هذا.. ومع ذلك لم يفاجأ به أو يحس بأنه أهين، بينما انصرف الضابط يمعن التفتيش في الأوراق المتناثرة فوق مكتبه.. ثم نهض واتكأ فوق الكرسي وقال يهمس في أذن سامغين:

- أقترح أن تكون مخبري.. انتظر.. انتظر.. صرخ يقول عندما شاهد سامغين ينهض ويغادر الغرفة.

- إنك تهزأ بي، أجاب كليم بهدوء. لا أقبل أن أكون جاسوسًا.

- لم أقترح عليك شيئًا من هذا. صرخ الضابط بامتعاض.. أعرف إلى من أتحدث، يا لها من فكرة، من هو الجاسوس؟ في كل سفارة يوجد ملحق عسكري.. هل تصفه بالجاسوس أيضًا؟ هل قرأت أشعار ميكويغز؟

قال يسأله على عجل. لا أقترح عليك عملًا تتقاضى عليه أجرًا، أحدثك عن تعاون اختياري وأيديولوجي.

* * *

جلس الضابط في مقعده من جديد وتابع بصوت منخفض وهدوء تام:

- نحتاج إلى مخبرين مثقفين ومطلعين على تطور وسير الفكرة الثورية. نصر على الفكرة قبل كل شيء. إن هؤلاء المخبرين نحتاج إليهم ليس لمحاربة العدو بقدر ما نحتاج إليهم كي يسمحوا لنا بأن نكون متساوين، وأن نتجنب الأخطاء ونفرق، بدون خطأ، بين الحمل والتيس. أظن أن في الحركة الطلابية شبابًا هم ضحية الأعمال اللاشعورية.

جلس سامغين وقد شعر بأن رجلاه لا تقويان على حمله، اعتراه الخوف.. سمع الضابط يتحدث عن «البيان»، وعن الشعبيين الذين يفكرون باللجوء إلى التكتيك الذي اتبعه أعضاء منظمة «حرية الشعب» السرية.

- أرفض!! أجاب كليم ببرود.

- قطعيًّا؟

- نعم.

نهض الضابط يبتسم ويهز برأسه:

- لن أسألك لماذا.. لكن أقول لك بصراحة: لا أصدق قرارك. إن الطريق الذي رسمته لك، طريق التضحية من أجل الحزب، هو طريقك.. والآن أنت حر.. ابق في جوار موسكو.. كنت أنوي توقيع أمر مشدد يضعك تحت حراسة البوليس.. ويجب ألا تغادر المدينة.. ولكنني أكتفي بكلمة منك.. ألا تذهب؟

- أكيد. زفر كليم بارتياح.

- والآن يمكنك أن تأخذ قسمًا من أوراقك هذه.. هل تسكن منزل أنتروبوفا سوموفنا؟

- منذ طفولتي..

- أي نوع من الأشخاص هي؟

- فتاة ممتازة جدًّا.. أجاب كليم بعد فترة صمت قصيرة جدًّا.

- موفق! وإلى اللقاء.

مد الضابط يده وكذلك فعل كليم وقد شعر بأن يدًا قوية تضغط على أصابعه:

- فكر في نفسك يا كليم.. فكر دون خوف من الكلمات وأحبب وطنك.

سار كليم في الشارع عاري العنق مطويه يتلفت من حوله وكأنه صفع مرة وبات ينتظر أن يصفع مرة أخرى.

سمع جلبة على بعد خطوات منه.. وللحال دخل إلى الكنيسة وجلس فوق مقعد في الزاوية وراح يسأل نفسه: بماذا أخافني الدركي؟ لا.. لم يكن العرض الذي قدمه لي.. لكن شيء آخر.. اعترف سامغين مجبرًا، بأن الضابط استنتج من ملاحظاته نتائج عادلة.. تلمس الرزمة في جيبه وقرر:

- سأحرقها.. وسوف لا أكتب أبدًا..

ارتطمت أفكاره المتضاربة بشعور غامض ومرهق..

دخلت الكنيسة آنستان تدفع إحداهما رفيقتها بمرفقها وتقول لها شيئًا.. تطلعت هذه إلى كليم وخففت الاثنتان الخطى.

- يتطلعن إليَّ وكأني أحاول الانتحار، فكر كليم في نفسه.. علَّ مظهري سيئ جدًّا.

نهض وعاد إلى البيت محاولًا أن يقنع نفسه:

- شيء طبيعي.. أشعر بأنني أهنت أدبيًّا وأخلاقيًّا.. كما يشعر كل إنسان شريف، باءت محاولته بالفشل وجاءت عكس ما كان يتوقع، لم يسئ إليه اقتراح الدركي.. وبينما كان يحاول إقصاء هذا الاكتشاف، فكر على عجل:

- إذا توجب وضع الفكر قيد التنفيذ، يقتل شوبنهاور وهارتمان نفسهما..

ولكن سامغين فهم تمامًا: أن مصدر إهانته هو أن فكرة أن يصبح جاسوسًا لم تؤثر فيه.. ارتعب وحاول أن ينسى.

كان يتصبب عرقًا رغم أنه يسير الهوينى.. كان فمه وبلعومه جافين يتصبب منهما طعم المرارة.

استقبلته أميفيغنا وهي تكاد تطير فرحًا.

- آه.. يا عزيزي الصغير! لقد أطلقوا سراحك؟ ليتقدس اسم الرب.. كنت أفكر أنهم سيسجنوك إلى الأبد.. كما فعلوا بماكرويف.

مسحت دموعها وجلست إلى طاولتها وتابعت تقول:

- ولوباشا؟ تعرف أين أصبحت.. وأنت، أنت يا سيدي! لماذا تضحون بحياتكم يا أعزائي إكرامًا للشعب.

صمتت فترة وجيزة تستعيد أنفاسها وعادت تكمل:

- أخذت سلة ذلك الصباح، يوم اقتادوكم، وذهبت إلى سمن فاسيلتش وألكسي سموفيتن وأخبرتهما بكل شيء.. وفي نفس النهار بعثا بتانيا الصغيرة إلى كوستروما ليعرفا إذا ما حصل شيء لغاريا.

عادت إلى البكاء مرة ثانية ثم مسحت دموعها مجددًا ووقفت تقول:

- هل تريد أن تأكل أم تشرب الشاي فقط؟

رفض سامغين أن يأكل أو يشرب لكنه تبعها إلى المطبخ.

- يجب إحراق هذه الأوراق.

- أعطنيها، سأحرقها أنا.

بقي سامغين في المطبخ يتطلع إليها تحرق ملاحظاته. ثم رمت برمادها في سطل الماء القذرة وحركته بمكنسة.

كان هذا المشهد يوحي بشيء من الإثارة.. وأحس سامغين بأن شيئًا يسد بلعومه ويكاد يخنقه.. كان يود الصراخ والسباب.. استمر نصف ساعة يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا يحدق في رسوم الفنانين المشهورين. ثم قرر أن يذهب إلى غرفة الحمام. بعد مضي ساعتين كان يجلس قرب ساموفار(8) الشاي، وإلى طاولة فوقها أوراق كثيرة يحاول أن يكتب رسالة إلى والدته. ولكن الكلمات كانت تهرب منه. مزق رزمة من الأوراق ولم يعرف كيف يبدأ رسالته.. طرح الأوراق بعيدًا ونهض يتمشى في الغرفة من جديد يجيل الطرف في الرسوم والصور المعلقة إلى الجدران.

(8) الساموفار: وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط .

- خدمة واجبة حيث نضحي بأنفسنا.. قال وهو يتأمل رسم بلنسكي(9).

(9) ناقد أدبي شهير.. وصاحب ميول ثورية. (المترجم)

ضحك أحدهم في الغرفة المجاورة:

- يكفي هذا، يا أمي، ويجب أن تتعوده..

* * *

دخل غرفة الطعام رجل طويل القامة يحمل بيده قبعة ويرتدي بذلة سوداء.

- ألكسي سموفيتش غوغين، قال يبتسم بسرور..

وتبعته أميفيغنا ضاحكة كذلك.

جلس إلى الطاولة ورمى بقبعته فوق المقعد القريب ووقع قفازاه أرضًا:

- لا تتعبي نفسك، قال يخاطب أميفيغنا.. رغم أن هذه لم تتحرك لتلتقطها..

كانت تقف عند الباب تضم يديها إلى صدرها وتتأمله بإعجاب، وكأنها تنتظر شيئًا.

- لقد أحسنت وأسرعت التخلص! تحياتي!! قال يوجه حديثه إلى كليم.. وكأن صداقة قديمة تجمع بينهما.. من الذي وشى بك؟ قال يسأله.

لم يجب كليم.. وهنا عاود سموفيتش السؤال:

- ها.. ها.. الكولونيل فاسيليف! يا له من لئيم.. يجب أن يكون بائع أحصنة..

- أتعرفه؟ سأله كليم بدوره.

- وكيف لا؟ بفضله طردت من الجامعة، أجاب غوغين يتأمل كليم ويتفحصه بنظرات خائف وجِل..

لم يستطع كليم أن يصدق بأن مثل هذا الفتى كان طالبًا في الجامعة.. ولكنه تذكر بأن «المخبرين» الذين يعملون تحت إمرة فاسيليوف يشبهون هذا الشاب الأنيق..

- ماذا سألك هذا الإنسان بالنسبة للوباشا؟ سأل غوغين مستعلمًا.

- لم ينطق بكلمة واحدة.

- حقًّا تقول؟ولا كلمة؟

- سألني فقط إذا كنت أعرفها منذ زمن بعيد..

أحم.. م.. م، زأر غوغين وأصابعه تتلاعب بشاربيه الذهبيين..

- أرأيت.. إن قريبي يحاول إطلاق سراح لوباشا دون كفالة.. إنها ابنة أخته.

- وبالتالي ابنة عمك، قال سامغين وقد لاحظ تقاربًا في الملامح بين غوغين الأشقر ولوباشا.

- لا، إنني ولد بالتبني.. أخذني بعضهم من دار الأيتام، أجاب غوغين ببساطة. كنا نأمل أن تخبرنا عن نشاطاتها خارج عملها في الصليب الأحمر.

- أجهل كل شيء، أجاب كليم بقسوة.. ولكن هذا لم يهز غوغين الذي تابع:

- كانت في نينجي؟ ألا تظنها علقت هناك.. أمن نينجي أنت؟

- لا، أجاب كليم. وسأله بدوره إذا ما كان يعلم شيئًا عن باربارا.

- إنها سليمة معافاة.. أجاب وهو يحدق بالموقد الملتهب أمامه.. يظهر أن قضية لوباشا لم تدبر هنا.. إنما أتت من الجوار.

كان سامغين يستمع إليه ويقوي شكوكه..

«إن هذا الرجل يفضح نفسه بطريقة كلامه.. لم يكن سهلًا بقدر ما كان يحاول أن يبدو».

- طبيعية متقلبة. تنمو وتتطور بسرعة، قال وهو يضرب بيده فوق «الرسول الروسي»(10).

(10) صحيفة تحررية. (المترجم)

قال سامغين بلهجة صارمة إن الروح الثورية آخذة بالنمو بسرعة مذهلة.. وأجابه بهدوء ورزانة..

- يستطيع الكثيرون الاقتناع.. لكنها الابنة غير الشرعية:

الاكتفاء.

سر كليم جدًّا عندما غادر الزائر المنزل.

- من يكون؟ قال يسأل أميفيغنا.

- كيف؟ ألا تعرفه؟ قالت مستغربة.. إنه سمن فاسيلتش، وأبوه مشهور جدًّا في موسكو.

- شهير بماذا؟

- حسنًا.. غني جدًّا.. بنى دارًا للأطفال اليتامى.

- هل هو طبيب؟

- لا. لكن له أعماله الخاصة، أجابت وقد بدت مستاءة.

عاد العم ميشا في اليوم التالي، منهوك القوى وشد على يد كليم مصافحًا وقال يخاطب أميفيغنا:

- آتني بكوب ماء وقطعة سكر.

ثم أعلن أن لديه أخبارًا سارة عن لوباشا.

- تفضلي وابحثي عن كتاب «فلسفة الغيب» بين كتب لوباشا.. أم علَّني قرأت العنوان خطأ.. وهل يعقل أن يكون للغيب فلسفة؟

وعندما عاد كليم يحمل الكتاب الضخم، هز العم ميشا رأسه تعجبًا:

- ما رأيكم؟ إن لهذه الفلسفة وجود وكيان.

فتح الباب ثم أغمض عينيه وراح ينظر مرة ثانية إلى داخل الغلاف ويقول:

- آتني بشيء طويل.

وسحب من الداخل ورقة مطوية، فتحها وابتسم يقول:

- يمكننا أن نستخرج شيئًا مفيدًا من الغيب..

لف العم ميشا الورقة جيدًا وتركها بين أصابعه.

- هل لاحظت إذا كان المنزل مراقبًا؟

- لا. لم ألاحظ شيئًا.

- يجب أن يكونه.. قال الرجل العجوز بصوت رزين.

جرع ما في الكوب من ماء وسكر وعاد يسأل سامغين:

- كيف تفسر هذا؟ لقد أخرجت «بيان الحزب الاشتراكي- الديموقراطي الروسي» وفي نفس الوقت تعمل على إخراج مجلة صغيرة تدعوها «العلم العمالي» تتحدث هذه المرة عن الحزب الروسي الوحيد وبصفة أكثر حماسًا وانفعالًا عن البيان.

أجاب كليم بأنه لم ير بعد لا هذا ولا ذاك.

- هذا، أجاب العم ميشا، لم يكن لديك الوقت الكافي كي تتفق مع نفسك. وداعًا.

* * *

لاحظ كليم طيلة الأسابيع الثلاثة التي قضاها في منزل باربارا، أن لوباشا تلعب دورًا أكثر من الدور التي وزعه عليها.. دخلت عليه سيدة أنيقة تحمل مظلة بيدها وتقول، بعد أن عرفت باعتقال سوموفا:

- وصلت لتوي.. ووددت رؤية أحد الأصدقاء الذين تربطهم بها صداقة متينة. كانت تصر على كلمة «متينة» وهذا ما جعل كليم يقرر ويعطيها عنوان ألكسي غوغين.. ثم دخل رجل عبوس رث الثياب، عله معلم في القرية، فقال يسأل بدوره:

- هل اعتقلوه؟ حسنًا.. ألا تعرف كيف يمكنني الاتصال بماري إيفانوفنا؟

كان كليم يجهل مكانها تمامًا.

- يا لها من مؤسسة فوضوية، قال الرجل وخرج يزأر.

فكر سامغين، بعد كل هذه الزيارات الفجائية، أن الثورة التي تقوم بها لوباشا يجب ألا تكون مخيفة أكثر من هذا.. وأن ولادة حزبين اشتراكيين ديموقراطيين تقود إلى نفس النتائج.

بعد ثلاثة وعشرين يومًا أرسلت مديرية الدرك بطلبه، حيث استقبله الكولونيل مرتديًا أفخر الثياب وتزين صدره أرفع الشارات والأوسمة..

- حسنًا، ماذا قررت... سأله الكولونيل بسرعة.

ثم سعل وتابع:

- تفضل ووقع إيصال استلامك أوراقك.. إن قراءتها ركزت فكرتي نهائيًّا.. ألم تغير رأيك بعد؟

- لا. أجاب سامغين بحزم.

- آسف جدًّا. قال الكولونيل ونظر إلى ساعته.. لماذا لا تعمل صحافيًّا؟ لديك الإنشاء الرائع والأفكار الكثيرة.. كتلك التي تدور حول الانفعال في الاجتماع الطلابي- إنها صحيحة جدًّا.

- لست أظن نفسي كفئًا بعد لمثل هذه المهنة، أجابه كليم وراح يتطلع إلى وجهه.

- كونت فكرة رائعة وفضولية عن الأولاد الصالحين.. يجب أن توسعها في مقال صغير.

قال الضابط يحك بصلعته:

- قل لي، منذ متى تهتم سوموفا بالروحية.. وبكل هذا إجمالًا؟ ولوّح بأصابعه أمام جبهته.

- منذ طفولتها كانت تميل إلى الجمال وكل ما هو رائع.. أجاب كليم بدون مبالاة.. نظر إليه الضابط وهز رأسه بالنفي:

- لا يشبهها هذا بشيء..

عاد يحدق بكليم ويتابع مؤكدًا..

- بتاتًا.

هز سامغين منكبيه وسأل:

- ألا يمكنك يا حضرة الكولونيل أن تشرح لي ما هي الأسباب التي دعت إلى اعتقالي؟

- لا يتوجب عليَّ ذلك.. لكن نظرًا للمعرفة اللطيفة.. ومع ذلك فهي قصة طويلة.. يشاركك فيها بعض زملاؤك الكُتَّاب.. فأنت وهم وأخوك.. قسم، ثم السلطة قسم آخر.. لا أظنك تجهل أنه يشك بأخيك.. فقد حاول الهرب مرات عديدة! وبعد انتهاء مدة إبعاده حصل على تصريح كي يشترك في اختبار علمي... ولكنه تسلم قبل هذا إذنًا بالذهاب إلى بيسكوف.. لكن كان هناك إنسان آخر استعمل هذا الأمر واستفاد منه.

توقف الدركي برهة عن الحديث وعاد يضيف:

- ثبت لدينا أنه لم يكن لأخيك دخل في هذه القضية.

- والآخر؟ هل استطاع الهرب؟ سأل كليم وفكر في دولفانوف.

جلس الكولونيل على حافة الطاولة وسأل بهدوء ولطف رغم أن حدقتيه اتسعتا وصفا بريق عينيه:

- كيف عرفت أنه هرب؟

- هذا ما أسألك عنه.

- ولكن، ربما عرفته..

وأجاب كليم بقساوة:

- منذ اللحظة التي استعمل فيها شخص هوية ليست هويته.

- أجل. أجل. أجاب الضابط دون مبالاة واهتمام.

- ماذا المفيد هناك ؟ ما هي الإفادة المرجوة؟

نهض ومد يده.

- ومع ذلك لم أفهم شيئًا، قال سامغين.

- أجل، اعتقلوك ظنًّا منهم بأنك الرجل الذي استخدم الهوية..

«إن هذا اختراع منه» .. قال كليم في نفسه.

- لقد أوقف بالتأكيد.

«إنه يكذب» قال كليم في نفسه مرة ثانية.

- يشرفني هذا. قال الكولونيل متنهدًا.. وعلى فكرة.. سأذهب في مهمة رسمية.. ولبضعة أشهر.. إذا حصل سوء تفاهم أو رغبت شيئًا ما يمكنك التوجه إلى الجنرال رومان الذي يحل مكاني.. عد إليه في جميع أمورك.. وليحفظك الله!

خرج سامغين إلى الشارع وقد اعتراه شعور النصر تجاه رجل خسر وطنه:

- لم يفقد المسكين الأمل بعد في أن يجعل مني جاسوسًا.. من الأكيد أن دولفانوف هرب.. ولا يستطيع الدرك ضدي شيئًا.. سوى جعلي جاسوسًا.

أحس بأنه أقوى من قبل كثيرًا.. وأن كل ما أبداه في الشهور الأخيرة ثبت أفكاره ومعتقداته حول الحياة والرجال..

كانت الحياة في نظره تشبه باربارا إلى حد بعيد.. ليست جميلة جدًّا كما وأنها ليست ذكية إلى حد يثير الدهشة.. وبالاستناد إلى كلماتها الرنانة، وشعرها الجميل، فهي لا ترغب سوى برجل قوي يحرسها و«يخصبها».. تذكر الكبرياء المضحك الذي كانت تحدث به ليديا وآلين يوم أتوا يفتشون منزلها.. وتذكر كذلك لازمة العم ميشا:

- كنت في السجن معه وكان في السجن معي.

* * *

يتباهى بعض الناس بقوة الألم.. ألم الأسنان مثلًا.. ويتبجح بعضهم الآخر بمصائبه.. وهكذا كان يتباهى ليتوف بحبه غير الطبيعي والفاشل، وإينيكوف يرفض العمل.. أما فارافكا فتباهى بقدرته على التخلص من كل شيء.. وقدرته على البناء والغنى.. أما الكاتب كاتين فكان يتباهى بأنه وضع تحت رقابة البوليس. كان الجميع هكذا.. أما كوتزوف فكان يعجب بصوته وقدرته على الغناء..

بعد بضعة أيام كان كليم في منزله يتناول طعام العشاء مع والدته وفارافكا.. الذي كانت جثته الضخمة تملأ المقعد وتفيض.. يلوك الطعام بنهم ويسأل:

- وهكذا تعرض لك الجند مرة ثانية. أليس كذلك؟ كل هذا يدعونا للتفكير بثورة حتمية.. إذ نحتاج فعلًا إلى حكومة تمثل الجميع.. وتتألف من مائتين أو ثلاثمائة رجل عمليين يشدون أذن الحكام الحاليين وغيرهم من الموظفين الكبار.. إن هذا البلد الأبله يحتاج إلى كل شيء: إلى حنو ولين، كما يحتاج إلى عنف وقسوة.. ليس لدينا طرقات.. ولا يمكننا أن نتحرك.. أفهمت؟ وهكذا اشتريت غابة كبيرة.. اشتريتها بدراهم قليلة.. كنت أنوي إنشاء مصنع للورق ومنشرة أخشاب.. ومصنعًا لتقطير الكحول.. لقد خدعني المراوغون اللئام! إذ قبل البناء يجب حفر قناة طولها اثني عشر كيلومترًا.. بين المستنقعات.. هل يمكنك أن تفهم هذا؟ عندئذ بدأت أكيل لهم الشتائم.

- مخيف، قالت فيرا بتروفنا تهز منكبيها استنكارًا وتغلق عينيها الملونتين.

- أجل يا سيدتي، لو كنت مكانه لفعلت شيئًا أكثر.. أجاب فارافكا..

- ولكن ليس فقط هذا أبدًا.

- تعرَّضوا، في منزلي، لخادم ممتاز.. أمريكي التبعة وماركسي في كل شيء..

- مخيف.. عادت بتروفنا تقول متأوهة.

- وبماذا تريدين أن يؤثر فيَّ هذا؟

- لم يكن باستطاعتك أن تقول لهم هذا.

- ليس أنني لم أستطع.. لكن لم أرد..

نهض فارافكا يتوكأ على ذراعي الكرسي وسار بتؤدة ليرتاح في مقعد مريح:

- بعد نصف ساعة يجب أن نكون في النادي لنناقش أمورًا عديدة ومهمة.. قال يعلن لكليم.

استدار كليم وتبعته والدته بنظراتها:

- إنه عمل هائل هذا الذي يقوم به.. إنه مرض عقلاني.. إنه مرض عقلاني.. قالت تتنهد.. سيترك لليديا ثروة طائلة.. تعال واسترح بعض دقائق عندي.

- هل أرتك المرأة الوصية؟ لا؟ إنك ساذج جدًّا..

تنهدت من جديد وعادت تقول:

- إن الربيبات متعنتات دائمًا..

ثم سألته عن ديمتري:

- كيف حاله؟ يقولون، بصفة عامة، إن الرجال في الشمال أحسن منهم في الجنوب.. أرجوك.. ناولني علبة اللفائف والولاعة.

أشعلت لفافتها بطريقة عصبية ومضحكة أعادت إلى مخيلة كليم صورة شخصية هزلية من أدب ديكنز.. ولكي يتناسى هذا التشابه.. سألها عن أخبار السيدة سبيفاك.

- يا إلهي! إن إليزابيث تتصرف بعدم دراية وحنكة.. لا تهتم إلا بمدرستها وبالفتيات اللواتي ينتسبن إليها والعائلات اللواتي ينحدرن منها.. قادت زوجها إلى الريف ويرافقها إينوكوف.. تستلطفه دائمًا وتنتظر منه شيئًا يعلم الله ما هو.. كل هذا بعد أن وقع بينهما عراك شديد.. كما أن هناك رومانسية لم أفهم كنهها بعد.. ورغم كل هذا أحبها لأنها تنحدر من دم شريف.. آه لو تعلم أثر الدم في تقوية أواصر الصداقة!

تنهدت من جديد وعادت تسأل كليم:

- هل صحيح أن آلين تعمل مضيفة في دار الأوبرا.. وأنها أصبحت امرأة مبتذلة؟ صحيح؟

- مرعب.. مرعب! من كان ينتظر منها هذا؟

- دون شك.. كل الذين كانوا على اتصال بها.. أجاب كليم فلسفيًّا.

وعند المساء، خرج سامغين يتمشى في شوارع البلدة، يختار الأكثر هدوءًا منها ويتفادى الالتقاء بمعارفه، لم يكن يشعر برغبة بالذهاب إلى الصحيفة «منطقتنا» التي قال عنها فارافكا:

- الجريدة! إنها لا شيء.. الرهبان يطبعون فيها خطبهم.. ورئيس الكهنة هو رئيس التحرير..

- لا. لا.. يا سيدي. إن روسيا لم تتهيأ بعد لاستقبال صحافة رصينة.. صحافة أعمال..

تأمل كليم المنازل الحجرية التي بناها فارافكا منذ خمسة وعشرين سنة..

وفي آخر مساء، وقبل أن يغادر موسكو، ذهب سامغين إلى غابة الدير وجلس قرب النهر، يستمع إلى خرير المياه وطنين الأجراس.. وهنا تمثَّل ما ستكون عليه حياته القادمة.. سينهي دروسه الجامعية

ويتزوج فتاة بريئة وبسيطة ولا تكون عالة على حياته.. التي يود أن يمضيها في بلد بعيد.. في الريف، وليس هنا، إذ تشده إلى هذه البلدة ذكريات منها الرائع ومنها المؤلم.

أمامه، وعلى بُعد خطوات منه، ظهرت بين الحشائش امرأتان.. واحدة عجوز محدودبة الظهر.. متجهمة غامضة كالأرض بعد المطر.. أما الأخرى.. فقد كانت سمنة تبلغ الأربعين من العمر، عريضة الوجه متوردة الخدين.

جلستا فوق الأعشاب ونزعت الشابة من جيبها زجاجة عرق وبيضة ثم قالت:

- لم يحالفها الحظ مع زوجها الشاب، إنه متوعك الصحة دائمًا.. ولا يستفاد منه شيء..

- هل أولادها منه؟ قالت العجوز تسأل بعبوس.

- أكيد.. قالت الشابة.. ومن أجل الأولاد كانت تذهب إلى يننجني لتعمل وتعيل أطفالها.. إنها امرأة رائعة.. شكلًا وجسمًا.

- لا أظن أن هناك من يضاهيها سرورًا وخفة دم.

- ذهبت إلى المدينة طيلة أربع سنوات متتالية.. وربحت مبلغًا من المال لا بأس به.. فرممت منزلها، واشترت بقرة، ثم اشترت لها ولأولادها كل ما يحتاجونه من مأكل وملبس..

- وما يصيبكم إلا ما كتب لكم.. قالت العجوز بهدوء بعد أن جرعت ما لا بأس به من العرق.

- ماذا؟

- أقول إنه لا يصيبنا إلا ما كتب لنا..

- وهل يجوز أن نؤمن بالعكس! قالت المرأة الشابة مؤيدة.. وراحت تشرب.

كانت تشرب وتبكي في آن واحد.. إذ إنها باعت بقرتها..

- وستبيع الثانية..

نهض سامغين وابتعد عنهما يفكر بأنه إلى جانب الإيمان بالله لا يزال هناك اعتقاد مشابه بالأمور الوثنية..

«لو أن كاتين، أو نيكوديم سمعا الحديث لجعلا منه قصة مؤثرة».

استوقفته صيحات التعجب والفرح:

- ماذا تفعل هنا؟

- نهض دونايف من مقعده واقترب من كليم يأخذه بيده ويهزه.

- أنا من هنا! أجاب كليم على مضض.

- صحيح؟ وأنا كذلك.. ها هو قصر عمتي.. تعال واجلس برهة.

قاده دونايف إلى غرفته.. وبعد أن استراحا برهة عاد يسأله:

- هناك إخبارية تقول إنك أمضيت فترة في السجن.. هل أنت هنا في إقامة جبرية؟ وأنا كذلك.

تطلع سامغين إلى اليسار واليمين، فلم يكن هناك من يسمعهما..

- هل صحيح أن الماركسيين طبعوا بيانًا ووزعوه؟ ألديك نسخة منه؟

- هل يمكنك الحصول عليه؟ يا للأسف!

- ماذا تقول يا أخي! سأله سامغين وهو يستعجل وضع حد للقاء.

- هل ستبقى مدة طويلة هنا؟

- سأذهب غدًا.

- حقًّا؟

- هل بقيت طويلًا في السجن؟ سأل كليم.

- أجل. لكن ليس عاطلًا عن العمل. كنا خمسة في نفس الزنزانة.. نقرأ الكتب.. ثم جاءنا رفيق سادس.. نظرنا إليه في البداية كالخروف، ثم عرفنا فيما بعد أنه كان طالبًا في كلية الزراعة.. وتجاوز الأربعين من عمره.. كان يتحدث إلينا برفق فأعجبنا بحديثه جميعًا.. وعندئذ قلنا له: هيا أيها الصديق حدثنا عن البورجوازيين.. تلكأ كمن يخاف شيئًا.. وبصوت واحد قلنا له: أكمل أيها الرفيق.. لا تخش شيئًا.. إننا جميعًا عمال هنا.

لم يسر كليم بقصة دونايف.. إذ شك بأن العامل اخترع هذه الحكاية من لدنه. نهض وكذلك فعل دونايف وسأله:

- هل هناك آخرون تحت رقابة البوليس؟

- إنني أسكن في موسكو، كما تعلم، قال كليم يذكره.. استأذنه وأسرع في الشارع كرجل على عجلة من أمره.. كان مقتنعًا أنه إذا التفت إلى الوراء لشاهد دونايف يحدق به.

أجل.. إن هذا الفتى يعرف كيف يتخلص.

وصل إلى موسكو ونزل في فندق صغير.

وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى باربارا يبحث عن أعماله، واستقبلته الفتاة الشابة بنفسها.. مادَّة ذراعيها تستقبله بغبطة وانشراح..

- عدت منذ ثلاثة أيام ولم أعتد بعد العيشة في منزلي.. أعتقد دائمًا أنه يجب أن أعدو وراء الشهرة، قالت وهي تضع شالًا حريريًّا فوق أكتافها.

- كيف لعبت؟ قالت تردد سؤال كليم وتهز رأسها بأسى.

بدت وقد ازداد جمالها رقة وأنوثة..

- ولكن تعرف، إنني مسرورة جدًّا.. كما أنني مقتنعة بأن المسرحية لم تؤلف من أجلي.. لم أخلق لهذا.. فهمت هذا منذ أن دخلت إلى الحلبة.

- هل كان ما يقلقك هناك أيضًا؟ قال يسألها.

- لا، لكن جاء البوليس يسأل صاحب المسرح متى غادرت موسكو.. ولكن كم كانت دهشتي عندما علمت أنك.. ولا أستطيع أن أتصورك في السجن. صرخت تقول باحتقار.

سألها سامغين باسمًا:

- لماذا؟

- لا أعرف.. ولا أستطيع أن أتصوّر شيئًا مثل هذا.

«إن العمل في المسرح جعلها أكثر بساطة».. قال كليم في نفسه واستمر يخبرها بكل ما حدث معه منذ أن فارقها.. رمته مرتين بنظرات متسائلة.. عرف كليم، بعد عدة لقاءات، أنه من المستحيل التصرف مع هذه الفتاة كما كان يفعل في السابق.. فهي لم تعد تحتمل تسلياته الصغيرة أو نظراته الخرساء.. لكن تكتفي بالصمت والشفاه مطبقة على شهوة والعيون مغلقة حالمة.

«هل تراها تحب إنسانًا آخر؟».

عرف فيما بعد أن من الأفضل الحزم والجدية.

في إحدى العلب الليلية وبينما كان كليم يحضر مسرحية تلعب فيها آلين دورًا مهمًا التقى بصديقه ليتوف.. سيجارته بين أسنانه.. مشعث الشعر.. ووجهه مغطى بالبقع الحمراء.

- مساء الخير، قال بتلعثم يتأمل كليم وكأنه في حلم ولا تصدق عيناه.

- حسنًا، ما قولك؟ أرأيت كيف تغيرت؟ لقد أصبحت فنانة! أجل يا صديقي.. إنها على حق في ذلك.. هل تريد كأس كونياك؟

ترنح فترة وسقط فوق كليم يمسك بكتفيه.. كان مخمورًا حتى إنه وجد صعوبة في بالوقوف ثانية.. لكن كانت في عينيه نظرات مريبة وممزوجة بالرهبة والخوف.

- قال ماكاروف أشياء مشينة عنها.. لقد ذهب منذ مدة.. يا له من رذيل.. كما أرسلت له باقة من الزهور.. أحرقت السيجارة قبضة يده فلحسها ودسها في جيبه وسأل:

- هل سنشرب الكونياك؟ كي نزداد شجاعة؟ نعم، يا لها من رائعة.. أليست هكذا؟ قل.. بحق الشيطان.. قل!

ترنح واتجه ناحية الحانة يرتطم بالناس كالأعمى.

«لم يستحق الشفقة!» قال كليم في نفسه وعاد إلى القاعة.. استمرت باربارا عابسة صعبة المزاج طيلة المسرح، وكأن ما يمثل أمامها مأساة مهمة.. كما سارع الممثلون، وقد تأثروا ببراعة آلين، يعملون على إضحاك المتفرجين ونيل إعجابهم.

- يا للغموض! قال كليم بينما سكتت باربارا ولم تجب بشيء.. محنية الرأس لا تتطلع إلى المسرح.. ظنها كليم ستبكي، ولذلك حاول إخفاء ابتسامته وسألها:

- ألا تشعرين بارتياح؟

- أوه.. لا.. لا شيء.. لا تعره اهتمامك ولا تقلق.. تمتمت مجيبة.. بينما ردد هو في نفسه:

«لا شك في أن الرغبة تغذيها».

انتهت المسرحية بانتصار رائع أحرزته آلين.. بينما كان الجمهور يصفق ويصرخ.

- .. راديموفا؟

- هل ترغبين في الذهاب إليها ومشاهدتها في مقصورتها؟ اقترح سامغين.

- أوه.. لا.. لا.. أجابت باربارا بحيوية.

وفي الشارع قال:

- إن الأوبرا تؤثر عليك بشكل مزرٍ.

- أيضحكك هذا؟ سألته على مهل.. تأبطت ذراعه وأسرعا الخطى، يتحدثان كمن يحاول تبرير آرائه ومواقفه..

- أفهم أن هذا مضحك.. ولو كنت رجلًا لشعرت بالحيرة كذلك.

شد ذراعها وسألها بحنو:

- تحسدينها قليلًا، أليس كذلك؟

- على ماذا؟ ليس لديها الشكل الأنيق.. أحسد الجمال؟

كانت أسئلته وكلماته تحرجها، وتثيرها أحيانًا.

- أنت تعرف.. أن ليديا كانت تتشكى من الطبيعة وقوة الغريزة كذلك.. لم أفهمها أبدًا.. ولكنها على حق.. إن ثلينافا جميلة جدًّا.. أؤكد لك.. ومع ذلك تثير في النفوس شعور الرجولة.. أليس هذا صحيحًا؟

- ولعل سر المرأة الجميلة يكمن هنا، أجاب كليم.

- يا للأسف فأنت تمزح دائمًا.. وصمتت طول الطريق وحتى باب منزلها.. عندئذ قالت متنهدة:

- لم أفلح وأفهمك فكرتي.

لم يجد كليم في كل هذا سوى أن باربارا تحاول التخلص من نفوذه.. استاء من هذا، وبقي أسبوعًا بكامله لا يتردد إلى منزلها.. ويأمل أن تأتي هي بنفسها، ولكنها لم تأت وهذا ما أقلقه.. أصبحت ضرورية بالنسبة له. وهنا تذكر ألكسي غوغين.. ثم قال في نفسه: علها مريضة أو حل بها مكروه.. وأخيرًا قرر الذهاب إليها..

التقى هناك بلوباشا.. كانت ترتدي أفخر الثياب وتحمل تحت إبطها رزمة من الكتب.. وما إن رأته حتى قالت:

- كنت سأمر عليك بطريقي إلى المدينة.. قالت وتخلصت دفعة واحدة من نعليها الصغيرين.

- إذن «زرت» السجن؟ ولماذا احتفظوا بها في مديرية الدرك؟ اذهب إلى غرفة الطعام، ريثما أنتهي من ترتيب غرفتي.

وفي غرفة الطعام ارتمت فوق المقعد وراحت تحل ضفيرتها وتقول:

- سأذهب إلى الحلاق وأقص شعري.. أود تبديله والاستغناء عنه بشعر آخر.

وضعوني في زنزانة مظلمة.. ولست معتادة على مثل هذه الحياة التعسفية.

ثم مرت بيدها فوق خديها تشد عليهما وتحاول طرد الشحوب عنهما.

- أطلقوا سراحي منذ ثلاثة أيام.. ولم أعد إلى هناك بعد! أرسلوني إلى منزلي! ولكن يا لهم من بلهاء! أي منزل لا أملكه أنا.. يجب أن أذهب خلال أربعة أيام.. لكن يجب، رغم ذلك، أن أبقى في موسكو.. سيقوم بعض الرفاق بالوساطة كي أبقى هنا.. ولكن..

- أليس فاسيليف الذي أستجوبك؟ سألها كليم وقد شعر بالاستياء يتملك كل أعصابه.

إنك تنصح النساء أن يكن خادمات أطفال، مربيات. ولست أدري ماذا أيضًا. وإن طيبة القلب لا وجود لها. حل مل محلها الإجرام والخبث.. إلخ، إلخ.

- وماذا قال أيضًا عني؟ سألها كليم.

- آه.. الشيطان يعرف فقط.. تجاديف ومسبات..

جلس سامغين وقد استعاد هدوءه يفكر بالكولونيل:

- يا له من قذر.

تطلع إليها تحل ضفيرتها وتسدل شعرها على أكتافها بغنج ودلال.. لم يصدق ما قالته هذه الفتاة عن نفسها.. ولعل الصحيح هو أنها ارتجفت هلعًا أمام الضابط أثناء استجوابها.

- حقًّا لم تخافي؟ قال يسألها وقد ارتسمت في جانب فمه ابتسامة شك.

- أوه! أجابت، أنت تعرف المثل القائل: «إذا كنت تخاف الذئب، فلا تذهب إلى الغابة».

- لم تفكري بميتروفا؟

قفزت لوباشا من مقعدها وقالت تضرب كفًّا بكف:

- يا له من أحمق! تصور أنه أراد أن يخيفني.. وكأنني فتاة في عامها الخامس عشر.. يا له من وحش.. وهذا ما قلته له: «اسمع أيها الكولونيل، كل ما عملته أنا كان للصليب الأحمر السياسي، لكني لن أقول لك مطلقًا إلى من سلمت الدراهم، وما عدا هذا ليس لديَّ ما أقوله أبدًا». عندئذ أجاب:

«إنك كائن إنساني.. أنا كائن إنساني.. نحن كائنات إنسانية.. إلخ». وكأننا في المدرسة.. نصرف الأفعال الصعبة.. ثم نسيت ما قاله عنك..

- عني؟ هو تحدث عني؟ سأل كليم ووقف مرتاعًا.. وقلبه ينبض بسرعة.

- ميتروفا! من تكون هذه المجنونة؟! فأنا لا أومن بالاغتصاب والهتك.

- ولم تفكري بأن النساء جلدت في سجن كارا؟ قال كليم ملحًا..

- إن ذلك من التاريخ القديم.. انتظر، قالت وقد انحنت فوقه.. لماذا تتحدث بسخرية كهذه؟ أتود أن تهزأ قليلًا مني؟

- أجل.. قليلًا، أجاب ممتعضًا من تصرفاتها.

- رغبة مثيرة، أجابت مرتبكة.. ووجهك الشقي ينم عن ذلك..

- أعترف بأنني خفت في بدء الاستجواب.. ولكنني كنت أنتظر شيئًا أكثر (جدية) وذكاء.. قال لي: «يتبين إنك تقرأين لاسال» وأنت! سألته، ألم تقرأه! أنا، أجاب: «أقرأ هذه الأمور بحكم الوظيفة.. لكن أود أن تعرفي أنه لا يفيدك هذا كفتاة!». هذا ما قاله حرفيًّا.

سألها سامغين: أين هي باربارا؟

- ذهبت لزيارة آل غوغين.. تغيّرت كثيرًا.. تبكي عندما تشاهد ألين تلعب دور المغنية في الأوبرا.

- من هو غوغين؟

- عم لي.. اكتشفت هذا منذ مدة وجيزة.. ليس عمي بالمعنى الكامل، لكنه كان متزوجًا من خالتي.. ولكنه يحب العائلة والتقاليد، ويصر على أن أعتبر نفسي كابنة أخته.. وهذا ما أريده أنا كذلك.. إنه عجوز طيب.. وقد يفيدنا بشيء..

ثم قالت عن ألكسي:

- كسول جدًّا وسيئ الخُلُق.

تنهدت بعمق وأضافت تتشكى:

- آه لو عرفت يا كليم كم سأثور لو طردت من موسكو!

لم يجد سامغين شيئًا يجيب به عن شكواها، كان يفكر في نفسه ويقول: «بقدر ما لعب مع باربارا وجد نفسه في نقطة حيث كان ضروريًّا أن يتغير اللعب أو يتوقف». وما إن دخلت هذه إلى غرفة الطعام موردة الخدين من شدة الصقيع حتى وقف يبتسم.. حيته بسرعة وركضت إلى سوموفا تضمها إلى صدرها وتصرخ:

- انتصرنا يا لوباشا.. سيتركونك هنا مدة ستة أسابيع.. وستتبعين علاجًا لدى طبيب نفسي.

- أوه! صرخت لوباشا.

- عمل رائع! لكن أنت مجبرة على الذهاب إليه.

- آه يا إلهي! سأذهب إلى الكاهن إذا قضت الحاجة.

- إذن سنحتفل بهذا.. سيأتي آل غوغين.. ولذلك اشتريت بعض الأشياء الصغيرة واللازمة لمثل هذه المناسبات السعيدة.

* * *

جاء غوغين ترافقه فتاة جميلة.

تفحصت كليم وقالت:

- سامغين! سبق وسمعنا بك.. إنك شخص مغفل.

- من قال لك هذا؟

- جاكوب تاغيلسكي، الذي لا أثق به.. لكنني أظنه محقًّا هذه المرة.. تبدو وكأنك رجل عالم، لك لحية غريبة وكلنا نحترمك جدًّا.. إياك أن لا تقدم على أي حماقة.

قالت هذا، وأخذها غوغين من ذراعها وشده بقوة.. فآلمها.. ثم رفعها عن الأرض ووضعها بعيدًا عن كليم وقال:

- لا تفاجأ، إنها دمية.. فارغة من الداخل.. كالصوت وتتكلم كـ..

- لا تصدقه! صرخت ثانيًا تقول وهي تبعد أخاها بكتفها.. وفي هذه الأثناء قادت لوباشا غوغين إلى منزلها ورجت باربارا الفتاة الشابة أن تساعدها.. فسر سامغين لبقائه وحيدًا وبسلام.. كان يتضايق جدًّا عندما يقابل أناسًا من هذا النوع.. وهكذا قال غوغين للوباشا:

- لا تغضبي! لقد اتضح أن السياسة هي ابنة الاقتصاد، وطبيعي أن تسهر على ابنتها..

وأعلن لباربارا كالشماس يقرأ «الساعات»:

- قال أرسطو عن حق: عندما يرتفع الإنسان عن الدائرة القمرية، لا يموت مطلقًا.. إذن لا تتفاخري بشيء يا عزيزتي باربارا.

وقالت تاتيانا تخاطب لوباشا:

- لا تسيئي إلى آلشكا..

ثم خاطبت أخاها بنفس اللهجة:

- كف عن هذه المهاترات السخيفة.. وأضافت تأمر الخادمة:

- اسكبي لي مزيدًا من الشاي الساخن.

ودفعت كوبها إلى الأمام.

شك سامغين في أنها تقول كل هذا دون أن ترمي إلى شيء من ورائه.. أو أن تكون مدللة إلى هذا الحد.. أو متعنتة وشقية.

جلست قربه تتفحصه بتمعن وتقول:

- اشرح لي أيها الرجل الرزين.. كيف أرغب، وأنا الفتاة الجميلة المنحدرة من عائلة بورجوازية، عن هذه الحياة الحلوة.. إلى حياة أخرى؟ ولماذا؟

- إن هذا يأتيك من الذكاء.. وسيمر بسرعة، أجابها كليم وقد أدرك أنها تود جره إلى «حديث مفيد».

- لا.. لست ذكية إلى الحد الذي تتصوره، أجابت وهي تلعب بملعقة الشاي بين أصابعها. إن هذا يأتيني من القلب، كما أظن.. ماذا يمكننا أن نفعل حياله؟

كانت تزعج سامغين وتمنعه عن مراقبة أخيها يداعب لوباشا.

- استعدي كي يضعوك في السجن لعدة أشهر.

- أتظن أن هذا يشقيني؟

- لا، بل يعلمك كيف تقدرين الحياة البرجوازية حق قدرها.

ابتسمت وسألته:

- أظنك لا تكوّن فكرة واضحة عن الإنسانيين؟

- لا.. ليس كثيرًا، أجابها سامغين بصراحة.. ثم نهض ونظره لا يحيد عن يد ألكسي الممسكة بلوباشا.

وقال ألكسي:

- وكما ترون أيها الشعب الكريم.. ليس هناك أدنى أعجوبة.. إنما هي المهارة اليدوية.. والتي حظيت بموافقة العالم كذلك.

وراح ينشد الأغاني الحماسية ويعزف بعنف على البيانو.

- أحمق! قالت تاتانيا وضربته بدفتر الموسيقى فوق رأسه.. وبقوة غير اعتيادية تخلص منها وأمسكها من كتفها وضغط حتى كاد يسحقه.. تجمهرت بقية الفتيات من حوله ليخلصن رفيقتهن من بين يديه..

وكان هذا بدء العراك..

فهم سامغين أن وجوده الآن أصبح في خطر، ولذلك قرر الانسحاب بهدوء ودون أن يراه أحد.

* * *

زادته دقة التصرف بحرية عنادًا.

كان يترقب باربارا كصياد يتجسس على ثعلب في غابة ما.. وقال في نفسه أكثر من مرة:

- سيكون الآن.

ولكن كل شيء كان يقلقه وكل هفوة تزيده حيوية تجاه باربارا، تشده أكثر إليها.. لم يتوصل بعد أن يجدها وحيدة في منزلها، ولم يجرؤ أن يدعوها لتأتي إليه في منزله.. ولن تذهب أبدًا.

عندما دخل إلى منزلها وجد أن آل غوغين سبقوه- الأخ والأخت يأتيان دائمًا معًا- وأحيانًا الغامض غوساروف.. كان هذا الأخير قلقًا جدًّا على مصير الحزب الاشتراكي- الديموقراطي، ويلاحظ كيف أنه رأى الحزب لم يستطع توحيد الماركسيين والشعبيين.. إنما يبعدهما عن بعض أكثر فأكثر.

- ما الفائدة من حسن المعاملة عندما نكون فقراء معدمين؟ قال في نفسه يجيل الطرف تارة في باربارا وطورًا في تاتانيا التي لم تكن لتعيره أدنى اهتمام.

يتحدث إلى غوغين ويستمع إلى خرافاته كالطالب.

- لا تقلق.. كل شيء يسير على خير ما يرام.. إن الماركسيين أناس خبثاء ويفهمونك جيدًا، ولا أظنهم يمانعون أو يصارحون اتحاد قلب حار مع دماغ بارد.

كان سامغين يستمع إلى ألكسي يتحدث عن الماركسيين والشعبيين بنفس الاشمئزاز وكي يخفف عن غوساروف الذي كان يحزن بسرعة.

- وكذلك الأحرار سيجبروا على تأليف حزب صغير.. ولو كان تثقيف البارعين من أولادهم أو قوية الأطفال الضعفاء فيهم.. إن كل شيء يسير بنظام.. لا تيأس.

كانت باربارا تغازل غوغين، وعرف سامغين أنها تبالغ وتتعدى الحدود. كان عليه أن يتخلص من أسئلة تاتانيا، المملة كذبابة الخريف.

- ما رأيك بالمنحطين؟ هل هي عادة تقليدية عن الفرنسيين القدماء؟ ألا تظن ذلك غريبًا؟

أحس كليم بأن هذ الفتاة ذات العينين الكبيرتين، لم تكن لتعتد به وتحاول أن تجربه.

رافقته ذات يوم تودعه حتى باب منزلها، ولكنه امتعض من هذا الوداع المفرح، فأخذها من عنقها وأرجع رأسها إلى الوراء بيد، بينما ضمها إليه باليد الأخرى وراح يمتص شفتيها الشهيتين بشهوة وعنف.. ابتعدت عنه لاهثة وامتلأت عيناها بالدموع.

وفي الشارع وجد نفسه في حالة زهو وانتصار.. كرجل تنبأ بقدوم عدوه وعرف كيف ينتصر عليه وينتقم منه.

عاد إلى منزلها بعد أيام.. لم يجدها هناك.. بل التقى غوغين ولوباشا يجلسان معًا في غرفة الطعام.

- واحد من الذين نسيناهم، صرخت لوباشا تقول، ثم أعلمت كليم، بكلمات مقتضبة أنهما كانا يؤلفان منظمة عند ليتوف.. يشترك فيها الكتاب الثوريون، ولربما حضرتها أرمولوفا شخصيًّا(11).

(11) مغنية شهيرة (المترجم).

هناك آلين أيضًا وستكون رائعة.. ويمكننا أن نتخفى.. لو شئنا. سعر البطاقة خمسة روبلات.. يمكنك أن تشتريها بألف. كم بطاقة يمكننا أن نبيع؟

- لصالح من؟ قال يسأل، محاولًا اختلاق الأعذار كي يرفض بيع البطاقات.

- لصالح العميان، أجابت تاتانيا.

- ولترميم جدران الكرملين.. أضاف غوغين.

لم يستطع كليم أن يرفض، أمام هؤلاء القوم، هذه المهمة البغيضة.. فاكتفى بشراء خمس تذاكر، يدفع ثمنها بنفسه ولا يذهب إلى بيت ليتوف.

ولكنه غير رأيه وعاد بعد أيام ليذهب إلى ذلك المنزل..

استقبله هذا الأخير عند مدخل الغرفة.. يسعل ويحيي الضيوف كالسمسار قائلًا بصوت قلق وروتيني:

- أرجوكم.. تفضلوا وادخلوا.

أزاحه كليم من أمامه، وتوقف في الباب:

- من؟ أغريبًا؟ نعم؟ قال ليتوف متلعثمًا.. ادخلوا.. ادخلوا.. مرحى بكم في منزلي.

ووقف أمام كليم صف من الزوار يسد طريقه.. كانوا جميعًا من المهندسين والمحامين.. يعرف الكثير منهم.

استرعى انتباهه رجل أنيق، قصير القامة.. وللحال عرفه كليم، إنه أرماكوف، الحكواتي الممتاز والمدمن على قراءة قصص تشيكوف الشيقة.

- كوركونوف؟ تساءل.. كان ممتازًا بالنسبة للطلاب.. سأحدثك شيئًا عنه.. أفسحوا المكان للساحر، صرخ وقفز بعيدًا عن سامغين.

- اسمحوا لي، قال بحري واسع المنكبين انتصب أمام كليم، اسمحوا لي أن أقدم لكم علم القضاء بشخصية بيتراجيتسكي..

ولمسه كليم بعصاه السحرية.. فالتفت البحري إلى سامغين يصرخ وكأنه عرفه:

- آه.. تعال أيها المشعوذ.

- لا.. أرجوك.. لست كما تقول.. إنه ساحر وحسب.. قال بعضهم.

- تفضل بقبول أصدق تعابير احتقاري.. قال سامغين بلهجة قاسية.

ارتدت لوباشا أزياء ريفية، وأخذت تقفز بين الجمهور كالكرة الملونة وتصرخ:

- عزيزي؟

- إنها تفتش عني.. تصرخ لأعرف أين هي الآن، قال سامغين في نفسه ولم يتأكد بعد من حدسه.. وكأن القضية كانت غاية في البساطة.. ضايقه إحساسه ببعده عن هؤلاء القوم المتأنقين.. رغم أن مثل هذا الإحساس لم يكن ليسيء إليه قبلًا.. حاول أن يعزوه إلى فشله في اختيار ثيابه التي كانت تجبره على أن يسير كالطاووس.. وهنا عرف أنه يحاول خداع نفسه والاختباء منها.. عرف أن ما يزعجه ويقلقه سيكون كوتزوف دون شك إذا ما عرفه.

- لا شك أنه في موسكو وفي حالة سيئة.

اشترى لنفسه زجاجة من النبيذ الأبيض وجلس إلى الطاولة في الزاوية، أمام النافذة.. بين الحائط والخزانة.. وكأنه في صندوق.. بينما كان تاغيلسكي يضرب قناعه الكرتوني بيده ويتململ في مكانه.. ضحك باستهزاء، وتطلع إلى سامغين بعنادٍ، ونظر إليه بمؤخر عينه كرجل مخمور.

- هل تتسلى أيها الساحر؟

- أعرف أشياء كثيرة تفيد وتسلي، أجاب كليم بغموض وقد بدل لهجته.

- وأنا كذلك، أجاب تاغيلسكي وهز برأسه فانحدرت قبعته تغطي أذنيه.

لم تكن المرة الأولى التي يشاهد فيها تاغيلسكي مخمورًا.. كان يشعر برغبة جامحة ليعرف ما الذي يدعو هذا الرجل إلى شرب الخمرة دون اعتدال.

- هل هم الشعبيين الذين نظموا هذا؟ سأله تاغيلسكي.. ثم نظر إلى الزجاجة الفارغة أمامه وأشار إليها بسخرية.

- لا أعرف، أجاب كليم وتطلع إلى الخارج ليشاهد الناس يمرون وقد ارتدوا البذلات المزركشة.

- إنهم يتسللون، تمتم تاغيلسكي.. لكن انظر أيها الساحر.. كم تظن بينهم من المعتوهين والبلهاء؟ ما معنى هذا؟

لم يجب كليم بل اكتفى بملء كأسه الفارغة.

ازداد الضجيج وعلا الهرج والمرج من كل حدب وصوب.

ولم يعد يسمع صوت ليتوف يسأل:

- وماذا قلتم لبيلاطوس؟ لم يقل المسيح.. أنا الحقيقة كلها؟ وأنتم هل قلتم هذا؟

إن هذا الرجل يلعب دون اعتناء.. حتى يظن أنه من المشاهير القادمين.. ولعله ترك شعره يستطيل هكذا من أجل هذه الغاية.

- إنك شقية يا تاتانيا، قالت باربارا متنهدة.

- لكنها حسودة.. 70 % من الشهرة دون شك.. ولكن أنا؟ وهذا ما يجعلني تعيسة.

حدقت في كليم ثم في تاغيلسكي وقطبت حاجبيها وكأنها تحاول تذكر شيء.. ثم قالت بصوت خافت تخاطب باربارا:

- وأنت أيضًا.. نجحت إلى حد ما.

- بفضل تنورتي القصيرة.. أجابت باربارا بهدوء.

ظهرت لوباشا عند الباب وقالت:

- رائع أيتها الفتيات! أليس كذلك؟ هيا إلى الغناء يا بيلاجي بتروفنا. أسرعت الأخيرة تلبي الطلب وسحبت لوباشا معها.

- شجاعة نادرة.. قالت تاتانيا.

اقترب سامغين من الباب الذي يؤدي إلى القاعة.. يراقب عازف البيانو والمغنية الواقفة إلى جانبه تنشد: «ألم أكن قشة صغيرة في حقل كبير؟».

كانت تاتانيا تقف وراء سامغين وتردد كلمات الأغنية أو تزيد عليها بعض الشيء.

ودخل نيكوديم وليتوف ثم سارا تؤًا إلى المقصف.. كان الثاني يسير على مهل ويسمع لحذائه صرير حزين.. يمسك سيفه بيديه الاثنتين.. بينما سار الكاتب إلى جانبه يتمتم:

- لقد فرغ من طبع قصة حلوة في «البريد» وبدأت الصحافة تتعرض له وتطري على مزاياه الأدبية.. سيؤلف كتابًا بعد سنة على الأقل.

- كونياك أم فودكا؟ سأله ليتوف بينما كان يتفرس في الفتيات.

التفت كذلك إلى سامغين:

- عندما كنت شابًّا أيها الفلكي الصغير.. شربت؟

- العلقم.. أجاب كليم..

- رهيب، قال ليتوف يهز رأسه.. بينما أضاف نيكوديم بعناد:

- إنه الآن مأخوذ بالإطراء.. كذبابة غرقت في صحن حلوى.

- اشرب معنا أيها الحكيم، قال ليتوف ملحًا..

رفض كليم ودخل إلى القاعة الأخرى بينما انفجر التصفيق الحاد.

رفضت إحدى النساء أن تغني، فحلت امرأة أوكرانية، باهتة اللون والوجه، محلها.. مغطاة بالزهور ويجلس كوتزوف إلى جانبها.

- سيكون لهذا الصوت شأن كبير في المستقبل الكبير، قال الماركيز الضخم الجالس إلى جانب سامغين.

- إنها مدرسة في إحدى القرى النائية.. وتغني بطلاقة.. قال صوت آخر مؤيدًا..

صفق الجميع تأييدًا واستحسانًا.. وركضت لوباشا، رطبة المآقي، مسرورة الوجه تخاطب باربارا بحماس:

- ما رأيك؟ يا له من صوت رخيم؟ هل تذكرين؟ سبق وحدثتك عنه.

- لا. قالت تاتانيا، إنه يغني كالآلة.

- سكوت، قال ليتوف وأدار سيفه إلى الوراء.. المتدلي على جنبه كالذَّنب.

لم يتوقف كوتزوف عن الغناء بل استمر ينشد:

«اهدئي.. يا عوارض الشهوة.. ودوافع الغريزة».

اندفع ليتوف نحوه وقال:

- أتسمح؟ عفوًا.. إنك تملك صوتًا رائعًا.

قرب لحيته من وجه كوتزوف وقال صارخًا يلوح بمنديله:

- ولكن الغناء هكذا ممنوع!

- غير مسموح؟ ولماذا؟ سأل مندهشًا.

- إنك تقضي على مبادئ الرومانسية وحلاوتها.

- وتعرض عدم قدرتك.. ثم تبرهن على سماجتك.. قالت لوباشا منفعلة.

- قولي بصراحة إن هذا سيئ وكفى!

- اسمح لي أن أشرح لك، قال نيكوديم.. ولكنه لم يكمل، إذ رماه ليتوف بنظرة جانبية فسكت.. ثم عاد يسعل ويبصق في منديله ويقول بحزم:

- رائع.. لكن ليس هذا، إنك تتغنى بآلام الشهوة.

- إنني أحب الموسيقى.. وليس الكلمات!! قال كوتزوف مبتسمًا.

استدار ليتوف ناحية المقصف وصرخ:

- نيقولا! طاولة.. طاولتين..

والتفت إلى الساقي يرجوه:

- أرحني من هذا الحيوان القذر!

وهنا عرف سامغين أن الساقي كان ماكاروف..

- اسمح لي، كيف يجب أن يفهم هذا؟ سأل الكاتب نيكوديم بقساوة بينما مشى الجمهور باتجاه كوتزوف يبعدونه حتى المقصف.. إن التاريخ يكتب بالآلام والشهوات.

أسرع الخادم يلبي رغبات ليتوف ويمد طاولتين كبيرتين في وسط القاعة.. ثم صف فوقها الكؤوس والزجاجات.. ارتطم به بعض الحضور، فوقع الكأس إلى الأرض وتحطم.

- يا شيطان! صرخ ليتوف، إذا لا تعرف أن..

ثم عاد يقول:

- أسرع يا عزيزي، أسرع.. اجلسوا أيها السادة.. سنتكلم قليلًا.

كان الجو حارًّا ويدعو للاختناق.

- لا أظن أن هناك ما يجبر الرجال على العراك فيما بينهم..

- لا، إن المادية لا تتجاسر على تلقيح شعبنا وإصابته بعدواها.

بقي سامغين قرب الباب يتطلع إلى ليتوف يملأ الكؤوس بتؤدة ويقدمها إلى ضيوفه ويخاطب كوتزوف:

- ها هو رجل يرتدي زي الفرسان، لماذا؟ لماذا هذا الزي بالذات؟

- ليس هذا بجديد، أجاب كوتزوف، يمسك بيده كأس نبيذ أحمر! نبأنا الأنبياء بهذا فقالوا:

«إن أغنياء اللصوص أشبه بذرة الغبار تثيرها العجلات وتتطاير مثلها».

عزفت الموسيقى ثانية وعاد الراقصون إلى حلبة الرقص.. وجاءت المتدينة تجلس قرب سامغين وتتكئ على الباب.. نظر إليها سامغين وقال:

- أعرفك.

- حقًّا؟ سألته بصوت خافض ودون مبالاة.

- اسمك ماريا إيفانوفنا.. وتقيمين في..

ثم ذكر لها اسم الشارع حيث التقاها.. يوم كان يقوده الدرك إلى المديرية العامة.

- وماذا تعرف أيضًا؟

- أعرف كل شيء عنك.

- حقًّا؟ أراك تعلم عني أكثر مما أعلم أنا عن نفسي.

- لقد برهنت السنوات الثمانين على أن المثقفين، في مجموعتهم، لم يكونوا ثوريين مطلقًا.. قال كوتزوف.

- هذا ليس صحيحًا!

- أجل! صحيح.. أجاب تاغيلسكي ممسكًا قبعته بيده..

- الآن.. وبعد أن جردت الماركسية المثقفين من رتبهم واعتباراتهم.. أضاف سامغين.

- اسمح! صرخ أحدهم غاضبًا.

- لا تقاطع أبدًا!

- لا، اسمح يا.. إن ذلك يتعلق بالشرعية.

- فليسقط الانتهازيون.. صرخ رجل آخر.

اختلطت الأصوات على لوباشا وقالت على مسمع من الجميع تعني كليم:

- لأنك اشتريت خمس تذاكر لصالح الموقوفين السياسيين، تظن نفسك مالكًا لمركز مهم في التاريخ؟

- إن ردَّات الفعل شرعية..

- بفضل مؤيدي تولستوي وبوبدونتسيف.. أضاف شخص ما من الزاوية البعيدة.

- لم يكن معروضك سيئًا.. قال الكاتب.

- إن ما تسميه «المجتمع» يشهد حاليًا عملية اقتتال بين الشعبيين والاستبداد..

كان كليم يرغب، وهو مخمور الآن، أن يبرهن للجمهور أن جمال آلين الباهر لا يؤثر فيه البتة، وليس له عليه من سلطان.. اقترب منها يضحك ويود أن يقول لها شيئًا عائليًّا.. وإذا به يفاجأ بصراخها:

- يا إلهي! إنه كليم! ومخمور كذلك! إن البذلة تناسبك.. وتشرب أيضًا؟ إن هذا يدهشني حقًّا!

- أجل أشرب وإنني هنا أيضًا، أجابها.

كان ينوي أن يتحدث إليها طويلًا.. ويقول لها أشياء وكلمات.. تثاقلت التعابير وعجز اللسان عن النطق بها.. فقال:

- أجل. أشرب.. وأشرب بمفردي.. إنه بيان.. هل قرأتينه؟ لا؟ وأنا كذلك لم أقرأه.

ثم عاد إلى قرب الطاولة وسألته باربارا:

- أتشعر بسوء؟

- أجل، قال معترفًا.. وأنت تراقصيه أسوأ.. وبطريقة غير لائقة.. سمع أحدهم يقول له:

- هل تود مشروبًا يزيل آثار الخمر من رأسك؟

شرب كأس ليمونادة وشعر براحة تامة..

سأل باربارا:

- من هو هذا الصيني؟

- رئيس تحرير جريدة مشهورة.

امتعض وأجاب باشمئزاز:

- يهودي؟ ليلعنه الله..

غرق في ثبات عميق.. ولم يستيقظ إلا في غرفة واسعة فخمة الأثاث لم يعرفها قبلًا.. بل أعادت إلى ذاكرته الغرفة التي سجن فيها في مديرية الدرك.

وفجأة سمع وراء الباب ضجة ثم شاهد ملعقة تدق الزجاج:

- أجل، أحمله جيدًا.. قال صوت خفيف.

فتح الباب وأحس سامغين بباربارا قرب سريره.

- هل تنام؟

- لا، لا أنام أبدًا.. لكن أخجل.. قال يفتح عينيه.

ولعل باربارا لم تسمع كلماته، فقالت بفرح وحنو:

- كم تبدو مضحكًا وغريب الأطوار وأنت في حالة السكر.. ألا يزعجك أنني أتيت بك إلى منزلي؟ لقد نمت أكثر من اثنتي عشرة ساعة.. لا تنهض.. سآتيك بالقهوة.

استوى سامغين في السرير، ووضع نظارته فوق عينيه، ثم عاد وتركها جانبًا.

- لم ترجع لوباشا بعد، أخبرته.. أصبح المكان هناك جحيمًا وخاصة عندما تركت المكان.

شرب سامغين القهوة وناولها الفنجان.

تقدمت لتتناوله فزلت بها القدم ووقعت أرضًا.

ابتسم وقال:

- إشارة طيبة.

أزاح الغطاء عنه وغادر السرير بسرعة، ثم انكب فوق الفتاة يضمها إليه بقوة ويقبلها بعنف.

- لا، لا أمنعك عن هذا، قالت وهي تحاول الإفلات منه، إنك لا تحبني..

عادت تقاومه من جديد وتقول بغنج:

- أشفق عليَّ! أرجوك! دعني وشأني.

* * *

قالت له ذات يوم وهي مستلقية فوق ركبتيه:

- حاولت مرة أن أفكر بما نشعر ونحن في وضع كهذا.. فوجدت أنه يتعدى خيالي ويزيد.

«إن خيالك فقير جدًّا» ردد كليم في نفسه.

لم يغير سلوكه تجاهها ، وخاصة بعد أن أحصى كل ما تمتع به من صفات صغيرة، ولكن عدم ثقته دفعته كي يمضي في مراقبتها، ولاحظ أنها تنظر إلى طريقته هذه وكأنها انتباه للحب فقط.

- هكذا يجب معاملتهن. قال في نفسه.

كان يلاحظ كذلك، ومن وقت لآخر، موجة من الحزن والحيرة في محياها.. عرف عندئذ أنها بانتظار الكلمة التي لم يجرؤ بعد على النطق بها.. لكنه وجد نفسه مجبرًا على تنبيهها..

- إنني لا أتلاعب بكلمة «حب»!

امتنع عن التفكير بليديا.. كانت ذكراها تزعجه جدًّا.

أراد ذات يوم، وهو في ذروة النشوة، أن يقص على باربارا مغامرته.. خاف وظن أن هذا قد يجعلها تحتقره ويبديه صغيرًا أمامها.

- لقد نسيت ماراكويف تمامًا، قال والبسمة السعيدة على ثغره.

فوجئ عندما شاهد عينيها تمتلئ بالدموع وسألته برقة:

- أتلومني أنت أيضًا؟ لم يكن هذا إلا إكرامًا لك.

وارتمت فوق صدره تشده إليها وتقول باحتقار:

- لماذا قلت هذا؟ لا تكن قاسيًا يا عزيزي!

- إنها تحتك بي منذ الآن.. قال سامغين..

وعندما اجتمع، ذات مساء، بلوباشا سألها قائلًا:

- أخبريني حقيقة من هي؟

- إنسانة طيبة جدًّا.

- وماذا بعد؟

- إنسانة طيبة جدًّا.

- أليس لديك شيء آخر تقولينه عنها؟

وعندما كان ينصرف..

- إنك تزعجيني دائمًا بأسئلتك! إنك أشبه بالصحافي عندما يستقصي أخبار الأموات.

كانت باربارا فخورة جدًّا بصداقتها الجديدة مع ماريا إيفانوفنا.. وبدا أنها تسعى لتوطيدها بشكل دائم.

وعندما سألها كليم عن سبب هذا كله، أجابته:

- إنها تثير حفيظتي.. أجد فيها شيئًا مبهمًا.. شيئًا تحتفظ به لنفسها فقط.. يشع من عينيها بريق من الفتنة والإثارة..

وهذا ما اكتشفه هو بنفسه عندما تحدث إلى ماريا عن لقائهما:

- نعرف بعضنا منذ زمن طويل.

نظرت إليه متسائلة وعادت تقول:

- ألا أتذكر أبدًا؟

ذكّرها كليم بالعشاء عند ليتوف.. وبيوم وصول القيصر.. وبالمطعم حيث شاهدها تقرأ رسالة.

- لم أنتبه لك، أجابت بعدم مبالاة، ثم تناولت كتابًا وراحت تتصفحه.

حدجته بنظرة قاسية من فوق الكتاب..

- أمنذ زمن بعيد وأنت لا تدرين بوجودي؟

صمت برهة يحدق فيها وأضاف:

- ولكنك عرفتيني جديًّا عندما مررت برفقة الدرك.. هل تذكرين؟

وهنا أدرك أن عينيها تفور في محجريهما وترتجف..

- انتظر، صرخت تقول مسرورة.. أين حدث هذا؟

- في تمام الساعة الرابعة صباحًا.. وكنت برفقة شخص ما.

- لا. قالت، ثم خبأت وجهها بالكتاب المفتوح بين يديها.

- كيف لا؟ سمعت!.

- ماذا؟

- إنه رجاك أن تسرعي الخطى..

رمت الكتاب فوق المقعد وتنهدت.. تهز منكبيها..

- لم يقدني.. لا. بل فتح لي الباب فقط، أجابت مصححة أقواله.

أجل.. أتذكر هذا.. كنت أمضي السهرة عند أناس أصدقائي.. وكان عليَّ أن أعود باكرًا إلى المنزل.. إذن كنت الذي يقودونه؟

- نعم.. أذكر جيدًا الآن.. كان طالبًا على ما أظن.

- بدا لي إنك عرفتيني، قال سامغين بإلحاح.

- لا. أجابت غير مكترثة بأقواله.. ليس لديَّ ذاكرة الوجوه.. وكنت حزينة آنذاك.

«لم تخطئ باربارا.. إن في هذه الفتاة شيئًا ما.. يدعو للتعلق بها» ردد سامغين في ذاته.

اتسعت الحركة الطلابية ولم تعد تسمح لكليم بأن يفكر حتى بماريا إيفانوفنا.. عليه الآن أن يتصرف بمهارة، وإلا تعرض مرة ثانية لنتائج سيئة هو في غنى عنها. لم تكن شهرته كرجل معتدل لتتركه في مأمن.. ولكنها دعت بقية الأعضاء للتجمع حوله والاستفادة من علومه وخبرته.

كان سلوك باربارا يقلقه جدًّا.. رغم أنه اعتاد العيش معها.. تحيطه هي وأميفيغنا بكل عناية.. وهكذا اعتبر نفسه يحيا وجودًا مريحًا ويتعلق به والمحافظة عليه كثيرًا.. ومنذ أيام بدت باربارا منفصلة.. مكتئبة.. تغير كل شيء في سلوكها وطباعها.

- لا أظنها وقعت في غرام جديد.. قال يخفف عنه كآبة الجو وسوء التصرف.

وفجأة انتهى كل ذلك، وبطريقة غريبة، كما بدأ.

بينما كان كليم عائدًا من الجامعة في يوم ممطر عاصف.. وقد أتعبته الدراسة، سمع في الغرفة المجاورة لغرفته، سمع صوت الشماس.

ودون أن يستأذن قرع الباب ودخل:

- من أين أتيت؟ سأله كليم.

- هكذا أتيت..

- أتعمل في مصنع للزجاج؟

- لم أخلق لهذا.. ظنوني مجنونًا.. أجاب الشماس عابسًا.

- كم تجيد التعبير، قالت باربارا متنهدة..

- يجيد صناعة الكلام كثيرون.. لكن المهم هو التحدث عما يجب، قال الشماس وقد انتفخت أوداجه.

كان كليم يتضور جوعًا.. ولكنه فضل الاستماع إلى الشماس.

- الحب.. هو ألذ أعجوبة في العالم.. مع أنه ليس هناك ما يدعونا لأن نحب بعضنا بعضًا.. ولذلك ترانا نفعله ونستميت، أحيانًا، من أجله..

كثيرون هم أولئك الذين يعرفون كيف يحبون بصبر وأناة.

فسعل وبصق في منديله.

- يتنكرون لوجود الله ويدعون أن حبهم قائم على أسس علمية.. ولذلك فهو أشد قوة وأكثر صلابة.

- عمن تتكلم؟ سأله كليم.

- عنك! أجاب الشماس دون أن يلتفت إليه.. عن أولئك الذين يتفلسفون عبثًا.. انفصلت عنك روحيًّا وسأتبع طريقي الخاص؛ لأعلن للناس أن الله موجود وشرائعه قائمة.

- أتريد شايًا؟ سأله سامغين.

نظر إليه الشماس دون أن يفهمه:

- وماذا بعد؟

- أتريد شايًا؟

- لا.. أجاب بامتعاض ووقف يترنح.. إذا ستكتبين إلى ليبوف ديمتريفنا.. قال يخاطب باربارا.. سأذهب إليها في أوائل شهر مايو.

- هل تحتاج إلى دراهم للسفر؟ سألته ووقفت.

- لا، إياك أن تنسي أمر الشاب.

- أجل. بالطبع! اسمه كوموف؟

- بول كوموف. وداعًا.

حياها وغادر الغرفة دون أن يصافحها هي أو سامغين.

دخل كليم إلى المطبخ يطلب من الخادمة طعامًا.. وعندما رجع وجد باربارا مستلقية فوق مقعد مريح في الزاوية.. وذقنها تستريح فوق ركبتيها..

- تتكلم عن الحب بطريقة رائعة ومدهشة.

قالت هذا بهدوء وغنج.. وظن هو في أقوالها ملامة وتحديًا..

كان يقف قرب النافذة مديرًا لها ظهره.

- أجل.. إن المحادثات حول هذا الموضوع، تكون مدهشة دائمًا.

ضرب الزجاج بأظافره وتابع:

- مدهشة بعدم فائدتها.. إن الذين يتحدثون فيها هم أمثال الشماس: رجال أفكارهم خاطئة متزعزعة.. خبثاء.. لا يملكون الشجاعة على الاعتراف بالحقيقة.. وبأن العالم قائم على الخصومات والصراع.. ولا مكان فيه للتخنث والحكايات الخيالية.

- لا. أجابت باربارا.

وتساءل سامغين إذا كان هذا احتجاجًا أم سؤالًا.

فشعر بها تغادر المقعد واقتنع بأنها تقترب من الطاولة الآن.. منتظرًا أن تناديه لتناول الغداء. أكمل خطابه حتى اللحظة التي دخلت فيها أميفيغنا الغرفة وسألته فرحة:

- ولكن إلى من تتحدث؟

التفت سامغين، لم تكن باربارا في الغرفة.

جلس إلى الطاولة يسأل الخادمة:

- ما الذي دعاها إلى هذا التصرف؟

ثم اقترب من غرفتها يسألها:

- الغداء جاهز.

- لا أشعر بالجوع.. أجابت.

- هل أنت مريضة؟

- قليلًا.

* * *

دخل إلى غرفته بعد الغداء مباشرة وتمدد يقرأ مؤلفًا شعريًّا ضخمًا لبروسوف الشاعر الذي كان يعتبره دائمًا ضد المجتمع.

قرأ قليلًا ثم ذهب يرى ماذا تفعل باربارا.

لم تكن في المنزل بل غادرته، ولم يعرف إلى أين.

«إن شعلة الإيمان ضرورية للنفوس الخاوية» قال في نفسه.

«ثم هل تراني أغار منها؟» ردد ونظره معلق بساعة الحائط أمامه.

كانت تشير إلى السابعة وباربارا لم تعد بعد.

* * *

عادت باربارا إلى المنزل في تمام الحادية عشرة مساء.

سمع وقع خطاها على السلم وشاهدها تدخل إلى غرفتها تترنح.. لم تخلع معطفها ولم توجه إليه كلمة واحدة.

«إنها مخمورة»، قال في نفسه.

استمر مدة يذرع الغرفة ويحاول تنسيق الكلمات التي يود أن يخاطبها بها..

-لا.. سأقولها لها غدًا.. سوف لا تفهم شيئًا الآن.

كان كل شيء هادئًا.

«حتى القنديل.. لا تستطيع إنارته».. ردد في ذاته، «وإذا استطاعت فإنها ستضرم النار في كل شيء».

تناول قنديلًا مضاء ودخل غرفتها مكشرًا:

كان منظرها يثير الدهشة والاستغراب.. تطاول وجهها وتورمت عيناها، تتمسك بذراعي الكرسي ويرتجف ذقنها وتصطك أسنانها.

- ما بك؟ سألها سامغين ووضع القنديل فوق طاولة صغيرة قرب سريرها. أجابته بصوت خافت، تلهث:

- ساعدني على خلع ثيابي.. أغلق الباب.. الباب.

- ما معنى هذا؟

- أشعر ببرد قارس. قالت ونهضت تسير بتؤدة نحو الفراش، محدودبة الظهر وكأنها أصيبت في معدتها.

- هل سقطت؟ بم تشعرين؟ سأل كليم وقد أحس بأن الخوف يتملكه.

- اذهب وابحث عن الضمادات. إنها في جيب معطفي.. قالت تصر بأسنانها ثم استلقت فوق السرير.. أحضر الماء وأقفل الباب أسرع.. أوه.. يا إلهي!

- اسمعي.. أي ضمادات هذه؟ يجب استدعاء الطبيب.. هل أصبت بتسمم؟

- أصبت بإجهاض.. أغلق الباب كي لا ترانا أميفيغنا.. فأنا أخجل أن أبدو عارية أمامها.

- لماذا لم تخبريني؟ شيء خطير.. وقد يؤدي إلى الموت.

فهم عندئذ أنه لا يقول الكلمات التي يجب أن تقال. تخلصت باربارا من يده وألصقت وجهها الملتهب بوجهه.

- هيا يا عزيزي. لا تخف.. إنه في الشهر الثالث.. وليس هناك من خطر. آتيني بالماء ودعني أخلع ثيابي، هيأ ببرَّاد الشاي، حاول ألا توقظ أميفيغنا.

ذهب إلى غرفة الطعام المظلمة بعدما طلبته.. وعندما عاد، وقف أمام الباب ولم يجرؤ على الدخول.. سمعها تخلع حذاءها، فارتعش جسده وقال في نفسه: «يا للحماقة! ماذا سيحصل الآن؟».

فتحت باربارا الباب وقالت على مهل تهمس:

- تعال.

لم يدخل في الحال.. وعادت باربارا إلى الاستلقاء فوق سريرها من جديد تنتظره.

- يجب استدعاء الطبيب يا باربارا، إنني أتخوف من شيء.. يا للجنون.

وما إن سمع صوتها الحنون من جديد حتى انفجر باكيًا، يردد:

- جنون.. ولماذا نعقد الأمور.

كانت تربت فوق رقبته وتمر بيدها الناعمة على خديه تمسح الدموع بطرف كمها وتردد:

- شكرًا، شكرًا، يا عزيزي، لا تخف. ليس هناك أي خطر على الإطلاق.

غرزت أصابعها في شعره تحك جلدة رأسه وتضيف:

- لا أريد أن أكون عالة عليك. إنك رجل كبير.. هل تعرف أن المرأة الأم هي أقوى كبرياء من المرأة العادية؟

- لا تتكلمي. قال كليم يرجوها.. هل تشعرين بألم شديد؟

- لا. لكن أبدو متعبة.. ولا شيء يهم إذا كنت تحبني.. وها أنا الآن أتأكد من حبك لي.. أليس كذلك؟

- أجل.

- لعلك لم تكن لتسمح بإجهاضي لو سبق وطلبت إليك ذلك؟

- بالطبع، لا.. أجاب كليم رافعًا رأسه.. مسألة خطيرة جدًّا.. وما هو الطفل؟ شيء طبيعي بحد ذاته.

تنهدت باربارا بعمق وقالت:

- ضع شيئًا فوق ركبتي.. إذا سألتك أميفيغنا شيئًا، قل لها إنني سقطت وأصبت بجروح.

«إنها تحبني بجدية.. وبفضلها بت أنظر إلى نفسي من ناحية ثانية.. قضية مهمة.. تستحق الاعتناء والتقدير». هذا ما ردده كليم في نفسه وهو واقف أمام النافذة يتطلع إلى الهلال الآفل.

شعر بالبرد يقرصه فأقفل النافذة وجلس فوق الكنبة.. ونام.

لم يستفق إلا عندما دخلت أميفيغنا تهزه.

- على مهل، إن باربارا مريضة.

- ماذا أصابها؟ سألت الخادمة مرتاعة.. علها أجهضت.

- يا للحماقة! ما الذي يدعك تعتقدين هذا؟

- إنني أشتم رائحة الدم.. وغادرت الغرفة تحك أنفها..

ثم عادت تقول له:

- إذا كنت أنت من نصحها بهذا، فإنني لا أدري، حقًّا، ماذا أقول لك!!

- لم أكن أعلم شيئًا من قبل.. هي التي قررت.

- يا لها من مجنونة.. كل الفتيات، أمثالها، يقدمن على تصرف طائش مشابه.. وأنا التي كنت أنتظر هذا الطفل لأحيطه بكل عناية.. إنكم لا تعيشون على سنة الله يا عزيزي كليم.. أحبك ولكن على غير هدى.

ثم سألته:

- ألم تستطع النوم طيلة الليل؟

وأمسك كليم بيدها وقال:

- أود أن أشد على يدك.. إنني أقدرك جدًّا.

- أوه! اليد! وأي فائدة ترجى منها.. إن لم نحسن استعمالها؟ ثم أحاطته بذراعيها وشدته إلى صدرها بقوة وعنف.. يسحق نهديها وتمتمت:

- إنكم أطفال.. أولاد حقيقيون.. ولدتم من إله غريب!

دخلت عليه ثانية تسأله كيف حدث وسقطت باربارا؟ هل أصيبت بأذى فادح؟ هل استدعى الطبيب؟ هل.. هل.؟

لم يجد سامغين وقتًا ليجيب عن هذا السيل من الأسئلة، إذ نادته باربارا تقول:

- هل لي أن أطلب إليك شيئًا؟

هز رأسه باسمًا.

- لا تتكلم إلى تانيا.. إنها محتالة.

- حاضر.. ويربت فوق شعرها.

انتظر برهة وظنها تود أن تضيف شيئًا آخر.

- بم تفكرين؟ قال يسألها.

- في العدالة.. قالت تجيب متنهدة.. إذ ليس هناك من عدالة واحدة سوى الحب.

تريث كليم برهة وأضاف:

- ما إن أفرغ من أداء الامتحان، حتى نسافر معًا لنرى والدتي.. وإذا رغبت نتزوج هناك.. هل تودين؟

لم تجبه، ولاحظ بريقًا في عينيها الناعستين.. ثم عاد يضيف:

- ثم ننزل إلى أوكا، والفولجا.. هل نذهب إلى كريميه؟

تأوهت باربارا ورفعت يد كليم تضمها إلى صدرها وتشد عليها.. لتقول:

- لا فرق عندي.. وهذا ما أودك أن تفهمه.

- لا تتحركي.. أجاب.

* * *

استعادت باربارا حيويتها ونشاطها بعد ثلاثة أسابيع.. وازدادت جمالًا وأناقة.. كما أنها استمرت تحيط كليم بالعناية، وتغدق عليه من حبها وحنوّها..

وفي يوم جميل من أيام مايو الرائعة، جلسا إلى حافة الغدير يمتعان الطرف بالمناظر الخلَّابة المحيطة بهما.. وفجأة قالت له:

- هيا ندخل. لقد حان الوقت. ألم تخبرني أنك ستقرأ الليلة خمسين صفحة! يسرني جدًّا أن تكون دروسك قد شارفت على نهايتها.. يا لهذا القلق العقيم.

أخذها كليم من يدها وسارا يدوسان فوق الأعشاب الخضراء.. التفتت إليه تقول:

- يبدو لي أنه ليس هناك ربيع أجمل من ربيع موسكو بالذات.. مع أنني لم أزر أي بلد آخر.. وتصور أنني لا أرغب بأي زيارة كانت وإلى أي بلد كان! إذ أخاف أن أرى شيئًا رائعًا أتعشقه بدلًا من موسكو.

- أفكار صبيانية، أجابها كليم مبتسمًا.

- فعلًا.. قالت مؤيدة.

صمتت برهة وعادت تسأله:

- ألا تعتقد بأن الحب يتطلب اعتناءات وتدابير خاصة؟

- ولكن ليس الاندفاع الأعمى، قال سامغين يجيب.

تقدم سامغين إلى الامتحان ونال، بعد ثلاثة أسابيع، دبلومًا في الدراسات الحقوقية.

* * *

عاد كليم إلى منزل والدته فاستقبلته بفرح عارم.. وبعد استراحة يومين سألها عن السيدة سبيفاك وزوجها.

- إن الزوج المسكين يعاني سكرات الموت.. ويجب عليك أن تذهب إليه وتعوده. لم يتوانَ سامغين دقيقة وانطلق إلى منزل السيدة سبيفاك ينفذ رغبات أمه.

وصل إلى فناء الدار وشاهد السيدة سبيفاك ترمي بالماء من نافذتها.. تطلع إليها وسألها:

- هل يمكنني أن أدخل؟

- طبعًا، أجابت بصوت عال.

استقبلته تضم إلى صدرها زجاجتين من الماء الساخن.. كانت منقبضة الوجه تزيد في امتعاضها حرارة الماء:

- هل تريد أن تدخل عليه؟

لم يكن كليم يرغب بمشاهدة المريض، ولكنه تبعها إلى غرفته دون أن يقول شيئًا.

- أوه، هذا أنت؟ قال السيد سبيفاك لاهثًا.. هل رأيت.. وفي يوم كهذا بالذات.. يا لشدة أسفي وعمقه..

انحنت زوجته تضع كيس الماء الساخن بين رجليه، بينما انصرف كليم إلى التأمل في المريض.. يتفحص كل عضو منه بدقة وإمعان.

- لا أخاف من الموت أو أرهبه.. لكن سئمته، قال سبيفاك بصوت أقرب إلى الحشرجة منه إلى التمتمة.

كانت السيدة سبيفاك تقف إلى جانب كليم، لا تبدي حراكًا، تتطلع إلى وجه زوجها وتحدق فيه كمن يود أن يقول شيئًا..

- طبعًا، أظنني سوف لا أموت في الحال.

- إنك تبالغ.. فالمصاب بمرضك يعيش مدة طويلة.

- سوف لا نطيل البقاء ونزعجك، قالت الزوجة..

- وداعًا، قال كليم.. وخرجا من الغرفة.

وما إن عادا إلى غرفة الاستقبال حتى وقف كليم يخاطب الزوجة ويقول:

- لا أستطيع أن أتصور قساوة الشمس وكيف أنها..

وضعت السيدة سبيفاك يدها فوق كتفه ولم تتركه ينهي عبارته، بل أضافت تقول:

- يفضل اللجوء إلى الفلسفة في مناسبات كهذه..

غادر منزل السيدة سبيفاك.. وبينما كان يسير في حديقتها تطلع إلى منزل باربارا فشاهدها في النافذة.. تقدم من الحائط وقال بصوت قلق:

- لم تحسن الاختيار.

- هل هذه المدة قريبة؟ سألته والتفتت إليه.

هز كليم رأسه مؤيدًا واقترح:

- تعالي من هنا.

شعر سامغين بخطأ فادح في نفسه، بينما كانت باربارا تندفع، رائعة، باتجاهه.. أجلسها في زاوية الحديقة وفوق مقعد أبيض رخامي ناعم، ثم أمسك ذراعها يسألها:

- أيؤلمك؟

- أجل.. أجل.. أجابت متنهدة.

ضمها كليم بقوة إلى صدره وراح يلعق شفتيها ولسانها في فمه.. أفلتت منه وقالت:

- ما أجمل أن يموت الإنسان فجأة.

- دعينا من هذا الحديث.. هل تعجبك المدينة؟

- ولكنني لم أرها بعد!! قالت تذكره.

راح كليم يحدثها بكل ما عرفه وقرأه عن المدينة في مؤلفات كوزلوف. وبينما كانت هي تتطلع إلى منزلها وتطرد نحلة حامت فوق رأسها، سألته:

- لماذا تراهم أشعلوا المدفأة؟

- كي يسخنوا الماء دون شك.

- هذا إذا لم تكن الخادمة التي فعلت هذا.. فهم يعتقدون أن الدخان يطرد الشياطين من بيوت المجهضات..

- ولماذا يودون، قال كليم، أن تهرب الروح الشيطانية من المدخنة؟

لم تبتسم باربارا، بل اعتصمت بالصمت فترة وعادت تقول:

-شعرت بأن قسمًا أُنتزع من حياتي، عند تلك القابلة.

أمسك كليم بيدها يقبلها ويسألها:

- ألم تعجبك والدتي؟

- لا أعرف، أجابته.. ظننتها تتحدث عمّا حصل للوهلة الأولى..

استاء سامغين من عودتها إلى نفس الموضوع، ولذلك قال بصوت أجشّ:

- لا يسعني أن أذهب غدًا بالذات.. وإلا غضبت والدتي واستاءت.

- طبعًا، أجابته في الحال.

كان الوقت ليلًا عندما عاد إلى المنزل.. فأوى إلى غرفته منهوكًا.. يرتاح.

وفي صباح اليوم التالي كان كليم أول من دخل إلى غرفة الطعام ليشرب الشاي.. بدا البيت ساكنًا.. لا حركة فيه.

بعد دقائق معدودة دخلت باربارا تلف رأسها بشال أخضر وتقول:

- وأنا كذلك، لم أستطع أن أنام. لم يسبق لي أن سمعت سكونًا مميتًا كهذا. شاهدت بتروفنا تخرج إلى الحديقة تتنزه..وكذلك امرأة أخرى.. بقيتا مدة طويلة قرب المدخل كالحراس.

- حرس؟ أظن أنهن كن ثلاث.

- أعرف. ألا يزال ذلك الرجل على قيد الحياة؟

كان كليم يود أن يجيبها بسرعة، ولكن الدكتور دخل عليهما فجأة وقال مبتسمًا:

- صباح الخير! هل تعلمان أن ذلك المريض لا يزال حي يرزق؟ إنه حدث غريب.

- لقد أخطأت باتكالك على سقوط الأمطار.

- إنها حادثة غير اعتيادية، أجاب الدكتور وهو يفتح النافذة.

- إن مهنتي مزعجة.. وآسف لكوني لست طبيبًا نسائيًّا.

دخلت السيدة سبيفاك واقترحت على باربارا أن ترافقها إلى مدرستها.. بينما رغب كليم في الذهاب إلى الجريدة ليتقاضى أجره عن مقاله الأخير. «أجل. إن أجمل حياة هي التي نعيشها في الريف» قال في نفسه وغادر المنزل.

* * *

وفي السلم المؤدي إلى رئاسة التحرير التقى بدرونوف يهبط مسرعًا.

- متى وصلت؟ هل مات سبيفاك؟ ظننتك جئت بالإعلان.. سأنطلق إلى زوجته أسألها عن المعلومات اللازمة.

ترك سامغين يمر وما إن أصبح في أسفل السلم حتى التفت وقال ثانية:

- إن الطقم يروق لك أكثر من أزياء الطلبة.

ناداه إلى مكتبه وجلسا وجهًا إلى وجه يتحدثان.

- إن مقالاتك تضحك رئيس التحرير.

ثم التقط درونوف حاملة الأقلام من أمامه ودفعها باتجاه كليم:

- إنها هدية.. من إحدى الممثلات.. فأنا الذي يشرف حاليًا على زاوية المسرح. تبين أن برافدين ماركسي متطرف.. ولذلك سرّحه رئيس التحرير في الحال.. وأنت ما هي أخبارك؟

كاد كليم أن يجيب لولا أن دخل رئيس التحرير، فامتنع عن الإجابة واعتصم بالصمت.

- مرض، قال رئيس التحرير مجيبًا ورفع قبعته ليعلن:

- إن الطقس حار جدًّا.

ثم تقدم من كليم ووضع أمامه رزمة من المخطوطات.

- اعذروني.. إنني في عجلة من أمري.. إذ عليَّ أن أذهب إلى مكتب الرقابة في الحال.

كان يتحدث بصوت خافت ينم عن الوجل والخوف:

- لا أستطيع أن أؤيد فكرتك حول الشعراء المحدثين! فيما تراهم يفيدوننا بالتجسس على النساء في الحمامات؟ بالزعم من أن أشهر أدبائنا لم.. توقف برهة وعاد ينجز حديثه:

- لا، يجب محاربتهم دون رحمة أو شفقة.

نهض يضم شفتيه ويضيف:

- لا يمكنني بالطبع هذا.. وإلا.. كان عملنا تجنيًا على الواقع وتهربًا منه.. وبكلمة مختصرة: اعتبرناك تشجع مثل هذه الأعمال المريبة!

بدا سامغين مستاء ولكنه لم يدع ذلك يظهر عليه بوضوح، لم يرد أن يناقش رئيس التحرير؛ ظنًّا منه أن هذا لا يليق به كشاعر يعتز بنفسه.. وعمله الأدبي.. خرجا معًا إلى الشارع ومد رئيس التحرير يده إلى سامغين يودَّعه ويقول:

- آسف جدًّا، ولكن...

- يا لك من وقح عجوز.. أجاب سامغين وقد ابتعد يسير في الظل الوارف.

«ماذا تساوي تلك الحقيقة التي يقدمها لك درونوف؟» قال في نفسه.

عاد إلى غرفته يود الاستلقاء والنوم.. ولكنه وجد هناك باربارا تقف خلف النافذة وتتطلع إلى الحديقة الغناء.

- اسكت، قالت تنبهه.. انظر.

تطلع وشاهد السيدة سبيفاك تجلس تحت شجرة تفاح كبيرة شاردة النظرات تضرب الأرض بكعب حذائها.. على مهل.

- إنها في وضع ممتاز.. قالت باربارا، هل تعرف بمن التقيت في المدرسة؟ بديونيف، ذلك العامل الضاحك، ألا زلت تذكره؟

- هل مات؟

- أظن.. اذهب واستعلم.

تركها وذهب إلى غرفة الطعام.. وهناك التقى بالدكتور فسأله:

- حسنًا، وذلك المريض؟

- لم يعد هناك من مريض.. إنني أكتب إلى البوليس أخبره بأن سبيفاك....

نزل إلى الحديقة يود تأمل السيدة سبيفاك عن قرب.. بقي فترة ثم ابتعد عنها مسرعًا، دون أن تراه، وعاد يلهث إلى النافذة.. حيث لا زالت باربارا واقفة.

- ماذا؟

هز رأسه يؤكد موت سبيفاك.

- هذا ما تكهنته، قالت تزفر بعزاء.

جلست فوق الطاولة تلتصق به وتحك فخذيها بفخذيه.

مد سامغين ذراعيه يضمها إليه.

- مهلًا، تكاد أن ترميني أرضًا.

ألقى برأسه فوق كتفها ويده تتلاعب بـ....

- انتظر، قالت تدفعه عنها برفق وتنطلق إلى النافذة تقفلها ثم تستلقي فوق السرير فاتحها ذراعيها و... وتقول:

- تعال الآن.. تعالى واجلس بقربي.. انزع عنك هذه الثياب.. هيا.. هل تشعر بملل أو عدم.. رغبة؟

- لا.. لا.. ها أنا قادم.. ثم تخلص من ثيابه بأقصى سرعة وتمدد إلى جنبها يعصرها بشهية..

- إنك رائع.. رائع..

- وأنت كذلك.. نا.. ناعمة ولذيذة.

* * *

- 3 -

سافر كليم وباربارا إلى مزرعة قريبة من الفولجا لتمضية «شهر العسل» على حد قولها. كان الطقس حارًّا والحرارة خانقة لا تحتمل.

وهناك التقيا بتريفونوف الذي أخذ على عاتقه قيادتهما في نزهة طويلة في نهر الفولجا.

كان يسرد على مسمعهما أسماء الأبنية الفخمة المحاذية ويتشكى بلهجة الحسود:

- سيأكلنا نوبل! والأرمن.

وفجأة توقف المركب وسط النهر.

- حسنًا، ماذا حدث يا جانوس؟ قال تريفونوف يسأل الربان.

- الآلة لقد توقفت.. أجاب الأخير بتعب وتهالك..

- ألم أقل لك يا ابن الشيطان.. أصغر أصغر.. يا ابن الخنزيرة.. سر بنا نحو الشاطئ.

واستطاع جانوس بعد جهد جهيد أن يصل بالمركب إلى شاطئ النهر.. ويستقر به فوق الضفاف الرملية.. وهنا التفت تريفونوف إلى زائريه يشرح لهم ما حدث:

- إنهم ليسوا رجالًا.. بل قرودًا.. يمضون وقتهم باللهو والعبث..

شاهدوا رجلًا عجوزًا يجلس بقرب كمية من رؤوس البطيخ.

- انظر، قالت باربارا، وكأني به يجلس إلى المائدة..

- أجل.. إن كل ما تقع عليه عيناك من أمكنة جميلة ندعوها نحن: «الأمكنة التسع».

ثم التفت إلى الرجل وصرخ فيه:

- أنت، أيها القوزاقي.. أسرع إلى البريد وقل لهم أن يرسلوا «الصياد» قل لهم إنني أنا تريفونوف، الذي أرسلتك.

- لا لزوم للصراخ أو لمكبرات الصوت.. إنني أسمع.

- اذهب حالًا.. أقول لك!

- كم تدفع؟ سأل القوزاقي.

- روبلًا واحدًا.

- خمسة وعشرين.. أجاب العجوز.

- هل سمعتيه؟ قال تريفونوف يخاطب باربارا ويغمز بعينيه ضاحكًا.

وعاد يؤنبه ويصرخ من جديد:

- ثلاثة.

- لا أذهب، أجاب الرجل وغرز سكينه في بطيخة أمامه.

- وسوف لا يذهب! قال تريفونوف يؤكد.. إنهم هكذا دائمًا.. جماعة من اللصوص والانتهازيين.. خمسة! عاد يقول.

- لا أذهب.. لا أذهب.. مفهوم؟

- ألا تعرفني؟

- ومن لا يعرفك يا فاسيليفتش؟ أجاب العجوز بقطع رأس البطيخ إلى أقسام صغيرة يلتهمها على عجل.

- إذن، فأنت مصمم ألا تذهب أيها اللئيم؟ عاد تريفونوف يقول على مهل.

- لا أود أن أسدي إليك أي خدمة، ثم رمى بالسكين والبطيخ إلى الماء.

«لقد أحسنت باربارا الملاحظة.. إنه يبدو أمام الماء كما يبدو أمام المائدة» قال سامغين في نفسه.

- أعرف أنك صاحبي.. قال تريفونوف يحادث القوزاقي.

- ابحث عن إيفان كالميكوف.

- إنه لا يخاف شيئًا، قال تريفونوف يشرح لباربارا، لا يخافون شيئًا على الإطلاق.

استمر كليم صامتًا طيلة هذه الفترة.. لم يدل بشيء البتة.. متحاشيًا التحدث أو التعليق.. أراد أن يبدو شجاعًا.. لا يرهب الموت وحتى لو جرفت المركب الصغير إلى القاع وقضت عليهم جميعًا.

وأخيرًا، قرر الكلام. وبعد أن صعدوا إلى مركب آخر مع الصيادين الذين مروا بهم.. قرر أن يتحدث ويفرّج عن نفسه.

- غير صحيح أن الطبيعة تخاف الفراغ.. فهناك فهجوات هوائية كثيرة.

- أوه.. كليم.. أرجوك.. دعنا من الأشياء الفلسفية والجدية.

- ألا يتوجب علينا أن ننام؟

- لا. قالت، ونظرت إليه برجاء.. لا يمكنني أن أذهب من هنا.. فالمنظر رائع للغاية.. دعني.. دعني أتمتع به!

- سوف تتعبين.

- اجلس بقربي.

نزل عند طلبها واقترب منها بضمها إلى صدره.

- بم تفكرين؟

- لا أفكر أبدًا، قالت هامسة.

- أتعنين إذن؟

- ولست بغافية كذلك!

لم ترد أن تتكلم. نظر إليها سامغين وقال في نفسه:

«كنت جدًّا لطيفًا معها، عاملتها برقة وهدوء.. وها هي تتناساني الآن.. يجب أن أكون أقسى من هذا.. وأتخلص منها متى سمحت الظروف.. وإلا عليها أن تخضع لرغباتي بكليتها.. يجب أن أفهم كل ما تقوله وتحس به.. كما يتحتم على الرجل أن يتشرب أفكار المرأة وأحاسيسها ولا يدع شيئًا منها إلا وأحاط به..».

أعجبته فكرته هذه وراح يقلبها على جميع الأوجه.. يرددها مثنى وثلاث وكأنه يحاول أن يحفظها عن ظهر قلب.

نظر إليها فوجدها نائمة.. استاء جدًّا وازداد قلقًا وحيرة.. أراد أن يمسكها وينهرها بعنف، ثم يسألها بقسوة:

- بم تفكرين؟

كان هناك سؤال واحد يعذبه: لماذا لا يبادل بربارا أحاسيسها؟ لماذا لا يستطيع أن ينقل إلى قلبه كل ما يدور في خلدها وقلبها؟

وذات يوم قال لها:

- سيكون الحب أكمل وأغنى إذا استطاع الرجل أن يحسن شعوره وشعور امرأته كذلك!

وفي صباح اليوم التالي، عاد يسألها:

- قولي، هل تريدين أن تحسي بما أحس به أنا؟

- أوه.. طبعًا، أجابته بلهجة واثقة..

لم يصدقها ولذلك عاد يشرح لها دقة سؤاله.. دهشت بربارا وصرخت فيه قائلة:

- ولكنني أحس بك.. أحس ما تحسه أنت!!

- وكيف تحسين بي؟

- لا أعرف كيف أعبر عنه.. لا أجد طريقة تساعدني على التعبير.

- يكفي، أرجوك ألا تتكلم بعد عن هذا.. إذ إنني بت أخاف الكلمات.

مر كليم بيده يمسد فوق وجهها وشعرها.. لا، لم يكن راضيًا.. بل حزينًا؛ لأن باربارا لم تفهمه.

- هل تذكرين غونتشاروف وكتابه «الزورق بالادا؟» عاد كليم يسألها.

- أجل.

- هناك فصل يتحدث فيه الكاتب عندما كان فوق جسر وتطلع إلى البحر فوجده قبيحًا وغامضًا.. هل تذكرين؟

- أجل.. أجابت.. ولكن لا، لم أقرأ ذلك الكتاب أبدًا.. كيف يمكنك أن تفكر بهذا الكاتب.. وهنا بالذات؟

- إنه كاتب ممتاز.

- وأنا لا أحبه.

سر كليم وهو يستمع إلى لهجتها القاسية، كانت له أكبر مفاجأة.

صمت برهة، وعاد يسألها.. يفكر بإثارتها علها تفضي بشيء من الأسرار العميقة المدفونة في صدرها، والتي لم يستطع أن يفهمها هو بعد.

- يقولون إنه طريق يقود إلى جهنم.. ولعل دانتي شاهده.. هل لاحظت بينما كنا نصعد، كنا في الوقت نفسه نبدو وكأننا نهبط؟

- أجل.. أجل.. أجابت بسرعة وارتباك.. ولكنني أحس برغبة للسكوت.

تحدث الشعراء كثيرًا عن مثل هذه الحالات.. حتى هم كذلك لم يعرفوا ماذا يقولون!

- صحيح، أومأ كليم برأسه.

صمت برهة يضغط فوق يدها وعاد يقول:

- حقًّا، لا أعرف بعد. أفكر بدون كلمات، أجابت ممتعضة.

- لا يمكننا أن نفكر بدون الكلمات والأشكال.

- أتنفس فقط، قالت، أتنفس.. ولم يحدث لي أن تنفست يومًا بعمق كهذا.

- حتى الثلج، عندنا في روسيا له رائحة.

- رائحة قذرة، أجابت وكأنها تحلم.

* * *

عادا إلى الغرفة وتعرت باربارا من نصف ثيابها ثم قالت تسأل سامغين وتنظر من النافذة المظلمة:

- لقد سبق لي ورأيت كل هذا.. لم أعد أذكر متى.. ولكن ربما يوم كنت صغيرة وفي الحلم بالذات.. كان خوفًا مريرًا ومرعبًا يا عزيزي كليم. أؤكد لك.. ها أنا اليوم.

وانفجرت تبكي وتندب:

- رغم هذا، ما زلت تغضب مني!

كان يستمع إليها ويلاحظ تقلبات سحنتها من وراء نظارته السميكة.

- ولعل باشكين وقف هنا بالذات عندما أعجب آرافكا، قالت. لا شك أنك تذكر كتابه «على تلال جيورجي»..

- لا، أنت، فقط، همس في أذنها يردد.

ضغطت باربارا فوق يده وكادت أن تسحقها.

- شيء لا يتصور! يفوق الخيال! كم من الأشياء يستطيع الشاعر أن يعبر عنها بكلمات ثلاث!

- أجل.. أجاب سامغين.. وقبلها بنهم.

لم يحس كليم بالسرور الأكيد يملأ نفسه إلا عندما عاد إلى موسكو وانتهت هذه الحياة المتنقلة.. وحيث هنا لا اختلاف أو تناقض في الآراء بينه وبين زوجته... باربارا.

* * *

انصرفا، منذ عودتهما إلى موسكو، إلى ترتيب سير حياتهما ووضع برنامج خاص بهما.. بدت لهما حياتهما المشتركة رائعة ولطيفة.

استأجرا منزلًا كبيرًا وجلبا ما استطاعا إليه سبيلًا من الأدوات والأثاث.. وجاءت لوباشا سوموفنا تقيم معهما، بعد أن سمحت لها السلطات بالبقاء في موسكو والتجول فيها.

كانت باربارا تجلس كل مساء إلى لوباشا وآل غوغين تحدثهم عن رحلة «شهر العسل» التي قامت بها.. تصف لهم كل ما وقعت عيناها عليه، بدقة وأمانة.. بينما كان كليم في نفسه يستمع ويردد:

«إنها تختلق الكثير من لدنها.. وليس كل ما تقوله حقيقة لا غبار عليها».

* * *

علم كليم، فيما بعد، أن برنيدف ألف حلقة دينية يلعب فيها ديوميدوف دورًا كبيرًا ومهمًّا. كما تعرف إلى طالب آخر، أصبح من ذوي الشأن في ندوة برايس، هو زميف: رجل طويل القامة نحيفها.

جلس ذات يوم يتحدث عن الاشتراكية أمام كليم ويقول: إن الاشتراكية هذه ليست حركة ثورية.. ولكنها حركة إصلاحية وحسب.

- إنك متفائل جدًّا، أجابه تاساروف.. ثم ماذا تعني بقولك: «هل ستستيقظ روسيا؟».

كان كليم يعلم أن زميف كاتب لا بأس به وقد قرأ له رواية: «من أجل الشعب» وكيف أثنى عليها النقاد بالمديح، ولاقت استحسان جميع الأوساط الأدبية على مختلف ميولها.

وهنا عنَّ على بال سامغين أن يسأله شيئًا، فقال:

- عفوًا، ألا تعرف كاتين؟

- بلى.. لماذا؟

- أظنني التقيتك عنده.

- مستحيل.

- أظن ذلك منذ عشر سنوات.

- إذن، معقول.

صمت زميف برهة وعاد يخاطب كليم:

- لم أكن أعلم آنذاك أن كاتين رجل لا يصلح لشيء.. وأنه لا يحب الشعب، بل يحب الكتابة عن الشعب فقط.. وبصفة عمومية.. إن كتابنا هم..

- نيتشيين، انحطاطيين.

* * *

اعتاد سامغين ألا يؤمن بالكتاب ولا بالموجيك كذلك.. تراءى له أن شكواهم ما هي إلا عادة تدر عليهم بعض المال اللازم لشرب الفودكا.. وهكذا لم يكن يساهم بأي إعانة أو حفلة يعود ريعها إلى هؤلاء.

كان يمج حماقة النساء والفتيات.. يشاهد في عيونهم ما يمله ويسأمه.

* * *

استدعى مرّة إلى جامعة موسكو ليلقي خطابًا مهمًا في احتفال كبير.. ارتعب وخاف. خانته الكلمات وبات يتلفظ بأقوال اعتبرها الحضور ماسة بشعورهم.. فهجموا عليه يضربونه، ويكيلون له السباب والشتائم.

وعندما عادت باربارا ارتاعت من منظره الغريب وسألته ماذا حدث؟ طلب إليها أن تجلس بقربه وراح يقص عليها الحادث بالتفصيل.. حتى إنه ذكر لها بعض العبارات التي وردت في خطابه، واعتبرها المستمعون إهانة وتجديفًا.

- هل ضربوك كثيرًا، سألته باربارا بلطف.

- لا.

وقف يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا.. وعاد يجلس فوق مقعد مريح قرب باربارا.. تطلعت إليه هذه باستغراب وسألته:

- ولكن لماذا لم يوقفوك؟

- كان ليتم هذا لولا أن دفعني الطلاب بين الجماهير المنفعلة.. فهربت وأسرعت إلى هنا.

- أوه.. ما لي أرى معطفك ملطخ بالكلس.. كليم.. حبيبي. ضمته إلى صدرها وألقت برأسها فوق كتفه.

«لعلها لم تصدقني إلا بعد أن شاهدت آثار المعركة واضحة فوق المعطف».

وأثناء تناول طعام الفطور دخل عليهما ميتروفانوف.. دخل يبتسم.

ماذا تراه سيسأل؟ قال كليم في نفسه ووقف يرحب به.. ويتبين القلق البادي على محياه.

استقبلته باربارا كذلك بكلمات كلها شكر واعتراف بحسن صنيعه.

- كيف استطعت أن تخلصني من يد البوليس؟ قال كليم يسأله.

- إنهم لا يحبون الجرحى عادة.. ويشمئزون من منظرهم..ولذلك قلت لهم: «مهلًا، أرى جريحًا هناك».

كان الكوميسير صديقًا حميمًا لي.. كنا نلعب البلياردو معًا في حينًا.

- هل سألك من كنت؟

- لا..وهب أنه فعل.. فلم أكن على استعداد لأن أقول له، أجاب يغمز بعينيه.

- ولكن..كل.. كل.. يا إيفان، قالت بربارا تلح! يا لك من إنسان رائع.

رماهما إيفان بنظرات زائفة وكأنه حزر في نفسيهما شيئًا مناسبًا، ثم ازداد نشاطًا وراح يقول بلهجة فرحة:

- كنت أقف قرب مكتبة كاريوف عندما شاهدتهم يدفعون كليم.. اندفعت نحوهم كالسهم أصرخ: لا أحد يستطيع النيل من رجالنا.

سر سامغين وزوجته بأقوال إيفان.. ومنذ ذلك الحين أصبح من المقربين إليهما جدًّا.

* * *

لم تتوقف آلين عن الغناء أبدًا، وقرر سامغين وزوجته أن يذهبا إليها ويستمتعان بروعة أغانيها الجديدة.

- أجل، إن هذه هي باريس دون شك! قال أحدهم من ورائه.

- رائع.. أنيق، أجابه بصوت آخر.

لم يصفق سامغين، بل اكتفى بالإعجاب والتحدث إلى زوجته.

وفي الاستراحة شاهد توروبويف من بعيد.. أراد أن ينسحب ولكن هذا ابتسم له وقال:

- هذا ما أسميه لقاء!

ثم مد يده إلى كليم يصافحه ويضيف:

- ما قولك في هذا المكان الرديء؟

لم يجب كليم بشيء، بل عاد توروبويف يقول:

- لم يسبق لي أن رأيت مكانًا أكثر رداءة.. والأكثر غباوة من كل شيء هم المشاهدون أنفسهم.. يجب أن تصدق بأنهم اختيروا خصيصًا له.. إلى اللقاء. مد يده ثانية يصافح كليم ويوجز:

- هل تعلم بأننا قد نتوصل إلى فهم رافاشوو؟ أليس كذلك؟

أيقظت كل هذه الكلمات العداوة المتأججة في صدر سامغين.. أحس وكأن شيئًا يكاد ينفجر في داخله.. أتته العبارات قاسية منمقة فقال:

- لا شك أنك لم تقل هذا أمام أي إنسان آخر؟

- ولِمَ لا أقوله؟ سأله توروبويف رافعًا أهدابه، ثم اختفت البسمة من فوق فمه وتجهم وجهه. بل إنني أسمح لنفسي وأقول دائمًا كل ما أفكر به.

- حقًّا؟ ودائمًا. تمتم كليم، يتطلع في المرآة.

- لا شك أن مزاجك سيئ؟ عاد توروبويف يستعلم.. وحياه بإيماءة.

ذهب في الحال، وينصرف كليم إلى نظارته يمسحها ويداه ترتجفان.

* * *

في هذه الأثناء، اعتلت المسرح امرأة بيضاء تغني وتتوقف عند المقاطع المثيرة من أغانيها.. وتحدث في الصالة ضجة ممزوجة بالضحك والوشوشات.

كانت باربارا تجلس، محنية إلى الأمام، تمد عنقها. تطلع إليها سامغين مأخوذًا وهمس:

- يجب أن تحتج النساء.

- لماذا؟ سألته بلهجة حالمة.

- إنها مدرسة الرذيلة.

-وكذلك يجب أن يفعل الرجال.. أجابته متنهدة.. ثم أضافت تثني على المغنية:

- انظر! يا للقوام الرشيق والصوت الرخيم!

- أين هي من كل هذا؟

- وأليس الجمال مظهرًا؟

سكت سامغين وشعر بأنه قادر على الكلام البذيء.. لم يشاهد توروبويف في الصالة.. ولكن خيل إليه أنه رأى ابتسامة ليتوف الساخرة، وقد جلس في إحدى المقصورات الفخمة.

واستمرت المغنية البيضاء تتمايل وتردد الأغاني الخبيثة.. توزع الابتسامات على الحضور وتثير حماسهم وصراخهم.

* * *

فكر سامغين في كل هذا ووجد في نفسه الشجاعة الكافية ليقف ويصرخ في الحضور مهددًا منددًا.. تخيل بعض الوجوه خائفة مرتاعة تحدق فيه وتبحث عن طريق للهرب.

- يجب إرواء هؤلاء بالقنابل.

- انظر، قالت باربارا، ألا تبدو كالبجعة؟

- تعالي.

وفي الطريق التقيا بشخص اصطدم بهما فجأة وقال يعتذر:

- عفوًا.. من؟ أنتم؟

كان المتحدث ليتوف نفسه.

- قتل الوزير بوغوليبوف.. إنها الحقيقة أقول لكم!!

ثم رفع صوته وعاد يسأل:

- ما رأيكم بعشاء نختار مكانًا هادئًا.. إيفور مثلًا؟

- قال فلاديمير فاسيليتش، مفتش المباحث، إن الطلبة اغتالوا أحد الوزراء.

- غير معقول.. من منهم؟ قال ليتوف مرتاعًا يلكز كليم بمرفقه.

- وزيرهم، كما يبدو.

- لماذا؟

- من يدري؟

- وماذا تقول أنت؟

- سيثورون..

- هل كان عجوزًا؟ سألت باربارا.

- ليس كثيرًا، أجاب ليتوف بصوت عال وفرح.

جاء الخادم بالطعام.. وما إن غادر الصالة حتى ابتدأ سامغين يقول:

- إذا كانت الحركة الثورية ستسير من جديد في طريق التنكيل.. لم يكمل بل قاطعه ليتوف يضيف:

- لقد انتهجها وسيسير عليها.. إن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق..

- لا تنس الغربان..

- الذين يطيرون بخط مستقيم ويعيشون برخاء.. إن الاقتتال أهون من الانتظار يا عزيزي.

- تكلم بصوت منخفض، قالت باربارا منبهة.

ثم دار نقاش حاد بين ليتوف وسامغين حول الحركة العمالية، انتهى باتفاق بين الاثنين.

- أوه.. يا عزيزي.. قال ليتوف يصفر ويتطلع إلى باربارا.. إنه يتحدث عن الحركة العمالية! ما رأيك يا باربارا؟ وما الفائدة التي يرجوها من هذه الحركة؟

- إن الحساسية لا تهمني، قالت باربارا بقساوة.. وأدنت كأس النبيذ من شفتيها ترشفه على مهل.

- نخب ازدهارنا! قال ليتوف ورفع كأسه، ثم قال معزيًا: أجل، أجل! ها هي السياسة! ها هي الماركسية.. رئيس المثقفين في المستقبل.

تطلعت إليه باربارا بتخوف دون أن تخفي روعتها..

* * *

بدا ليتوف مخمورًا يتحدث في المسائل السياسية على غير هدى.. يتفوه بأشياء بذيئة ويترنح إلى اليمين وإلى اليسار.. يتكئ فوق الطاولة حينًا.. وينظر إلى كأس النبيذ أمامه فيضحك ويضحك.

نهضت باربارا وتطلع إليها سامغين يعترف بحسن جميلها.. إذ إنها أخرجته من هذه العلقة الساخنة..

- أجل، لقد حان الوقت لكي نعود إلى المنزل. أليس كذلك؟

- إننا نعيش في بلد مزروع بالشقاق والفساد.. قال ليتوف مودعًا.

وما إن أصبحا في الشارع حتى قالت باربارا بقرف:

- يا إلهي! يا له من رجل! كيف باستطاعتك أن تتحمله؟ لماذا لم تخبره حقيقته؟

لم يجب سامغين.. وما إن وصلا إلى البيت حتى قالت تحدثه من جديد عن ليتوف.

- لست أدري إذا كان مقتل الوزير يسره أم يخيفه؟

خلعت معطفها وعادت تضيف:

- يقولون إنه يبذر مالًا.. كثيرًا.. على آلين؟

- معقول جدًّا، هدر سامغين قائلًا..

وما إن أوت زوجته إلى فراشها، حتى تنفس بعمق وقال:

- يا إلهي. كم تبدو آلين فاتنة!!

* * *

أوى إلى سريره وأطلق العنان لأفكاره وتأملاته.. فكر أنه قد يكون لها ضلعًا في المؤامرة التي قضت باغتيال الوزير. إن الأشخاص الطيبين ومن هذا النوع بالذات، قادرون على فعل كل شيء.. ومع ذلك فهم أناس دون إرادة أو شعور، ولكن ميترفانوف شخص عادي، ليس صالحًا، وليس شقيًّا.. ومن المؤسف أن يغادر المدينة إلى الريف.. أما العم ميشا، فهو في المستشفى يعنى بعميان الحرب، أما هو ولوباشا، فهما مستأجران غير مرغوب فيهما، ومن الغريب ألا تفهمه باربارا جيدًا.. إذ إنها تكون أفكار غير صحيحة عن جميع الناس.

- ألا زلت مستيقظًا، سمعها تناديه من سريره.

- أجل.

- تعال إنني أشتاقك بوحشية.

اندس بجانبها وغرقا في بحر عارم من اللذة..

مضت دقائق معدودة ونهض يترك سريرها.

- إلى أين؟

أود أن أنام.

- لِمَ العجلة؟

- لديَّ ما أعمله غدًا.

تعقيب: أين تكمن عالمية جوركي؟

ما هي الصفات المميزة لأدبه؟

لا يمكن التحدث عن أي أديب سوفيتي، في عصر جوركي إلا أن نقرن أعمال الأديب بالثورة.. أو بالبذور التي غرسها.. وما هي النفسيات الي عمد إلى تحليلها.. ثم كيف عالج التيارات المختلفة النزعات التي رافقتها.. وما هو الدور الذي يلعبه الأديب في إعداد التربة الملائمة لاستقبال الفرسات الثورية؟

وهناك سؤال آخر نطرحه.. ما هو دور المجتمع الرأسمالي المتحكم في رقاب الشعوب في معاكسة التيار الثوري، وهل بإمكانه الصمود أمام الرياح الثورية عندما تهب هذه عاتية مزمجرة تقتلع من الجذور اليمين الرجعي وتلقي به إلى الأعماق.. هل هناك من يتجاسر على معاندتها؟

* * *

نجد الإجابة الوافرة على هذا السيل الفائض من الأسئلة والتيارات الفكرية في كتاب «طلاب الليل».

عرف عن جوركي أنه رأسمالي صغير.. هكذا دعاه أصدقاؤه.. حتى لينين حاربه ولكنه كان يحترمه من حيث المبدأ وإدلاء الرأي..

لم تظهر آراء جوركي الثورية والفكرية جلية واضحة، كما ظهرت في كتاب «طلاب الليل»، فالقصة هذه هي تطور حياة الكاتب نفسه وجلاء أفكاره بالاحتكاك مع الطبقات المختلفة للمجتمع الروسي بكامله.. من الكاهن إلى الممثل.. وحتى الموسيقي، أشركه جوركي معه في الغوص بحثًا عن مفهوم الحقيقة التي ينشدها الكاتب ويتوق إلى معرفتها.

* * *

يتعرض سامغين- الذي هو جوركي نفسه- يتعرض إلى انتقادات لاذعة من قبل رئيس تحرير الصحيفة التي كانت تنشر له بعض مقالاته والكثير من قصائده.

غادر بلدته النائية وجاء إلى موسكو ليلتحق بالجامعة.. وهناك التقى بزمرة من الرفاق.. مختلفي الآراء.. لا تجمع بينهم مودة أو وحدة فكرية.. منهم المؤرخ ومنهم الكاهن، ومنهم الموسيقي..

يلتقون دائمًا في دار المؤرخ.. كوتزلوف.

اجتمع إليهم سامغين ولكنه كان متحفظًا دائمًا إزاء آرائهم.

* * *

ونتساءل هنا عن السبب.

ويأتينا الجواب على لسان سامغين نفسه، إذ يقول: «لم أكن أتصور ذلك الخبيث أنه يتمتع بغباء كهذا.. يودنا أن نتآمر معه ونساعده على القضاء التام على الأعضاء الثوريين».

إن المؤلف يشير هنا إلى الإجراءات التعسفية التي تعرض لها يوم جاءه الجند واعتقلوه.. ثم طلبوا إليه أن يتعاون معهم ويتخلى عن مبادئه وأهدافه.

* * *

يصور جوركي دور المجتمع الرأسمالي السفاح عندما يحدثنا عن المذبحة التي جرت في الريف وكيف شاهد سامغين العمال يتطايرون في الفضاء وينغرزون في الأخشاب، يلاقون حتفهم على مرأى من المخربين.. أصحاب الآراء المعادية للتطور الإنساني.. «دعه.. لا تلمسه.. وإلا اتهموك بقتله» هذا ما كان سامغين يردده على لسان شاهد عيان..

* * *

يقرن جوركي التحليل النفسي لكل أبطال رواياته بالدور الذي يلعبه كل منهم.. كما أنه يبين إلى أي حد يمكن للبطل أن يتمادى بالتعبير عن آرائه.. وهكذا زي الالتزامية تسيطر على الأدوار المنوطة بكل طالب من شلة سامغين. لكن هناك ما يدفع كل عضو إلى التخلي عن دوره وتعدّيه إلى أكثر.. ولكن هذا

التعدي يبقى محصورًا في نطاق ضيق هو نطاق الآراء الشخصية وحسب.. ومرد ذلك عائد إلى أسباب عديدة منها:

1 - إن العضو يلاقي ضغطًا سياسيًّا يفقده الكثير من مرافقيه ويبعده عنهم وهكذا يتبدد أمله بالوصول إلى الهدف.

2 - عدم الكفاءة الشخصية، وإن لم تكن أكيدة، فإننا نرى العضو يتخوف منها ويخشى أن يمنى بالفشل الذريع.. الذي يتذمر منه الكاتب دائمًا.

ويبقى شيء ثالث يبرهن الكاتب على التزام البطل به، ألا وهو المحافظة على المبادئ والوعي الكامل للمسؤولية الملقاة على عاتق كل طالب.

* * *

يصوّر الكاتب حوادث روايته في جو لا يخلو من الرومانسية.. وخاصة عندما يحدثنا عن كليم وعن صديقه ليتوف، والليالي الحمراء التي قضياها معًا في منزل بعض الصديقات.. ولعل أهم ما يطالعك وأنت تغوص في أعماق البحث الدقيق عن معاني التيارات الفكرية المتضاربة، لعل أهم ما يصادفك هو التمسك بالمبادئ.. والفيض في التحاليل النفسانية، وإن لم يبلغ الذروة كما عرفناها في رائعته، الأم، لكن تبقى عميقة ومشوّقة..

* * *

وجوركي ناقد لاذع، لا يتوانى لحظة عن تقويم الحقيقة والعمل على إعادتها إلى نصابها.. يكره التملق ويمقت المخادعة.. ولأجل ذلك رأيناه، عندما تزوج من رفيقته باربارا، يحاول التخلص منها.. إذا ما أقلعت عن التفكير العقيم ووجهت نضالها نحو العمل المثمر..

انتقد الداعين إلى الثورة وطالب بمجموعة الأفكار النيرة لتخلص المجتمع وتريحه من الأفكار السمجة والعقول المتحجرة.. انتقد الإرهاب والذل.. ورفض الحياة الهادئة.. «التي تؤمن له دراسة كل فرد من أفراد مجتمعه، على حدة.. ليجد الدواء الناجع».

* * *

يأتي جوركي، بعد دوستويفسكي من حيث الشرح الوافي لمفهوم الشخصانية والدور الذي لعبته في تطوير مفاهيم الاشتراكية الحديثة.